



فَلَسَفَتْهَا

هَضْمَةُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَام

أَوْ نَكْبَةُ الشَّيْخِ الْعَظِيمِ فِي سَبْطِ النَّبِيِّ



تَأَلَّفَتْ

لِلْعَلَّامِ الشَّهِيدِ

السَّيِّدِ سَيِّدِ السَّيِّدِ عَالِي الْقَبَائِلِ فِي الْبَحْثِ

مَوْصُوفِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ

فَلَسَفَتْهَا

هَضْرَةُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَام

أَوْ

نُكْبَةُ السَّيِّدِ الْعَظِيمِ فِي سَبْطِ النَّبِيِّ

تَأليف

لِلْعَلَّامِ الشَّهِيدِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ السَّيِّدِ عَلِيِّ الْقَبَّاسِيِّ النُّجَافِيِّ

تَقْدِيرٌ وَتَحْقِيقٌ



مُؤَسَّسَةُ خِدْمَةِ الزَّكَاةِ وَالشَّعْبِ

رقم الإصدار: ٣٧



مكتبة نجف الأشرف

النجف الأشرف

شارع السور - قرب جبل الحويش

هاتف: ٠٧٨١٦٧٧٢٢٦ و ٠٧٨١٢١٤١١١١

فلسفة نهضة الحسين عليه السلام

أو

نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

تأليف

السيد حسن القبانجي رحمته الله

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٣٧

العدد: ٣٠٠٠ نسخة

الطبعة الأولى: ١٤٣٧ هـ

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة

المقدمة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين.

الكتاب والمنبر:

فقد كان من خصائص والدنا المؤلف الشهيد السيّد حسن القبانجي رحمته الله أنّه جمع بين الكتاب والمنبر.

ففي مجال الكتاب كان قد أتخف المكتبة الإسلامية بمجموعة من الكتب الرائعة لعلّ أبرزها مسند الإمام علي عليه السلام في (١١) مجلّد، وشرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام في مجلّدين^(١).

ورغم أنّ يده لم تفارق القلم والورق طوال سنوات عمره إلا أنّه كان يؤثّر الظهور والتواصل مع الجمهور في شهر رمضان المبارك وشهر محرّم الحرام من خلال المنبر الحسيني، إيماناً بأنّ المنبر الحسيني هو أفضل طريق لإيصال صوت الحقّ ورسالة السماء إلى الأُمّة.

وبهذا فقد اشتهر المؤلف الشهيد رحمته الله بأنّه عالم ديني وخطيب

حسيني.

(١) أنظر الترجمة الكاملة للمؤلف الشهيد في كتابنا (خطيب العلماء) والذي طُبِعَ مستقلاً، ونُشِرَ في مقدّمة كتاب المؤلف (صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة).

شهداء المنبر الحسيني:

ولكن المنبر الحسيني في العراق له قصّة أُخرى.

فقد كانت الحكومات الطائفية وعلى مرّ العقود الطويلة لا تسمح بحريّة التحرك للمنبر الحسيني إلّا في حدود ضيقة جدّاً، وأصبح رجل المنبر الحسيني ملاحقاً من قِبَل السلطات على كلّ كلمة يقولها وجملة يتفوّه بها.

وجرت مسيرة الإعدامات على عهد نظام البعث لتطال العشرات من رجال المنبر الحسيني، نذكر منهم ^(٢):

- ١ - العلامة الخطيب الحسيني السيّد جواد شبر.
- ٢ - العلامة الخطيب الحسيني السيّد عبد الرزّاق القاموسي.
- ٣ - العلامة الخطيب الحسيني السيّد جواد أبو الريحة.
- ٤ - العلامة الخطيب الحسيني الشيخ عبد الأمير أبو الطابوق.
- ٥ - العلامة الخطيب الحسيني الشيخ محمّد علي الجابري.
- ٦ - العلامة الخطيب الحسيني عبد الزهرة الكعبي.

لم يدخل هؤلاء في تنظيم سياسي، ولا غير سياسي، ولم يقفوا ضدّ نظام السلطة الحاكمة، وإنّما كانت كلّ جريمتهم هي صوت المنبر الحسيني الذي لم تكن تطيقه السلطة في العراق.

ولم يكن ذلك على عهد نظام البعث وحده، بل قد سبقه إلى حقبة العهد الملكي وبدايات العهد الجمهوري حتّى كان الوشاح بالسواد في محرّم الحرام ممنوعاً على عهد ياسين الهاشمي الذي شغل منصب رئيس

(٢) جمعنا في كتابنا (العلماء الشهداء في طريق الثورة الإسلاميّة في العراق) ترجمة أكثر من

الوزراء عام (١٩٣٥م)، والذي اشتهر بمعارضته للحجاب الإسلامي ومنع المجالس الحسينية.

قصة الكتاب في العراق:

ولم يسلم الكتاب من سطوة الحكومات الطائفية في العراق، فقد كان هو الآخر ملاحقاً ومطارداً كما كان المنبر الحسيني ملاحقاً ومطارداً. إنَّ مطالعة سريعة في عناوين الرسائل الجامعية للطلّاب في العراق سواء على مستوى رسالة الماجستير أو رسالة الدكتوراه تُذكرنا بأنَّ عشرات آلاف الطّلاب لم يسمح لهم الكتابة عن نهج البلاغة، أو الإمام الحسين عليه السلام، أو الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، أو تاريخ النجف الأشرف، أو تاريخ التشيع وعقيدته، أو الصحيفة السجّادية، أو حتّى علماء الشيعة من أمثال الشيخ المفيد والعلامة الحليّ والشيخ الطوسي، أو حتّى شعراء الشيعة من أمثال الفرزدق ودعبل والكميت...، بينما كان يُفرض على الطالب أن يختار عناوين بحوث بعيدة كلّ البعد عن أهل البيت عليهم السلام وثقافتهم وتاريخهم، بينما كانت كتابات مصر والأزهر وكذا كتابات القومية العربية تملأ المكتبات والجامعات العراقية. وتطوّر الموقف على عهد حكومة البعث إلى مطاردة الكتاب الديني مطلقاً، وأصبح العثور على كتاب ديني في البيت مدعاة لاتّهام صاحبه واعتقاله بتهمة الرجعية.

مداهمات متكرّرة:

وبحجّة البحث عن الكتب المخطوطة كان جلاوزة السلطة تقوم بين الفينة والأخرى بمداهمة المكتبات العامّة والخاصّة للتحريّ عن جممل الحراك فيها، وترويع أصحابها، والاطّلاع على من يرتادها.

لقد تكررّت مدهامات السلطة لمنزل السيّد الشهيد القبانجي بحجّة البحث والسؤال عمّا لديه من كتب مخطوطة، وفي كلّ مرّة كان السؤال عن فهرست المكتبة بينما كان الشهيد يسارع بإلقاء الفهرست من النافذة إلى عائلته وينكر لأفراد الأمن أن يكون لديه فهرستاً للمكتبة، بينما كان يُخفي الكتب النادرة لديه في أماكن خاصّة.

سؤال في المعتقل:

وتكرّر اعتقال السيّد المؤلّف على العهد العارفي - رئاسة عبد الرحمن عارف - مرّة، وعلى عهد البعث مرّة أخرى.

وفي المعتقل ما قبل الأخير عام (١٩٨٣ - ١٩٨٤م) وحيث كان يحتشد السجناء رجالاً ونساءً، شباباً وكهولاً وشيباً، كان جلاوزة الأمن يمعنون في إذلال السجناء وامتھانهم.

وذات مرّة كان ضابط الأمن يسأل السجناء عن رأيهم بالسيّد الرئيس صدام حسين، وبطبيعة الحال فإنّهم لا يملكون خياراً إلّا الثناء والمديح، ولمّا وصل السؤال إلى السيّد القبانجي قال لضابط الأمن وبالْحَرْف الواحد:

الرئيس الذي يعتقل النساء لا خير فيه!

فما كان من الضابط إلّا أن صفعه على وجهه وأطاح عمامته، فسارع إلى حملها ووضعها على رأسه وهو يقول: (لا حول ولا قوّة إلّا بالله)!

شھيد وأبو شھداء:

و شاء الله تعالى أن يختم عمر والدنا المؤلّف بالشهادة بعد أن قدّم أربعة شھداء من أولاده، وهم:

١ - الحجّة السيّد عزّ الدين القبانجي.

٢ - الشاب المثقف السيّد علي القبانجي.

٣ - فضيلة السيّد صادق القبانجي.

٤ - فضيلة السيّد عبد الحسين القبانجي.

كان ذلك بعد مداهمة عصابات البعث لمدينة النجف الأشرف ودكّها بالصواريخ بعد انتفاضة شعبان عام (١٩٩١م).

واعتقال مائة من علماء النجف الأشرف وسوقهم إلى مناطق مجهولة ودفنهم في مقابر جماعية لم يُعثر عليها بعد.

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

هذا الكتاب:

لقد أشار السيّد المؤلّف في مقدّمة هذا الكتاب إلى أنّ هذا الكتاب هو مجموعة مقالات وبحوث جمعها من كتب شتّى.

ويبدو لي أنّه كان يحاضر بها في محاضراته أيام وليالي محرّم الحرام، ويبدو لي أيضاً أنّ السيّد الوالد لم يتصرّف بها إلّا على مستوى التقديم والتأخير، وحذف ما لا يراه ضرورياً، فهو لم يصف من عنده شيئاً.

ومعنى هذا أنّ هذا الكتاب هو مختارات ممّا كُتِبَ في النهضة الحسينية ارتأى المؤلّف أن يجمعها في كتاب واحد.

إشارة وتقدير:

وربّما تضمّنت بعض هذه المختارات بحوثاً وكلمات عن الإمام علي عليه السلام أو عن الزهراء عليه السلام، أو غيرهما من الأئمة الأطهار عليهم السلام، ولمّا كان ذلك خارجاً عن عنوان الكتاب (فلسفة نهضة الحسين عليه السلام)

فقد اقترحت على أخي العزيز محقق هذا الكتاب سماحة السيد محمد القبانجي حذفها، خاصّة وأنها تُشكّل نسبة كبيرة من بحوث هذا الكتاب كمّاً كبيراً من أوراقه، واستجاب حفظه الله لهذا المقترح فاقصر في هذا المجلّد المطبوع على ما يخصّ النهضة الحسينية كما هو عنوان الكتاب الذي اختاره المؤلّف رضوان الله عليه.

ولا بدّ لي أن أتقدّم بكلمة شكر وامتنان كبيرين لأخي السيد محمد القبانجي على ما بذله من جهد في تحقيق هذا الكتاب ونشره، وأرى أنّ ذلك من أفضل البرّ بوالده، فهنيئاً له على هذه الحسنة التي أغبطه عليها، وهنيئاً للوالد عليه السلام على هذا التوفيق الذي جمع له العلم والمنبر وختم له بالشهادة، وجعله من أهل السعادة إن شاء الله تعالى.

صدر الدين القبانجي

٢ / ذو الحجة / ١٤٣٧ هـ

النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

هذه عدّة مواضيع في فلسفة نهضة الحسين عليه السلام نقلناها من كتب
متعدّدة نقصنا منها وزدنا فيها حتّى جاءت بهذا اللون لعلّ يتنفع بها
إخواني المسلمون ويثبينا الله فيها الأجر والثواب.

* * *

(١)

معطيات المآتم الحسينية

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۖ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ (الملك: ٣ و ٤).

مشاهد العظمة في خلق الله:

على ضوء هذه الآية الكريمة ذات المعاني البالغة حد الإعجاز تنجلي لنا قواعد علمية كبرى:

١ - إتقان الصنعة، وحسن النظام، وتساوي مصنوعات الله في الإتيان، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾.

٢ - أنها مسبوكه بيد القدرة لا فرج فيها، ولا تصدّع، ولا لحام صناعي كما في صناعات المخلوقين، ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾.

٣ - عظمة سعة الكون، ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

٤ - عظمته وأنه لا يُدرَك بالبصر، ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

٥ - انعكاس البصر في إجلاله في الأجرام العلوية المشعة، فرجوع البصر خاسئاً عبارة عن انعكاسه، فإن الناظر في الأجرام النورانية المشعة ينعكس عليه شعاع بصره فيعود حسيراً.

أمّا الجهة الأولى فلا تحتاج إلى برهان، فإنّ المخلوقات كلّها متقنة لا تفاوت بينها في الإتقان، وإن تفاوتت في الصور والقوى.
 قيل لابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧): هل أحسن الخنزير؟ فأجاب: إنّهُ متقن الصنعة^(١)، ومعناه: أن ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى أنقن لا بمعنى حسن، فيقال: فلان يُحسِن الصنعة يعني يتقنها.

قصة إديسون:

في كتاب المتقى من محاضرات جمعية الشبان المسلمين (ص ٣١٨) روى الأستاذ إبراهيم حسن محمد خطّاب المهندس أن (إديسون) ركب مرّة في سيّارة ومعه صديقه (فورد) فانطبق باب السيّارة على إصبع إديسون فأطار ظفره، وراه أحد أصدقائه بعد ذلك وإصبعه ملفوف فسأله عن ذلك، فقال له (إديسون): الأمر بسيط سقط ظفر الإصبع وغيره أخذ في النمو، إني أقول لك: إنّ العالم يعرف أيّ أكبر مخترع وكياوي، ولكن أليس عجزي عن اختراع ظفر هو حثالة من حثالات الجسم البشري دليلاً على عجز الإنسان مهما أُوتي من العلم؟ إنّ القدرة الإلهية العظيمة التي لم ندرك من سرّها إلّا الشيء التافه ستخلق هذا الظفر كما تخلق ما هو أكبر وأعجب منه في هذا الوجود، وهذا فرق ما بين قدرتنا وقدرة الله.

وأما الجهة الثانية فليستعرض الإنسان نفسه وليطبّق العضو الذي

(١) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (ج ٩ / ص ٣١٠ ح ١٧٨٢٥): عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، قال: صورته.

أصابه كسر أو صدع وعالجه الأطباء، أو معيَّ أبدله الأطباء، أو علاج عملية، وليقس ذلك على الأعضاء التي هي على أصل صنعة الخالق، ثم لينظر من الوجهة العلمية في الأنوار والأشعة المضئية فشمس وكهرباء، فهل تحدّث فيلسوف أو مخترع أنّ الشمس لها آلات ميكانيكية أو في مقومات أنوارها أجزاء كهربائية تزيد بسببه قوّة الضياء وتضعف وتتعلّط بنقص بعض الآلات، وإذا زادت توزيعات التيار الكهربائي على قوّة الآلة حدث الضرر؟ وهل يُتصوّر ذلك في نور الشمس؟ فإنّها لو حدثت عوالم مثل هذا العالم ووُزّع ضوء الشمس عليها لكفاها ولم يحدث أيّ اختلال في قرصها، ولا في مركزها، ولا في أيّ صفة من صفاتها، وهي تجري من أوّل تكوينها إلى أن يختلّ النظام الكوني عند قيام الساعة لم يقم أحد عليها بتصليح ولا بإبدال محرّك أو تغيير آلة وما شاكل ذلك، فلا فطور ولا تصدّع يقرّبها ولا خلل يتطرّق إليها.

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك: ٣).

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ لُبَّغْصَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

فأوّل الآيتين الشريفتين دلّت على وحدة الخلق من حيث ارتباطه بوحدة النواميس العامّة، وعلى انتفاء التفاوت من حيث الكمّ، والثانية دلّت على التفاوت في الكيف، والتفاوت كما كان جارياً في النفوس الملكية من حيث اختلاف مراتب الملائكة، وفي الأوضاع الفلكية من

حيث التفاضل بين الكواكب شمسها وأقمارها ونجومها الثابتة والدائرة، وفي مملكة الجهاد من حيث التفاضل بين الأحجار والمعادن والفلزات، وبين الأرضين الطيبة الخصبة والسبخة قليلة الريع، وفي المملكة النباتية من حيث التفاضل بين الشجر الباسق^(١) وغير الباسق، والمثمر وغير المثمر، والمعرش وغير المعرّش - أي المرتفع -، وبين زهره وثمره الطيب الشذا والمجتنى وغير الطيب، وبين نباته المختلفة أجناسه والمتعددة أنواعه ممّا يرتفقه الإنسان والحيوان أخضرًا ويابسًا وجنًا وعصفًا^(٢)، وفي السوائل من حيث التفاضل بين البحار والأنهار والمجاري والعيون بين ماء عذب زلال وملح أجاج، وما يرتفقه الإنسان في مرافق حياته للاستضاءة والوقود وتسخير السفن به في الماء والطيارات في الأجواء والقُطُر والسيّارات في الأرض والفضاء وفي الريف والصحراء.

كما كان التفاوت جاريًا في هذه العوالم والكوائن والمملكتين الجهادية والنباتية كان جاريًا في المملكة الحيوانية بين أدناها في سُلّم الأحياء وأرقاها وهو الإنسان خالصة من بُرأ الله من بريته وصفوة ما أبدع من خلقه، والتفاوت جارٍ بين كلّ جنسٍ من أجناسه وكلّ نوع من أنواعه، وبين مجموعته وأفراده.

وإذا كان التفاوت في الفضل في كثير ممّن ذرأه الله من صنع الله

(١) الباسق: البصاق، وقد بسق بسقًا، وبسق النخل بسوقًا: أي طال. (الصحيح للجوهري ٤: ١٤٥٠ / مادة بسق).

(٢) العصف: بقل الزرع...، وعصفت الزرع: أي جززته قبل أن يدرك. (الصحيح للجوهري ٤: ١٤٠٤ / مادة عصف).

خاصّةً فهو في عالمي الملك والإنسان الحدّ الأوسط بين عالمي الغيب والشهادة من صنع الملك والإنسان بأقدار الله، فالناس كالملائكة متفاوتون في درجاتهم ومراتبهم تفاوتهم في قبول الفيض الإلهي.

والإنسان مستعدٌّ من حيث فطرته وما اختصّ به من نعمة العقل وموهبة الشعور إن ماشى بهما سنن الله وما نصب من أدلّة معرفته وإعلام قدرته للعروج إلى معارج الكمال والالتحاق بالرفيق الأعلى ممّن سبقت له الحسنى، وللهبوط إلى حيث يشارك أخسّ الحيوان أو ينحطّ عنه إن أهملها وخالف سنن الله.

اتّحد الناس بالفطر والعقول وما اضطرّوا إلى العمل بوحيا وإلهامها اضطراراً ولا أكرهوا عليه إكراهاً، وإنّما رجع إليهم الاختيار في سلوك أحد النجدين المنصوبين لهم منه تعالى امتحاناً واختباراً ليسعد مطيعهم ويشقى عاصيهم، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (بلد: ١٠)، ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣)، فكان من أصاخ إلى الوازع (العقل) وإلى المبلّغ (النبي)، وإلى المؤدّي عنه (الإمام)، هو السعيد الناجي ومن لم يصح إلى الوازع والمبلّغ والمؤدّي هو الشقي الهالك.

رسول الظاهر هو رسول الباطن:

قضت مشيئته تعالى تأكيداً للحجّة على البشر وقطعاً للمعاذير وتقويماً للمعوجّ من فطرهم ومداواة للمعضل من أدواء نفوسهم أن يشفع إلى عقولهم (رُسُلُه الباطنة) رُسُلُه الظاهرة، وأن يستكمل خداج^(١)

(١) الخداج: النقصان، يقال: خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه. (النهاية في غريب الحديث ٢: ١٢ / مائة خدج).

الفطرة بكمالها، ويضيء السبيل المستبين بهديها، إسباغاً لفضله وإتماماً
لنعمته، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾
(الأنفال: ٤٢)، وبالغ في الرفق وأبلغ في العذر بإقامة الأوصياء بعد
الأنبياء نواباً عنهم في التبليغ والإرشاد في زمن الفترة وعهد انقطاع
الوحي.

وهكذا استمرت سنة الله في القرون الغابرة والأمم السالفة، ﴿وَإِنْ
مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، إلى أن ختم نبوة محمد ﷺ
النبوات، وقد استكملت أسباب سعادة البشر روحاً وجسداً، وجعل
لثقله الكتاب والعتره الكلمة الباقية والحجة الدائمة ما دامت الأرض
والسماء.

أودع الله تعالى في فطر البشر الانقياد إلى من يفضلهم في مواهبه
ويتفوق عليهم في مزياء الفاضلة، والشعور بإعظامه وإجلال قدره،
وأشرب قلوبهم محبته، وأنطق ألسنتهم بالإشادة بذكره، ليوقر في النفوس
القدوة به والطبع على غراره، وما شذَّ عن ذلك حتى الحيوان الأعجم.

لم يبخل الله في كتبه المنزلة ما استحقَّه المخلصون من عباده من
مدحة وكرامة، وحسبهم فضلاً وشرفاً ما أنزل فيهم من الآيات
المحكمات الخالدات التي لم تزل تُتلى في المحاريب والمنابر بكرة وعشياً
وغدواً وأصلاً ما تناسلت القرون وتعاقبت السنون.

وإذا كان كل إنسان مذكوراً بناحية من نواحي الفضل معظماً في
أُمته المنسوب إليها حياً وميتاً، ومستحسناً له نصب التماثيل وإقامة
التذكارات جيلاً بعد جيل، فيُعظم سقراط وإفلاطون وأرسطو وسولون
وكونفشيون وبوذا وبرهمن وهوستاب وبقرات وإسكندر وهنيال

القرطاجيّ ونابليون الإفرنسي وإفريدون الفارسي وواشنطن ومورو
الإميريكيان وغريبالدي التلياني وبسمرك الألماني وشكسبير ونيتون
الإنكليزيان وجان دارك الإفرنسية إلى كثيرين غيرهم من رجال العلم
والدين والدنيا ممن أسدوا إلى أمهم وشعوبهم صنعاً جميلاً وشقّوا لهم
طريقاً واحداً من طرق الحياة كثيرة الشعب والمسالك.

الحسين عليه السلام عنوان الفخر:

إذا كان المذكور ببعض نواحي الفضل ممن ذكرنا مستحقاً للتكريم
من أمته المنسوب إليها والمنسوبة إليه أن يطبع العرب عامّة والمسلمون
خاصّة على غرارهم في إجلال رجالهم الذين أحرزوا كلّ نواحي الفضل
وكانوا المثل الأعلى في كلّ خصلة من خصالهم، فحسبهم بسبط نبيهم
محمد صلى الله عليه وآله أبي عبد الله الحسين عليه السلام فخراً يتضاءل دونه كلّ فخر
وشرفاً ينحطّ عنه كلّ شرف، فإنّه بموقفه الخطير ومقامه الشهير ونهضته
الباهرة أوقف الباحثين والفلاسفة عند تحليلها موقف الدهشة والغرابة.

أليس الحسين عليه السلام هو الحامي الباسل العادم المبالاة بملاقاة
حتفه لفكّ شعبه من أسر العبودية وإطلاقه من رباق الاسترقاق والأخذ
بناصره من سلطة كلّ ظالم مستبدّ وحاكم عاتٍ ظلوم؟ لم تحجم نفسه
عن إزهاقها في سبيل إحقاق الحقّ وإبطال الباطل وإصلاح حال الرعيّة
وإجلاء الرعاة إلى انتهاج الطريقة الديمقراطية المثلى التي بها ينتعش
الضعيف ويسمن الهازل ويأفل الجهل وينجم العلم ويسود الفضل
وينقطع دابر الفساد وتصبح الأرض مخضرةً بخمائل الصلاح ويُنحيم
العدل والعدل أساس الملك، ويُقوّض الجور والجور هادم الدين

والدنيا، فهو صديق المواساة عدو الأثرة ميزان القسط عيبة العدل سراج الفضل عيلم البذل، هو القائل للسائل وقد أعطاه بدرة من المال تناهز مأتي دينار فصاعد:

خذاها فإني إليك معذر واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصاً أمسست سماناً عليك مندفته^(١)
وهو القائل:

إذا جادت الدنيا عليك فجدها على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يحويها إذا هي ولّت^(٢)
أليس الحسين هو اللسان لمن بعده من أباة الضيم كيف يختارون
معانقة المنية على الركوس بالدينية ويستهوون السلة دون الذلة كآل باهلة
والمهلب والزير وغيرهم؟ بدليل قول مصعب الزيري:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا^(٣)
أمثل هذا مفتاح فلاح وباب إصلاح وشارع خيرات ومبرات
ومفيد عمومي ومفضل إطلاقي غير مقصورة سوابغ نعمه وبيض أياديه
وإصلاحاته الحرة ومواهبه السنية على أهل ملته وأبناء جلدته، بل جائلة
في العوالم كلها وعلى قطب الكون بأسره جولان الرحي سائرة سير
الأمثال في مشارق الأرض ومغارها يتسنى لأحد أن ينسى ذكره المجيد
على مرور الأزمان وتعاقب الأعوام؟ أليست مآثره الزاهرة ومناقبه

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ١٩١.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٢٠٠ / ح ٤٢.

الثابتة هي النعات له الهاتفة بروح كلِّ حسّاس ومشاعر كلِّ شاعر وخَلَدِ
كلِّ متيقِّظ هتافاً تقشعرُّ منه النفوس وتضطرب منه الأفئدة والقلوب؟

من شعر عبد الله العلائي:

وبهذه المناسبة يقول الكاتب الشهير عبد الله العلائي في مقدّمة
مؤلّفه (أشعة من حياة الحسين):

أنت نجم الهدى لمعت في الديجور فقبساً من ضياك
وتركت في الأفلاك مشكاة نور فشعلة من سناك
ونثرت في الآفاق نُوَّار الزهور فملاباً^(١) من شذاك
وخلّفت في السماء روحاً وعلى الأرض الحبور فلمحة من بهاك
عرضت في الحياة كما يعترض نجم في الآفاق فيا بهجة مرآك
ومررت كسهم النور في ائتلاق ومحاق فيا لهف سفاك
وتناهيت كنغمة السحر العباقي^(٢) فما أشجى صدّاك
فأنت في الأرض والعلاء بُرْعُمة الطهر اللهاق تباركت ذكراك^(٣)

كلمة محمد زغلول:

في سنة (١٩٢٧م) نشرت الصحف المصرية كلمة لمعالي محمد

(١) الملاب: نوع من العطر. (العين للفرايدي ٨: ٣٣١/ مادة ملب).

(٢) العَبَق بالتحريك: مصدر قولك: عَبَقَ به الطيب، من باب تَعَبَ، عَبَقاً: لَزَقَ به وظهرت
ريحه بثوبه أو ببدنه، فهو عبَق. قالوا: ولا يكون العبَق إلا للرائحة الطيّبة الذكية. (مجمع
البحرين ٥: ٢١٠/ مادة عبَق).

(٣) أشعة من حياة الحسين: ٧/ طبعة جديدة ١٩٨٦م/ دار مكتبة التريبة/ بيروت.

زغلول باشا عندما حضر المآتم الحسيني في التكية الإيرانية بالقاهرة،
والكلمة يقول فيها:

(منذ خمسين سنة لا أحضر في مثل هذه المآتم إلا مجاملةً
للطوائف، إذ إنني كنت معتقداً أن مثل هذه المآتم غير مشروعة، كما
كنت ألوم في نفسي خروج الإمام الحسين عليه السلام بعياله إلى طف كربلاء،
وبعد أن حضرت هذا المآتم أصبحت أعتقد بأن الحسين عليه السلام إنما قام
بواجبه الديني والسياسي معاً، وأن وجود مثل هذه المآتم تنفخ في الناس
روح الإباء وتورثها قوة الإرادة في الحق).

ماذا قال جوزيف الفرنسي؟

علم الباحثون من مدققي الفلاسفة أن في مآتمنا المختصة بأهل
البيت عليهم السلام أسراراً شريفة تعود على الأمة بصلاح آخرتها ودنياها، ألفت
النظر إلى تأليف حكيم الغربيين وفيلسوف المستشرقين الدكتور جوزف
الفرنساوي (الإسلام والمسلمون)، فقد ألمَّ بما ألمَّنا إليه إمامة تامة
وأحاط به إحاطة وافية. وأنا أيضاً أسلي خواطركم بذكر بعض تلك
المصالح وأוכל البقية إلى فطنتكم.

معطيات المآتم الحسينية:

فمنها: أنها جامعة إسلامية، ورابطة إمامية باسم النبي وآله عليهم السلام،
ينبعث عنها الاعتصام بحبل الله عليه السلام، والتمسك بثقل رسول الله صلى الله عليه وآله،
وفيها من اجتماع القلوب على أداء أجر الرسالة بمودة القربى، وترادف
العزائم على إحياء أمر أهل البيت ما ليس في غيرها، وحسبك في
رجحانها ما يتسنى بها للحكيم من إلقاء المواعظ والنصائح، وإيقاف

المجتمعين على الشؤون الإسلامية والأُمور الإمامية ولو إجمالاً. وبذلك يكون أمل العراقي نفس أمل إخوانه في سوريا وفارس والبحرين والهند وغيرها من بلاد الإسلام. ولا تنس ما يتهياً للمجتمعين فيها من الاطلاع على شؤونهم، والبحث عن شؤون إخوانهم النائين عنهم، وما يتيسر لهم حينئذ من تبادل الآراء فيما يعود عليهم بالنفع، ويجعلهم كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو أنت له سائر الأعضاء، وبذلك يكونون مستقيمين في السير على خطة واحدة يسعون فيها وراء كل ما يرومون إليه.

ومنها: أن هذه المآتم دعوة إلى الدين بأحسن صورة وألطف أسلوب، بل هي أعلى صرخة للإسلام توقظ الغافل من سباته وتنبه الجاهل من سكراته بما تُشربه في قلوب المجتمعين وتنفضه في آذان المستمعين وتبثه في العالم وتُصوره قلباً لجميع بني آدم من أعلام الرسالة وآيات الإسلام وأدلة الدين وحجج المسلمين والسيرة النبوية والخصائص العلوية ومصائب أهل البيت في سبيل الله وصبرهم على الأذى في إعلاء كلمة الله، فأولوا النظر والتحقيق يعلمون أن خطباء هذه المآتم كلهم دعاة إلى الدين من حيث لم يقصدوا ذلك، بل لا مبشّر بالإسلام على التحقيق سواهم، وأنت تعلم أن الموظفين لهذا العمل الشريف لا يقصرون في أنحاء البسيطة عن الألوف المؤلفة، فلو بذل المسلمون شطر أموالهم ليوظفوا دعاة إلى دينهم بعدد أولئك الخطباء ما تيسر ذلك لهم، ولو تيسر فلا يتيسر من يستمع الدعوة على ممرّ الدهور استماع الناس لما يُتلى في هذه المآتم بكلّ رغبة وإقبال.

ومنها: ما قد أثبتته العيان وشهد به الحسُّ والوجدان من بثّ روح

المعارف بسبب هذه المآثم ونشر أطراف من العلوم ببركتها، إذ هي بشرط كونها على أصولها أرقى مدرسة للعوام يستضيئون فيها بأنوار الحُكم من جوامع الكلّم، ويلتقطون منها دُرر السّير، ويقفون بها على أنواع العِبَر، ويتلقون فيها من الحديث والتفسير والفقه ما يلزمهم حملة ولا يسعهم جهله. بل هي المدرسة الوحيدة للعوام في جميع بلاد الإسلام، وقد تفنن خطباؤها فيما يصدعون به أولاً على أعوادها، ثم يتخلّصون منه إلى ذكر المصيبة وتلاوة الفاجعة. فمنهم من يُشَنّف المسامع ويُشَرِّف الجوامع بالحُكم النبويّة والمواعظ العلوية، أو يتلو أولاً من كلام أئمّة أهل البيت ما يُقَرِّب المستمعين إلى الله ويأخذ بأعناقهم إلى رضاه. ومنهم من يُنبّه الأفكار أولاً إلى فضل رسول الله ﷺ ومقام أوصيائه عليهم السلام بما يسرده من الأحاديث الصحيحة والآيات المحكمة الصريحة. ومنهم من يتلو أولاً من الأحكام الشرعية والعقائد الدينيّة ما تعمُّ به بلوى المكلفين، ولا مندوحة عن معرفته لأحد من العالمين. هذه سيرتهم المستمرة أيام حياتهم، فهل ترى بجذك للعوام مدرسة تقوم مقامها في جسيم فوائدها وعظيم مقاصدها؟ لا وسرّ الحكماء الذين بعثوا شيعتهم عليها، وحكمة الأوصياء الذين أرشدوا أولياءهم إليها.

ومنها: العزاء عن كلّ مصيبة والسلوة لكلّ فادحة، إذ تهون الفجائع بذكر فجائعهم وتُنسى القوارع بتلاوة قوارعهم، كما قيل في رثائهم عليهم السلام:

أنست رزيّتكم رزاينا التي سلفت وهونّت الرزايا الآتية^(١)

ومنها: إنعاش أهل الفاقة وإثلاج أكباد حرار من أهل المسكنة على الدوام بما يُنفق في هذه المآتم من الأموال في سبيل الله ﷻ وما يُبدل فيها لأهل المسغبة وغيرهم، وأنت تعلم أنه لا وسيلة لقراء تلك المآتم في التعيش غالباً إلا هذه الوظيفة، وهم من الرجال والنساء بقطع النظر عمّن يقومون بنفقتهم ألوف مؤلفة يعيشون ببركة أهل البيت ويتنعمون بيمن مآتمهم ﷺ.

ومنها: أن المصلحة التي استشهد الإمام الحسين عليه السلام بأبي وأمي في سبيلها وسُفِكَ دمه الزكيّ تلقائها تستوجب استمرار هذه المآتم وتقتضي دوامها إلى يوم القيامة. بيان ذلك: أن المنافقين حيث دفعوا أهل البيت عن مقامهم وأزالوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها ظهروا للناس بمظهر النيابة عن رسول الله ﷺ، وأظهروا التأيد لدينه والخدمة لشريعته، فوقع الالتباس واغتر بهم أكثر الناس، ولما ملكوا من الأمة أزممتها واستسلمت لهم برمتها حرّموا - والناس في سنة عن سوء مقاصدهم - من حلال الله ما شأوا وحلّلوا من حرامه ما أرادوا وعاثوا في الدين وحكّموا فيه القاسطين، فسلموا أعين أولياء الله وقطّعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبواهم على جذوع النخل ونفّوهم عن عقر ديارهم حتّى تفرّقوا أيدي سبا ولعنوا أمير المؤمنين عليه السلام وكنّوا به عن أخيه الصادق الأمين.

فلو دامت تلك الأحوال وهم أولياء السلطة المطلقة والرئاسة الروحانية لما أبقوا للإسلام عيناً ولا أثراً، لكن ثار الحسين روي فداه فادياً دين الله ﷻ بنفسه وأحبّائه حتّى وردوا حياض المنايا، ولسان حاله يقول:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذي
وللشريف الفاضل السيّد جعفر الحلي رحمه الله قصيدة يرثي بها جدّه
الحسين عليه السلام ، يقول فيها:

فلم يرَ السبط للدين الحنيف شفا	إلا إذا دمه في كربلا سفكا
وما سمعنا عليلاً لا علاج له	إلا بنفس مداويه إذا هلكا
بقتله فاح للإسلام طيب هدى	فكلّما ذكرته المسلمون ذكا
وصان ستر الهدى عن كلّ خائنة	ستر الفواطم يوم الطفّ إذ هُتكا

* * *

(٢)

إقامة المجالس الحسينية

من تعظيم الشعائر

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج: ٣٢ و ٣٣).

إنَّ من أمعن النظر وسبر غور الوقائع التاريخية في بدء الدعوة المقدَّسة الإسلامية وفلسفة نشوئها وارتقائها وانتشارها واعتلائها وجد أقوى الأسباب العادية بعد العناية الربَّانية هو سيف أمير المؤمنين عليه السلام ومواقفه المشهورة ومساعيه المشكورة بحيث لولا كفاحه وصفاحه لما اخضرَّ للإسلام عود ولما قام له عمود.

وكذلك من أعطى التدبّر حقّه وأمعن النظر في أسباب انتشار مذهب التشيع واتّسع نطاقه وارتفاع رواقه لم يجد له سبباً حقيقياً وسراً جوهرياً سوى شهادة أبي عبد الله الحسين عليه السلام بذلك الشكل الغريب والوقع الهائل، ولولا شهادته عليه السلام لكانت الشريعة أموية ولعادت الملة الحنيفة يزيدية. فحقّاً أقول: إنّ الإسلام علويّ والتشيع حسينيّ، أقول وحقّاً ما أقول: إنّ من ليس له جبلٌ ولأى خاصٍّ إلى علي عليه السلام فليس من الإسلام على شيء، ومن ليس له جبلٌ ولأى خاصٍّ بالحسين عليه السلام فليس من التشيع على شيء، ولعلّ من هنا تجد أنّ لكلّ شيعي علاقة خاصّة مع الحسين عليه السلام ليست له مع غيره من سائر الأئمة عليهم السلام، مع أنّه يعتقد

٢٦ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

بإمامتهم وفرض طاعتهم. نعم، وقد كان لنفس النبي ﷺ ولذات الأئمة عليهم السلام علاقة خاصة بذكره يعرفها من أنس بأخبارهم ووقف على بعض أسرارهم.

مزايا الإمام الحسين عليه السلام:

وهذه ميزة قد امتاز عليه السلام بها، ومزية قد تفرّد هو فيها، وكانوا جميعاً يشيرون إلى أنّ الحسين عليه السلام هو مستودع ذلك السرّ الإلهي الذي يستبين به الدين ويُميّز الله به الخبيث من الطيّب والحقّ من الباطل، وما تبينّ الرشّد من الغيّ والهدى من الضلال إلاّ بالحسين عليه السلام، وإلّا فقد ارتبك الأمر بعد النبي ﷺ على عامّة المسلمين، واختلط الحابل بالنابل والحقّ بالباطل، سيّما بعد صلح أخيه الحسن عليه السلام الذي كان أيضاً بأمر من الله سبحانه. ولكن نهض الحسين عليه السلام تلك النهضة الباهرة فقتل سحّب الأوهام وانتزع النور من الظلام وأصحر بالهدى لطالبيه وبالحقّ الضائع لناشده، وهذه إحدى المزايا التي امتاز بها وتفرّد، وكان من قبله من الأئمة ومن بعده يشيرون إليها ويدلّون الناس عليها. وكانت نسبته إليهم في ذلك على حدّ قول القائل:

ولست ترى في محكم الذكر سورة تقوم مقام الحمد والكلّ قرآن
ويتفرّع من هذه المزية مزايا تفوق حدّ العدّ، ويحصر منها لسان
الخصر.

كان من مزاياه التي انفرد بها وامتاز عن غيره فيها أنّه ربّما رآه وكلمه أعدى عدوّ له فانقلب أكبر محبّ له، وحسبك بحديث زهير بن القين وكان عثمانياً أبغض شيء إليه أن ينازل الحسين عليه السلام في منزل، فما

اجتمع به وكلمه بضع كلمات حتّى طلق الدنيا وزوجته وفداه بنفسه^(١). ولا تحسب أنّ هذه من منفردات الشيعة ورواياتهم، فإنّ في كتب علماء السنّة قد يوجد ما هو أعجب من ذلك.

هذا مجد الملك ابن شمس الخلافة أحد وزراء العلماء في مصر المتوفّي في حدود الستائة على ما ذكره ابن خلّكان في ترجمته^(٢)، ذكر في كتاب له ألفه في محاسن المحاضرة وآداب المسامرة، فقال: إنّ عصام ابن المصطلق وكان شامياً أمويّاً، قال: دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي سلام الله عليه ومعه غلمانة وحاشيته، فأعجبني سمته ورؤاؤه وحسنه وبهاؤه، وأثار الحسد وما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض، فجئت إليه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: «نعم»، فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليّ نظر عاطف رؤوف برقة ورحمة، ثمّ قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ^(٤) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ^(٥)﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢]»، ثمّ قال لي: «خفّض عليك، أستغفر الله لي ولك، إنّك لو استعنتنا لأعناك، ولو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك»، قال عصام: فندمت على ما قلت، وتوسّمت منّي الندم على ما فرط منّي فقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]»،

(١) راجع: أنساب الأشراف للبلاذري ٣: ١٦٧ / الرقم ٣٣.

(٢) وفيات الأعيان ١: ٣٦٢ و ٣٦٣ / الرقم ١٣٩.

ثم قال: «أمن أهل الشام أنت؟»، قلت: نعم، فقال: «شئشنة أعرفها من أخزم، حيانا الله وإياك، أتبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله»، قال عصام: فضاقت علي الأرض بما رحبت ووددت لو أنّها ساخت بي، ثم انسللت من بين يديه لواداً وما على وجه الأرض أحب إليّ منه ومن أبيه^(١). انتهى ما علق بخاطري من ذلك الكتاب.

وكم لهذه الواقعة من نظائر لا يسعها المقام، ولكن من عرف للحسين عليه السلام بعض هاتيك المزايا والخصوصيات لا شك أنّه يستقل في عزائه الكثير ويستحقّر الأمر الخطير ويرى دون ما يستحقّه كلّ تلك الشعائر والمظاهرات والمواكب والنزعات، نعم وإذا كان الشامي الأموي بنظرة واحدة وكلمات معدودة يعود وما على وجه الأرض أحبّ إليه من الحسين عليه السلام وأبيه، فما عذر الشيعي في إبداء الوهم والتشكيك في المواكب الحسينية والشؤون العزائية؟ وأمّا والله لولا استمرار تلك الشعائر وقيام أعواد هذه المنابر واستدامة التوجّع والتفجّع لانطمست أعلام التشييع وانمحت آثارها من لوح عالم الوجود وقرطاس التذكّار، ولكانت الشريعة المحمّدية أموية والملة الحنفيه يزيدية.

ومن له أقلّ إلمام ووقوف على الجمعيات والمجتمعات التي تُعقد بمصر ودمشق وغيرهما من الأمصار في هذا العصر، وما أصبحت تنشره من المقالات والمؤلّفات في إحياء ذكر بني أميّة وتنزيههم وتبرير أعمالهم ممّا جنوه على الإسلام من الويلات، والتنويه بذكر يزيد لعنه الله،

(١) أنظر: تفسير القرطبي ٧: ٣٥٠ و ٣٥١ باختلاف يسير، وفيه: (دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علي عليهما السلام...).

وأنّه من الخلفاء الراشدين والأئمّة المرضيين، عرف من أين سرى هذا السمّ الخبيث، وجاءت تلك البليّة التي تريد أن تقضي على حياة الشيعة وتزهق روح الشريعة. نعم وهذا الطلاء المبهرج لا يروج إلّا على السّدج والبسطاء والمغفلين، أولئك الذين يقتلون الدين باسم الدين من حيث لا يشعرون.

شبهات حول المجالس الحسينية:

إنّ بعض الناشئة الحديثة مع ما هم فيه من المعرفة تركزت في عقولهم فكرة ذميمة بعيدة عن الصواب وتشربّت أدمغتهم بموهمة أشبه بلمع السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

يقولون: من الإسراف والتبذير المحذورين شرعاً إنفاق الشيعة القناطير المقتطرة من الذهب والفضّة في سبيل تعزية الحسين عليه السلام على أنحاء شتى، فمنهم من يُعطي البدر^(١) الذهبية أو الفضّية لقارئ العزاء أجرة لعمله وهو الغنيّ الثريّ الذي لا يستحقّ الصدقة وليس بأهل أن يُبرّ، ومنهم من يشري بماله العزيز شحماً ودهناً وغازاً لإضاءة محلّ العزاء ليلاً، ومنهم من يصرف المال الوافر ثمن تنن وقهوة وشاي وسكر وآلاتها من أكؤس وأقداح وآلات غليانها كالأكواب والأباريق والسماورات، ومنهم المنفق ماله ثمناً لأعلام ورايات ينشرونها للعزاء، ومنهم من يشتري الفراش والرياش استعداداً لمن يحضر العزاء، ومنهم من يُعمّر بيوتاً ضخمة عالية رحبة لإقامة المآتم الحسيني بها. ومعظمهم

(١) جمع بدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. (القاموس

إذا خاض القوم بتيار العزاء وبلغ سيلهم فيه الزبا وقفت سفينة طوفان نوحهم وبكائهم على جودي الانتهاء، يفرع لتنظيم أواني الموائد وصف صحائف المآدب المشتملة على الحارّ والبارد والحلو والحامض واليابس والمائع، فيدعو الناس للاستطعام من طعامه. وجلّهم بل كلّهم أغنياء لا حظاً للفقراء من طعامه، فلم يصادف برّهم موضعه ولا خيرهم موقعه في جميع تلك النفقات، فهل ذلك منهم إلاّ تبذير؟ والمبذّرون إخوان الشياطين بنص القرآن العزيز.

فهلّا أنفقوه في سبيل تعمير مدارسهم الطامسة، وتعليم ناشئتهم الحديثة الجاهلة، وتلقينهم فنون العلوم العصرية والمعارف الزمنية، ليتشلوا خضراء أمّتهم الأمّية وطائفتهم الهمجية من حضيض السفالة ومستنقع الجهالة أسوة بسواهم من الأمم الراقية بمعارفها إلى أوج العزّ والسعادة وذروة الغنى والثروة والجاه الضافي الواسع والعيش الصافي النмир.

أقول:

هوئنا قاتني خلفي وقدّامي الهوى وإيّاهما مختلفان
 القوم يبغون عرض الحياة الدنيا ومقيموا العزاء يطلبون الآخرة، ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٤)، بل لا خير فيها، هي غرارة ضرّارة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ^(١)، وكما وصفها في بعض خطبه بأنّها: «كفّيء الظلّ بيننا تراه سابعاً حتّى قلّص وزائداً حتّى نقص، ابتليّ الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما

أَخَذُوهُ مِنْهَا لَغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ»^(١)، وقال عليه السلام في خطبة له أخرى: «الدنيا دار ممرٍّ، والآخرة دار مقرٍّ، فخذوا من ممرِّكم لمقرِّكم»^(٢).

فالشريعة تُنفق ما تُنفق في سبيل التعزية، آخذة من الدنيا للآخرة، ومن طريقها إلى منزلها لتتفجع به في مثواها الأبدي ومقرِّها السرمدي، والحادي لها على هذه النفقة لهذا الوجه من الخير هو ما بلغها عمَّن أقوالهم حجةً وطاعتهم فريضة المعصومين من آل محمد عليه السلام، فعن أمير المؤمنين عليه السلام كما رواه الصدوق في خصاله: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَطْلَعَ إِلَى الْأَرْضِ فَاخْتَارَنَا، وَاخْتَارَ لَنَا شِيعَةَ، يَنْصُرُونَا وَيَفْرَحُونَ لِفَرْحِنَا وَيَحْزَنُونَ لِحَزْنِنَا، وَيَبْذِلُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِينَا، أُولَئِكَ مَنَّا وَإِلَيْنَا»^(٣).

وعن الصادق عليه السلام رواه الكليني في فروع الكافي أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ: «اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَانِي وَلِزُوَّارِ قَبْرِ أَبِي [عَبْدِ اللَّهِ] الْحُسَيْنِ عليه السلام الَّذِي أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْخَصُوا أَبْدَانَهُمْ رَغْبَةً فِي بَرْنَا وَرَجَاءً لَمَّا عِنْدَكَ فِي صَلَاتِنَا وَسُرُوراً أَدْخَلُوهُ عَلَى نَبِيِّكَ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاجَابَةً مِنْهُمْ لَأَمْرِنَا وَغِيظاً أَدْخَلُوهُ عَلَى عَدُوِّنَا أَرَادُوا بِذَلِكَ رِضَاكَ فَكَافَهُمْ عَنَّا بِالرِّضْوَانِ...» الحديث^(٤)، وهو وإن كان مورده نفقة الزوَّار للحسين عليه السلام ولكنه مغياً بغاية أعم من ذلك وهي قوله عليه السلام: «رَغْبَةً فِي بَرْنَا...»، إلى قوله: «أَدْخَلُوهُ عَلَى عَدُوِّنَا»، كلُّ ذلك يفيد استحباب بذل المال في كلِّ عملٍ تترتب عليه تلك الأمور، كالبذل في إقامة عزاء مولانا الإمام الحسين عليه السلام.

(١) نهج البلاغة: ٩٤ / الخطبة ٦٣، بتقديم وتأخير.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٦٧ / ح ٣.

(٣) الخصال: ٦٣٥ / حديث أربعائة.

(٤) الكافي ٤: ٥٨٢ / باب فضل زيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام / ح ١١.

وفي مقتل الثقة الجليل الشيخ الطريحي النجفي في مناجاة موسى عليه السلام في آخر الحديث أن الله تعالى قال له: «يا موسى، ما من عبد من عبيدي في ذلك الزمان بكى أو تباكى وتعزى على ولد المصطفى إلا وكانت له الجنة ثابتاً فيها، وما من عبد أنفق ماله في محبة ابن بنت نبيه طعاماً وغير ذلك درهماً وديناراً إلا وباركت له في دار الدنيا الدرهم بسبعين وكان معافاً في الجنة...» الخ^(١).

وغير ذلك من أخبار الباب المقرونة بالسيرة العملية من الأصحاب، مضافة إلى الآيات والروايات العامة لخصوص المقام، كاستحباب الإنفاق في سبيل الله، وهو سبيل الخير، وأي خير أعظم من عمل يُحبّه الله ورسوله وآله؟ وهو إقامة عزاء سيّد الشهداء على الوجه الأكمل الذي يغيظ الكفار الجاحدين ويرضي المؤمنين ويسرّ سيّد النبيين وآله الطاهرين، فهو أعظم شعيرة من شعائر الله، ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)، أمثل الإنفاق في هذا السبيل يُعدّ من الإسراف والتبذير، ويقال عنه: إنّه لم يصادف محلّه؟ هذا قول يمقته الله ويمقت عليه أهله، ومصادرة لله وأولياء الله من غير حجة ولا سلطان مبین.

فكلّ درهم ينفقه الشيعي ترويحاً لمصاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام وإحياء لأمره المطلوب إحياءه بقولهم عليه السلام: «أحيوا أمرنا رحم الله امرءاً أحيأ أمرنا»^(٢)، أي أظهره وأعلنوه بين الناس إكباتاً للعدوّ وغيظاً للكافر وتعظيماً للشعائر، فذلك الدرهم يعتاض عنه بسبعين إمّا عيناً في

(١) مجمع البحرين ٣: ٤٠٦.

(٢) قرب الإسناد: ٣٦ / باب أحاديث متفرقة / ح ١١٧، بتفاوت يسير.

الدنيا أو ثواب سبعين في الآخرة، سواء كان إنفاقه في سبيل الإطعام وغيره من لوازم العزاء الذي فيه إكبات الأعداء المحبوب لهم ﷺ قطعاً كما تقدّم عن الإمام الصادق عليه السلام، فكلُّ أمر لازم لتعظيم قدر المصاب لا ينبغي رفع اليد عنه إلّا بدليل قاطع من إجماع على حرمة أو نصٍّ خاصٍّ، وإلّا فالحكم في المقام العمل على الإطلاق بأيّ مظهرٍ من مظاهر إحياء أمرهم وإحياء ذكرهم الواردين في نصوص المسألة.

وأما ما ذكروه من الحثّ والتحريض على استبدال النفقة على التعزية بالنفقة على إحياء العلوم الزمنية والفنون العصرية لترقى الأمة الشيعية رقيٍّ غيرها من الأمم، فيا ليتهم وهم أهل الثرى والثراء أنفقوا قليلاً من كثير في هذا السبيل لتقتدي الناس بهم، فما بالهم يأمرّون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم؟ فهلاًّ حاسبوا أنفسهم ولو أن شحّتها أفادوا أمّتهم وأحيوا ميّت شعبهم؟ وهلاًّ أطلقوا أيديهم ببذل شيء من ثروتهم قبل أن يُطلقوا ألسنتهم بالإزدراء على صلحاء أمّتهم المنفقين أموالهم مرضاةً لله ورسوله وعترته رغبةً بالسعادة المؤبّدة والرقيّ الدائم في دار الآخرة؟

وصفوة القول فالأمة الإسلامية جمعاء من ساعة قيامها إلى يوم الدين رهينة شكر للحسين عليه السلام إذ أنقذها من مخالب العبودية وأنياب الاستعمار، وإلّا لكانت إلى اليوم وبعد اليوم عبيد وخول ليزيد وآل يزيد ومروان وآل مروان يعرف ذلك من له أقلّ وقوف وإحاطة على التاريخ الإسلامي.

أهل تستحضر ذاكرتكم قضية الحرّة وما صنع بأهلها من رجال الصحابة وأعيان المسلمين إذ أخذوا البيعة منهم على أنّهم عبيد أرقّاء ليزيد يحكم في دمائهم وأعراضهم كيف شاء؟

فنهض الحسين روعي فداه حمية هذه الأمة وأنفة لها من أن تُضام وتُستعبد، سعى عليه السلام لإرجاع سلطانها وإعلاء شأنها وإنقاذها من الجور والهوان.

آثر الخروج من دار سلطانه وعاصمة ملكه صوناً لحرم الله أن يُهتك ولجيرانه أن تُروّع، وحفظاً للنفوس وحقناً للدماء، على علم منه بأنه لو صانع الملوك لثبت ملكه وما دام سلطانه، ولكنه أبا إلا نصحاء لأئمة واحتفاظاً بمبدئه، شيمة كبار النفوس وأعظم الرجال.

بذل أولئك الأسياد من أشباله وإخوته في سبيل غايته، وجاد بنفوسهم على أمة جدّه، فقذف بهم في لهوات تلك الحرب، وغمسهم في لحي غمراتها، فجلوا عن وجه الدين سواده، وأعادوا له رونق بهجته وماء شبابه.

وقف عليه السلام هو وأصحابه يوم الطفّ موقفاً تجسّمت فيه روح الشجاعة والبرسالة، وأصبح المثل الأعلى للعزّ والإقدام والاستهانة بهذه الحياة في سبيل العزّ والإباء، ودون موارد الذلّ وقفوا موقفاً ما حدّثنا التاريخ بمثله ولا سمع الدهر بنظيره.

وقف سبعون رجلاً في مقابل سبعين ألفاً ومدّهم إلى الكوفة، بل إلى الشام متواصل، وهؤلاء لا مدد لهم. هؤلاء على الشاطئ النهر يكرعون منه ويتهللون كلّ حين، وأولئك قد حُبسوا عن الماء يومين أو ثلاث والعطش وحرّ الهجير ورمال الصحراء أحرقت أجسادهم وفَتّت أكبادهم، وأطفالهم يتصارخون من العطش نصب أعينهم. ومع ذلك كلّ ما هانوا ولا استكانوا ولا فشلوا ولا ذلّوا، بل كانوا يزدادون بشراً وطلاقة وعزماً وصلابة وعزاً وشهامةً.

ولقد أجاد المرحوم الأجل السيّد حيدر الحليّ رحمته الله إذ يقول:

لقد وقفوا في ذلك اليوم موقفاً إلى الحشر لا يزداد إلا معالياً

والشيخ صالح الكواز رحمه الله بقوله:

هُم أَفْضَلُ الشَّهَدَاءِ وَالْقَتْلَى الْأَوَّلَى
خُذْ فِي ثَنَائِهِمُ الْجَمِيلِ مَقَرَّضاً
السَّالِينَ النَّفْسَ أَوَّلَ ضَرْبَةٍ
لَوْ كُلُّ طَعْنَةٍ فَارَسٍ بِأَكْفِهِمْ
لَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ قَبْضِهِمُ اللَّوْى
سَلَكُوا بِحَاراً مِنْ دَمَاءٍ أُمِّيَّةٍ
مَا سَاهَمُوا الْمَوْتَ الزَّوَامَ وَلَا اشْتَكُوا
حَتَّى إِذَا التَقَمْتَهُمُوا حَوْتَ الْقَنَا
نَبَذْتَهُمُ الْهَيْجَاءَ فَوْقَ تَلَاعِهَا
فَتَخَالَ كَلَّا تَمَّ يُونُسَ فَوْقَهُ
قِيلَ لِرَجُلٍ شَهِدَ يَوْمَ الطُّفِّ مَعَ عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ: وَيَحْكُ أَقْتَلْتُمْ ذُرِّيَّةَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: عَضَضْتُ بِالْجَنْدَلِ، إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ مَا شَهِدْنَا
لَفَعَلْتَ مَا فَعَلْنَا، ثَارَتْ عَلَيْنَا عَصَابَةٌ أَيْدِيهَا فِي مِقَابِضِ سَيُوفِهَا كَالْأَسْوَدِ
الضَّارِيَةِ تُحْطَمُ الْفَرَسَانِ يَمِيناً وَشِمَالاً، تُلْقَى أَنْفُسُهَا عَلَى الْمَوْتِ، لَا تَقْبَلُ
الْأَمَانَ، وَلَا تَرْغَبُ فِي الْمَالِ، وَلَا يَحُولُ حَائِلٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُرُودِ عَلَى
حِيَاضِ الْمَنِيِّ، أَوْ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ، فَلَوْ كَفَفْنَا عَنْهَا رَوِيداً لَأَتَتْ عَلَى
نَفُوسِ الْعَسْكَرِ بِحَذَائِرِهَا، فَمَا كُنَّا فَاعِلِينَ لَا أُمَّ لَكَ ^(١)؟

* * *

(٣)

أسرار وحقائق في خروج الحسين عليه السلام

قُلَّ من الناس من لا ينتقد خروج الحسين عليه السلام إلى العراق، وقُلَّ من لا يعترض في ذلك، وقُلَّ من يعلم سرَّ هذا الأمر، وقُلَّ من يؤمن بتصويب الحسين عليه السلام فيه إلَّا إجمالاً.

فالمخلصون من الشيعة يقولون: إنَّ الحسين عليه السلام إمام معصوم لا يصدر عنه إلَّا ما هو الصواب والحق والعدل، وغير المخلصين منهم تعترض في نفوسهم الشكوك وتردَّد في صدورهم الشُّبه، ولا يجدون منها لقلَّة علمهم وضعف إيمانهم مخرجاً، وعلى الأخصَّ حينما يلتفتون إلى أنَّ الحسين عليه السلام كان يعلم بما جرى عليه في العراق كما تدلُّ على ذلك كلماته، وحينما يتلون قوله تعالى شأنه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، فتأخذهم الحيرة ويستولي عليهم التردَّد.

أمَّا غير الشيعة فالمحسنون منهم يقولون: إنَّ الحسين عليه السلام حملة دينه وحمله إباؤه وعزَّة نفسه على عدم الخضوع ليزيد والبيعة له، ثمَّ إنَّه رأى أنصاراً ظنَّ فيهم الإخلاص ورجا بهم التغلُّب على يزيد فأخطأ ظنَّه وخذلته أنصاره، ولمَّا دار أمره بين الذلَّة والقتل اختار القتل على الذلَّة.

وغير المحسنين منهم يقولون: إنَّ الحسين عليه السلام رغب بالملك وطلب السلطان، واندفع يقاتل عليه حتَّى قُتلَ دونه، وأصيب من أجله.

والكلُّ كما ترى، وإليك نموذجاً من البيان في توضيح المقال:
اعلم أنَّ لكلَّ أمر - وإنَّ وضح - ظاهر وباطن وسرّ وإعلان،
والناس في النظر إلى ذلك على قسمين: قسم ينظر للأمر من جهة ظاهره
وما علن منه، وقسم ينظر إليه من جهة باطنه وما خفي واستتر من
حقائقه، وقد يتطابق الظاهر والباطن، وقد يختلفا.
وإنَّ خروج الحسين عليه السلام إلى العراق أمر تطابق فيه الباطن
والظاهر، وتوافق عليه السرُّ والعلن، وتوفرت الأسباب الدالّة على
رجحانه، وأنّه كان أمراً لا بدّ منه، ولا محيد عن النهوض إليه. وإليك
البيان:

نظرة في الأمر من جهة الظاهر:

من الجليّ البين الذي هو بمطلع الأكمة عند الناس أنَّ الحسين
عليه السلام لمّا جاء إلى مكة كتب له أهل الكوفة كتباً كثيرة بلغت على بعض
الروايات اثني عشر ألفاً يدعونه فيها إليهم، وأنّهم معه مائة ألف، وأنّه
أرسل مسلم بن عقيل ينظر له حقيقة الأمر، فإنَّ وجدهم كما نطقت به
كتبهم أخبره بذلك، وأنَّ مسلم بن عقيل قدم الكوفة فبايعه منها
للحسين عليه السلام ثمانية عشر ألفاً في قولٍ وأربعون ألفاً في قولٍ آخر، وأنّه
كتب للحسين عليه السلام بذلك واستقدمه عليه.

وقد علّم أيضاً أنَّ الحسين عليه السلام كتب لأهل البصرة أيضاً
يدعوهم لنصرته، وكان من جملة من كتب إليهم يزيد بن مسعود
النهشلي، فجمع بني تميم وبني حنظلة وبني سعد، فلمّا حضروا قال: يا
بني تميم، كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟

فقالوا: بخ بخ أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً فتقدمت فيه فرطاً.

قال: فإني قد جمعتكم لأمرٍ أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه.

فقالوا: إنا والله نمنحك النصيحة ونحمد لك الرأي، فقل حتى نسمع.

فقال: إن معاوية قد هلك فأهون به والله هالكاً ومفقوداً، ألا وإنه قد انكسر باب الجور، وتضعضت أركان الظلم، وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظناً قد أحكمه، وهيهات والذي أراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام من بعده يزيد شارب الخمر، ورأس الفجور، يدعي الخلافة على المسلمين، ويتأمر عليهم بغير رضی منهم مع قصر حلم وقلة علم، لا يعرف من الحق موطن قدمه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر، لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعيّة وإمام قوم، وجبت لله به الحجة وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحق، ولا تسكعوا في وهدي الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ونصرته، والله لا يُقصر أحد عن نصرته إلا أورثه الله الذل في ولده والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها وأدّرت لها بدرعها، من لم يُقتل يمت ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

فتكلمت بنو حنظلة فقالوا: يا أبا خالد، نحن نبئ كنانتك وفرسان
عشيرتك، إن رميت بنا أصبت وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلا
خضناها، ولا تلقى شدة إلا لقيناها، ننصرك بأسيا فنا ونقيك بأبداننا إذا شئت.
وتكلمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد، نحن بنو أبيك
وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت ولا نقطن إن ظننت، والأمر إليك
فادعنا نجبك ومرنا نطعك، والأمر لك إذا شئت.

وتكلمت بنو سعد بن يزيد فقالوا: يا أبا خالد، إن أبغض الأشياء
إلينا خلافاك والخروج من رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك
القتال فحمدنا أمرنا وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك.
فقال: والله يا بني سعد لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم،
ولا زال سيفكم فيكم.

كتاب يزيد بن مسعود النهشلي إلى الحسين عليه السلام:

ثم كتب إلى الحسين عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد
وصل إلي كتابك وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظي
والفوز بنصيب من نصرتك، وإن الله تعالى لم يخل الأرض قط من عامل
عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه ووديعته
في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم
سعدت بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم وتركتم أشدّ تابعاً
في طاعتك من الإبل الظماء يوم خامسها، وقد ذللت لك بني سعد
وغسلت درن صدورهم بماء سحابة من حين استهلّ برقها فلمع^(١).

قال ابن طاووس رحمته الله في (اللهوف)^(١): (إنه لما قرأ الحسين عليه السلام الكتاب قال: «ما لك آمنك الله يوم الخوف وأعزك وأرواك يوم العطش»، فلما تجهّز المشار إليه للخروج إلى الحسين بلغه قتله قبل أن يسير، فجزع من انقطاعه عنه).

هذا مضافاً لما أشعر به الحسين عليه السلام من دسيمة يزيد وإرسال ثلاثين شيطاناً من شياطين بني أمية مع الحاج يأمرهم بقتل الحسين ولو في جوف الحرم غيلةً أو صراحاً.

فالحسين عليه السلام يرى خطر المبايعة ليزيد، ويرى وجوب جهاده، وأهل العراق من الكوفة والبصرة يدعونه لينصروه، ويستغيثون به ليجاهدوا عدوهم وعدوّه، ويزيد يدسّ إليه الرجال لقتله ولو في الكعبة، فما الوجه في عدم خروج الحسين عليه السلام إلى العراق؟ وما عذره في عدم النهوض لجهاد يزيد وإراحة المسلمين منه والحال هذه؟ فلم يكن للحسين روعي فداءه بدّ من أن حلّ من إحرامه وجعلها عمرة مفردة، فخرج الناس يوم التروية وهو يوم الثامن من ذي الحجة إلى عرفة وخرج هو عليه السلام إلى العراق.

جواب السيّد المرتضى على شبهة خروج الحسين عليه السلام:

والى هذا المعنى نظر السيّد المرتضى في كتابه (تنزيه الأنبياء)^(٢) في الجواب على سؤال: ما العذر في خروج سيّد الشهداء روعي له الفداء من مكة بأهله وعياله إلى الكوفة المستولي عليها أعداؤه؟ حيث قال: (إنّ

(١) اللهوف: ٢٨ و ٢٩.

(٢) تنزيه الأنبياء: ٢٢٧ - ٢٢٩.

الإمام متى غلب على ظنه أنه يصل إلى حقه بضرب من الفعل وجب عليه وإن كان فيه ضرب من المشقة يُتحمَّل مثلها، وسيّدنا أبو عبد الله عليه السلام لم يسر طالباً للكوفة إلا بعد موثق من القوم وعهود...، إلى أن قال: (إنَّ أسباب الظفر بالأعداء كانت لائحة متوجّهة، وإنَّ الاتّفاق السيئ عكس الأمر)، انتهى.

هذا إذا نظرنا إلى الحسين عليه السلام كرجل من الناس لا علم له ببواطن أهل الكوفة، ولا معرفة له بما يجري عليه ولا بما يجري على أصحابه وأهل بيته من قتل وسبي.

نظرة في الأمر من جهة باطنه:

أمّا إذا نظرنا إلى الحسين عليه السلام كإمام معصوم اطلع على كلّ ما يجري عليه عن أبيه عن جدّه عن الله تعالى، فعرف سرّ هذا الأمر ووقف على كنهه، فتوجّه حيث توجّه بأمر الله، ومضى حيث مضى في طاعته، موطناً نفسه على القتل في سبيله، مرخصاً نفسه ونفوس من معه إجابةً وامثالاً له، غير مبالي بما يجري عليه في طلب رضاه، فلا مجال حينئذٍ للاعتراض، ولا موضع للشبهة، وليس على الحسين عليه السلام مع هذا نقد، ولا لأحدٍ من الناس حول ما فعله كلام.

ولكن فلنتظر هل للحسين عليه السلام تكليف خاصّ أو أنّ لهذه المسألة

حكم مخصوص؟

نعم للسائل حقّ أن يسأل بأنّ الله سبحانه كيف أمر الحسين عليه السلام بهذا؟ وكيف يحمل على المضيّ في سبيلٍ يعلم به قتله وانتهاك حرمة، والمعروف من عدل الله خلاف ذلك والمعلوم من قضيتّه غير هذا؟ أليس

يقول سبحانه في كتابه: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، فما هو السرُّ في عدم الترخيص للحسين عليه السلام بالبيعة ليزيد والاستسلام له؟ وما هي الحكمة في أمره بالامتناع من مبايعته حتّى صنع به وبأصحابه وأهل بيته ما صنع؟ أَللّٰه الحسین عليه السلام تكليف خاصّ أو أنّ لهذه المسألة حكم مخصوص لم يكن لغيرها من سائر القضايا؟

وهنا نقول فاستمع: إنّ كثيراً من ذوي الأفهام الفجّة والأذهان التي لم تُدَلِّل لحمل العلم وأسرار الحكمة يثقل عليها قبول شيء من غوامضها ويعسر عليها الوصول إلى ما يُلقَى لها من حقائقها، وكثيراً ما تعشو البصائر عن رؤية ما لم تتعوّد النظر فيه، وكثيراً ما تنبو الأذهان عن فهم ما لم تأنس بممارسته، لذلك أقول مقدّمةً لبيان هذا المطلب:

إنّ على الباحث في هذا المقام أن يمعن النظر ويحسن التأمل فإنّ الذهن ينفر عند سماع ما لم يألف سماعه أولاً، ثمّ ما أسرع من أن ينقاد بعد التأمل والإمعان.

تحقيق علمي (بيان الأهمّ والمهمّ في خروج الحسين عليه السلام):

اعلم أنّ كثيراً من أحكام الله سبحانه لم تختلف باختلاف الشرائع ولم تبدّل بتبدّلها، سيّما الأحكام التي قرّرها العقل وأحكمها القياس، ولا ريب أنّ منها الحكم عند دوران الأمر بين مفسدتين بوجوب العمل بأقلّهما فساداً وأهونها ضرراً، ومثل ذلك في الشرع كثير، خذ مثلاً: قال الله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ...﴾ إلى آخره (المائدة: ٣).

فإن دار الأمر بين ارتكاب أحد هذين المحرّمين كما إذا انحصرت النجاة من هلكة الجوع بأكل لحم الميتة مثلاً أليس يباح أقلهما ضرراً؟ ألم يقل الله جلّ وعلا في هذا المقام: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٧٣)؟ كذلك في كلّ ما كان من هذا القبيل، وهذه مسألة سيّالة تجري في كثير من الشؤون.

ومن هذا الباب قيام الأنبياء وأوصياء الأنبياء بالدعوة إلى الله وإلى العدل والحقّ مع ما يشاهدون فيه من الخطر على أنفسهم وحصول الظنّ القوي بقتلهم، فإنّك لا تزال تراهم يرتكبون في ذلك أموراً يغلب على الظنّ فيها الهلكة، ويحسن معها الوصول إلى القتل، ثمّ منهم من ينجيه الله تعالى كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فإنّهم ارتكبوا في أمر الدعوة ما كانوا يظنون به القتل، بل إنّ إبراهيم عليه السلام رآه عياناً وألقي في النار فأنجاه الله منها، ولم يكونوا بذلك خرجوا عن القاعدة التي قرّرها، ولا تنكّبوا عن الأصل الذي أسّسناه، وذلك أنّ الإقدام على ما يوجب قتل النفس في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وإلى الحقّ في بعض الأحوال أقلّ ضرراً من ترك الدعوة وأهون خطراً، وعلى هذا جرى زكريّا ويحيى عليهما السلام حتّى قُتِلَا، وكذلك غيرهم ممّن جرى على منوالهم من الأنبياء وأوصياء الأنبياء وكثير من الصلحاء، فإذا ما ذُكِرَ من آيتي الحرج والنهي عن الإلقاء في التهلكة مخصوص بغير هذا.

ولم تكن قضية الحسين عليه السلام إلّا من هذا الباب، فإنّ يزيد بن معاوية لعنه الله لمّا تغلّب على سلطان المسلمين واستولى على رقابهم يصنع بهم كما يشاء ويحكم فيهم كما يريد، كان الواجب دفعه وقتاله على كلّ حالٍ وبكلّ صورة، لما يترتّب على بقائه من الفساد العامّ الشامل

٤٤ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

والضرر الكبير المهلك والأُمور القاضية بمحو ما جاء به رسول الله ﷺ، فلم يكن للحسين عليه السلام بدٌّ من القيام بهذا الواجب والنهوض للقتل في هذا السبيل، ومن غير الحسين أولى به في عصره، وإلى هذا المعنى أشار المرحوم السيّد جعفر الحليّ بقوله في مريّة للحسين عليه السلام:

ورأى بأنّ سبيل الغيِّ مُتَّبَعٌ والرشد لم تدر القوم أيّة سلكا
والناس عادت إليهم جاهليتهم كأنّ من شرع الإسلام قد أفكا
وقد تحكّم بالإسلام طاغية يمسي ويصبح بالفحشاء منهمكا
لئن جرت لفظة التوحيد في فمه فسيفه بسوى التوحيد ما فتكا
قد أصبح الدين منه يشتكي سقماً وما إلى أحد غير الحسين شكا
فما رأى السبط للدين الحنيف شفاً إلّا إذا دمه في كربلا سفكا

وقال الأزرعي رحمته الله:

ورأى قنا الدين من بعد استقامتها مغمورة وعليها صدع منكسر
فقام يجمع شملاً غير مجتمع منها ويجبر كسراً غير منجبر
وبعده يقول:

لم أنسه وهو خواض عجاجتها يشقّ بالسيف منها سورة السور
كم طعنة تتلظى من أنامله كالبرق يقدح من عود الحيا النضر
وضربة تتجلّى من بوارقه كالشمس طالعة من جانبي نهر

(٤)

هل خروج الحسين عليه السلام

مصدق لإلقاء النفس بالتهلكة؟

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

كثيراً ما نسمع من بعض الناشئة المتجددة بأن الحسين عليه السلام إذا كان عالماً بقتله في خروجه إلى العراق وسبي عياله فقد عرّض نفسه إلى الهلكة وبعرضه إلى الهلك، وهو منهي عنه بنص القرآن العزيز: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، فما الجواب؟

قد مرّ بعض التوجيهات لهذه المسألة، ولعلّها لا تفي بالغرض ولا ترفع الشبهة تماماً، وفي نفس القارئ أن تُشبع الموضوع ونستقصيه كما يرام.

نقول^(١): أولاً إنَّ هذا السؤال وأمثاله من البحث والنظر الذي

(١) أقول أيضاً: ولعلّ بعض من لا يعرف حقائق شرف السعادة بالشهادة يعتقد أن الله تعالى لا يتعبّد بمثل هذه الحالة، أما سمع في القرآن الصادق المقال أنّه تعبّد قوماً بقتل أنفسهم فقال تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)؟ ولعلّه يعتقد أنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) أنّه هو القتل وليس الأمر كذلك، وإنّما التعبّد به من أبلغ درجات السعادة، ولقد ذكر مولانا الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ما يليق بالعقل.

يتمخض عن الاعتراض والتحدّي لأعمال الأئمة، بل ولأعمال رسول الله ﷺ وخلفائه المعصومين سلام الله عليهم أجمعين لا موقع له على أصول مذهبنا معشر الإمامية الذين قادنا الدليل والبرهان إلى القول بعصمة أولئك النفر المخصوص، فليس مثلهم عندنا في مناهجهم الخاصة وأعمالهم التي تصدر عنهم طول حياتهم بين البشر إلا كمثل رجل عرف منه الملك تمام الكفاءة وأحرز منه صدق الطاعة فأرسله سفيراً إلى قوم يثُ بينهم الدعاية ويقوم فيهم بالإرشاد والهداية، وزوّده بمنهاج مخصوص وألزمه أن لا ينحرف عنه قيد شعرة، ولكل واحد من الأنبياء والأئمة سجل خاص به من بدأ قيامه بالسفارة والدعوة إلى منتهى أجله حسب المصالح ومناسبات الظروف الخاصة والحكم التي اقتضت لذلك الملك الحكيم أن يُسجلها على السفير من قتل أو سم أو أسر أو غير ذلك من قضايا التضحية والمفادات.

﴿وروي أسلم قال: غزونا نهاوند - أو قال غيرها - واصطفينا والعدوّ صفين لم أر أطول منهما ولا أعرض والروم قد ألصقوا ظهورهم بحائط مدينتهم، فحمل رجل منا على العدو، فقال الناس: لا إله إلا الله ألقى نفسه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: إنّا نؤوّلون هذه الآية على أن حمل هذا الرجل يلتمس الشهادة وليس كذلك، إنّا نزلت هذه الآية فينا، لأنّا كنّا قد اشتغلنا بنصرة رسول الله ﷺ وتركنا أهلينا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلح ما فسد منها، فقد ضاعت بتشاغلنا عنها، فأنزل الله إنكاراً لما وقع في نفوسنا من التخلف عن نصرة رسول الله ﷺ لإصلاح أموالنا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، معناه: إن تخلفتم عن رسول الله وأقمتم في بيوتكم ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة وسخط الله عليكم فهلكتم، وذلك ردّ علينا فيما قلنا وعزمنا عليه من الإقامة، وتحريض لنا على الغزو، وما أنزلت هذه الآية في رجل حمل على العدو ويُحرّض أصحابه أن يفعلوا كفعله أو يطلب الشهادة بالجهاد في سبيل الله رجاءً لشواب الآخرة. [أنظر: اللهوف: ٢٠ و ٢١]. (المؤلف رحمه الله).

وعبء السؤال وعناء البحث عن تلك الحكَم والأسرار مطروح عن الرعيّة، وهو تكلف زائد، بل ربّما يكون نفس السفير غير واقفٍ عليها تماماً، إنّما يجد في سجلّ أحواله: عليك أن تبذل نفسك للقتل في الوقت الفلاني، فيقول: سمعاً وطاعةً، وليس له حقّ السؤال والمراجعة عن الحكمة والمصلحة بعد أن كان من اليقين على مثل ضوء الشمس أنّ قضايا ذلك الحكيم وعزائمه كلّها منبعثة عن أقصى ما يمكن من الصلاح ومعالي الحكمة.

وكلّ هذه النظريات سلسلة عقائد يبتني بعضها على بعض، وكلّها مدعومة بالحجّة والبرهان ممّا تمخّضت عنه عقول الفلاسفة وآراء الحكماء من أبعد معاهد العلم والتاريخ، وكلّها فروع أصل واحد ينتهي إليه البحث والجدل وتقطع هذه الخصومة، وما هو إلّا إثبات العناية الأزلية والقوّة القاهرة الشاعرة، وإنّما هي المدبّرة لهذه العوالم والكوائن لا الطبيعة العمياء والمادّة الصمّاء الفاقدة للحسّ والشعور.

وبعد إثبات العناية ورسوخ الاعتقاد بها يهون ويسهل إثبات ما يتفرّع عليها من تلك النظريات، وإنّ من لازم تلك العناية بعث الهداة والمرشدين البالغين أقصى مراتب الكمال البشري لتكميل الناقصين من بني جنسهم، ولا يتسنّى التكميل والاهتداء إلّا بالتسليم والانقياد لهم، واليقين بعصمتهم عن الخطأ والخطيئة، وأنّهم مؤيّدون بتلك العناية.

وبعد الإلزام بكلّ هاتيك المبادئ عن براهينها الرصينة لا يبقى مجال للشكّ والارتياب والنقد والاعتراض في شيء من أعمالهم مهما كانت من الفضاة والاستنكار في مطارح العقول المحدودة والأفكار المحجوبة.

ولعلَّ إلى ذلك أشاروا عليهم السلام بقولهم - إن صحَّ الحديث - : «نحن أسرار الله المودعة في هياكل البشرية. يا سلمان، انزلونا عن الربوبية ثم قولوا فينا ما استطعتم، فإنَّ البحر لا يُنَزَف، وسرَّ الغيب لا يُعرَف، وكلمة الله لا تُوصَف، ومن قال هناك: لِمَ وَمِمَّ وبِمَ فقد كفر»^(١)، ولعلَّ المراد بالكفر معناه الأوَّل وهو الظلام - إن صحَّ أنَّ الليل كافر - يعني أنَّ من تعرَّض لتلك الاعتراضات فقد ظلم وأظلم، كمن خاض في لَجٍّ من الظلمات.

وما ذكرت هذه النبذة إلاَّ للإشارة إلى جواب ذلك السؤال من الوجهة الدينية محضاً، وإن كنت أعلم أنَّ ذلك ممَّا لا يُعوَّل عليه المشكِّك الناقد ولا يعتدُّ به المعترض المتحيِّر، سيِّما لو كان ممَّن لا يعرف الحسين عليه السلام كما نعرفه معشر الشيعة إماماً معصوماً لا يتطرَّق إليه العبث فضلاً عن الغلط والاشتباه، بل غاية ما يقول فيه: إنَّه من عليَّة الرجال وأفاضلهم نسباً ونفساً شجاعةً وبراعةً لكن لا يمنع كلُّ ذلك من أن يجري عليه ما يجري على غيره من نوابغ الدهر وأفذاذ البشر من الصواب تارةً والخطأ أخرى والاستقامة أحياناً والالتواء حيناً، وكرم سجاياه وعظم مزاياه لا يقع سداً بين العقول وبين النقد عليه في بعض سيرته وسياسته إن لم يكن في كلِّها - والكمال لله - .

وحينئذٍ فلنفرض الحسين عليه السلام كما يفترضه السائل زعيماً من الزعماء يرى نفسه بما أُوتي من شرف الحسب والنسب أولى بالخلافة من يزيد وأحقَّ بالملك منه، ولا جرم أنَّه يبذل كلَّ ما في وسعه لاستعادة ذلك الحقَّ المغصوب منه ومن أبيه أولاً، فعلى الأقلَّ أنَّه لا يبايع يزيد ويصير

رعيّة له، مع ما هو المعلوم من حال يزيد من المجاهرة بإحياء كلّ رذيلة وإماتة كلّ فضيلة، وهل من سبيل إلى الكشف عن نفسية يزيد وخسّة طبعه وعدم أهليّته من حيث لؤم عنصره وخبث سريره وقبح سيرته مع قطع النظر عن الدين والشرع أقرب وأصوب وأعمق أثراً في النفوس عامّة والعرب خاصّة والمسلمين بالأخصّ من هتك حرم النبوة وودائع الرسالة وحملهم أسارى من بلد إلى بلد ومن كفر إلى كفر؟ وهل أعظم فظاعةً وشناعةً من التشفيّ والانتقام بالنساء والأطفال بعد قتل الرجال؟ وأيّ ظفرٍ وغلبةٍ على يزيد أعظم من اشتها هذه الجرائم عنه؟

أمّا القتل فقد كان عند العرب أهون شيء، وهو أمر معتاد متعارف لا شيء فيه من الفظاعة والغرابة، فكأنّ الحسين عليه السلام عرف أنّ يزيد وابن زياد من خبث الذات وسوء الملكة مستعدّان لتلك الجرائم فأراد أن يُبرزها منهم إلى الوجود وتكون الناس منهم على بينة محسوسة، ثمّ يكون الغالب بعدها هو المغلوب والقاهر المقهور، نعم يزيد قتل الحسين عليه السلام وأنصاره ولكن الحسين روعي فداه قتل يزيد وكلّ بني أميّة بأعظم من قتلهم له بألف مرّة، قتلهم يزيد يوماً واحداً وقتلوه وقومه إلى آخر الأبد، فانظر أيّ الظفرين أعظم وأيّ القتلين أكبر؟ ومن كان يعرف قبل يوم الطفّ أنّ القاتل مغلوب والمقتول غالب؟ ومن كان يعهد قبل يوم الطفّ أنّ في الدم المسفوك قوّة الديناميت تنسف عروشاً وتدنّكُ تيجاناً؟

وهذه الفلسفة أدركها حتّى الباحثون من الأجانب عن الإسلام، وقد ألع إليها المستشرق الألماني (المسيو ماريين) حيث قال: (لَمَّا كان الحسين عليه السلام يعلم عداوة بني أميّة وبني هاشم، ويعرف أنّه بعد قتله

يأسرون عياله وأطفاله، وذلك يُؤَيِّد مقصده ويكون له أثر عظيم في قلوب المسلمين سيّما العرب كما وقع ذلك، حملهم معه وجاء بهم من المدينة...»، إلى أن قال: (ولمّا كانت أنظار المانعين محدودة وأفكارهم قاصرة لا يدركون مقاصد الحسين عليه السلام العالية، وآخر ما أجابهم به: «إنّ الله شاء ذلك وجديّ أمرني به»، فقالوا: إن كنت تمضي إلى القتل فما وجه حملك النسوة والأطفال؟ فقال: «إنّ الله شاء أن يراهنّ سبايا»^(١)، انتهى.

وهذا الجواب ليس كما تخيّل المستشرق جواباً إقناعياً ودفعاً وقتياً، بل له مقامه الراهن من الحقيقة. ولعلّ الله سبحانه وجده إنّما أمراه بذلك كي يفتضح يزيد ويظهر حاله للناس، ونحن لا نقول: إنّ الطرق لهتك يزيد انحصرت بهتك العيال، ولكن نقول: إنّّه كان أحد الطرق التي لها التأثير الكبير في المقصود.

والقول: إنّّه لا يجوز في الدين أن يعرض نسائه للهتك مهما كان الأمر، فهو منبعث عن البساطة والسذاجة، فإنّ الذي لا يساعد عليه الدين، بل ولا تسمح به الغيرة هو تعريض الإنسان عرضه للهتك الموجب لما يمسّ الشرف ويخدش رواق العفّة والصيانة وسرادق النجاة والحصانة، أمّا الهتك الذي تُستَحكم به عرى القدس والطهارة والعزّة والمنعة فذلك ممّا لا يشين ولا يهين. وتلك الحرائر صلوات الله عليهنّ مهما سفرن فهنّ محجّبات ومهما تبذلن فهنّ مصونات وهنّ - بحيث النجم من يد المتناول -.

(٤) هل خروج الحسين عليه السلام مصداق لإلقاء النفس بالتهلكة؟ ٥١

يشعُّ على وجه البراقع نورها فيحسب راءٍ إثمَنَّ سوافر
والغرض أنَّ هذا الجواب محكم رصين وله حظُّه من الحقيقة، وإذا
لم يقنع به الناقد والمشكِّك فهناك وجه ثاني وجيه أيضاً، وهو أنَّ الحسين
عليه السلام في كلِّ أدواره وأطواره ومنذ نشأ وشبَّ إلى آخر نفسٍ من حياته
كانت شيمته الشمم والشهامة وعزَّة النفس والإباء والكرامة تتجلَّى
وتشعُّ من جميع حركاته وسكناته وكلِّ أحواله وملكاته، ولو ذهبنا إلى
سرد الشواهد على هذا لجاء بعناوين مجموعة وافية.

ويخطر لي أنَّ الحسن عليه السلام لما صالح معاوية على الشروط التي لم
يفِ بشيءٍ منها، وكان قد حضر عند معاوية مع خواصِّ أصحابه
للببيعة، فبايع الحسن ومن معه، وطلب معاوية البيعة من الحسين عليه السلام،
فقال الحسن عليه السلام: «يا معاوية دعه فإنَّه لا يبايع، ولكن لا يأتيك منه
سوء»، فقال: حسبنا منه ذلك^(١).

وبعد أن تمَّ الأمر لمعاوية لعنه الله كان الحسين عليه السلام إذا اجتمع به
في حشدٍ من محافل الشام أو الحجاز فيناضله ويناضره فيرضخه من القول
بالصلاوم ويصكُّ جبهته بما هو أمض من الصوارم - ورُبَّ قول أنفذ
من صول^(٢) -، ومعاوية يحتمل كلَّ ذلك منه لما يعلم من عزَّة نفسه
وشدَّة شكيمته.

مرَّ على الحسين عليه السلام عشرون عاماً منذ خلافة معاوية لعنه الله ما

(١) أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٦؛ بحار الأنوار ٤٤: ٥٧/ ح ٦ عنه؛ وفيهما: «يا
معاوية لا تُكرِّهه فإنَّه لن يبايع أبداً أو يُقتل، ولن يُقتل حتَّى يُقتل أهل بيته، ولن يُقتل
أهل بيته حتَّى يُقتل أهل الشام».

(٢) جمهرة الأمثال ٢: ٩٢.

ذاق فيها طعم الخضوع والاستكانة، حتّى إذا هلك معاوية لعنه الله وامتنع عن البيعة ليزيد ورأى من السداد الهجرة عن المدينة ليُعرّف العالم الإسلامي امتناعه عن البيعة، فخرج من المدينة بأهل بيته قاصداً مكّة، ولزم الطريق الأعظم الدرب السلطاني، ف قيل له: لو تنكّبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير، فقال: «لا والله لا أفارقه حتّى يقضي الله ما هو قاضٍ»^(١).

فالحسين وعلى ذكره السلام وهو يحمل بين جنبيه هذه النفس الكبيرة لمّا أراد الخروج من مكّة إلى العراق أبت نفسه الكريمة وأنفت همّته القعساء أن يخرج هو وولدانه وغلماؤه على ظهور خيولهم خروج المتشرّد الخائف والنافر الفزع، ولم يرصّ لنفسه إلّا أن يظهر بأسمى مظاهر الأبهة والهيبة والجلال والحشمة في الموكب الملوكي وفخامة الملك والسلطان.

ومن المعلوم أنّ حمل الحرم والعائلة من لوازم الفخامة والعظمة وشوكة المناطق والسرّادق ما لا يحصل بدونها، ولو خرج عليه السلام من أوطانه وترك عقائله في عقر دارهم لكان خروجه أشبه ما يكون بصعاليك العرب وأهل الغزو والغارات والمتلصصين، وحاشا لسيد أهل الإباء أن يرضى لنفسه بتلك المنزلة النازلة والخطّة السافلة، بل سار بأهله وذرائه ليكون على مهاد الدعة والسكينة والهدوء والطمأنينة كسير أكبر ملك من ملوك الدنيا وأوسعهم في القدرة والسلطان.

ولا تخالّن أنّ في كلمتي هذه ضرباً من الخيال أو شيئاً من المبالغة

والغلو، كلاً فإنَّك لو نظرت إلى بعض الخصوصيات في سيره لوجدت منها أوثق شاهد لك على ما ادَّعيناه.

الحسين عليه السلام والحرّ الرياحي:

أنعم النظر في قصّة الحرّ التي اتَّفقت على نقلها أرباب المقاتل وأمناء التاريخ والسير حيث التقى بالحسين عليه السلام في قفرٍ من الأرض لا ماء ولا كلاء وقد أمضَ به وبأصحابه العطش وهم زهاء ألف فارس على ألف فرس، فقال الحسين عليه السلام لفتيانه: «اسقوا القوم، وأرووهم الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً»، ففعلوا وأقبلوا يملأون القصاع والطساس من الماء ثمّ يدنونها من الفرس، فإذا عبّ فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقي آخر، حتّى سقوها عن آخرها^(١).

فانظر وأعجب وهو محلّ الغرض كم كانت سعة ذلك الموكب السلطاني وإدارة ذلك الركاب الملوكي، وكم كان يحمل من الماء حيث سقى نفسه وأعداءه سقى ألف فارس وألف فرس، وعلى أقلّ تقدير إنّ النفوس التي كانت مع الحسين عليه السلام من أولاده وأنصاره وعيالاته ألف نفس وحمولتهم التي تحمل خيامهم وأمتعتهم وما يؤول إليها من قدور وقصاع وطساس ونحوها ألفين من الخيل والبغال غير الإبل فتكون النفوس المحتاجة إلى الإرواء بالماء في ذلك الموكب على أقلّ التقادير خمسة آلاف أو أربعة آلاف نسمة غير الفضلة الاحتياطية التي سقى منها الحرّ وأصحابه وخيولهم، فالموكب الذي يحمل من الماء ما يروي ستّة

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ٧٨؛ مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٢؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٦؛

آلاف أو سبعة آلاف نسمة كم ترى يكون ضخامة ملكه وفخامة سلطانه؟

ثم أنظر ثانياً وأعجب ما شئت بهذا الحنان والرحمة والعطف والإشفاق، فإنَّ القوم الذين سقاهم الحسين عليه السلام كانوا أعدائه، وقد جاؤوا من قبل ابن زياد للقبض عليه، حتَّى أنَّ علي بن طعان المحاربي وهو عراقي من أصحاب الحرِّ لم يعرف كيف يشرب من الراوية، وكيف يخنث السقاء كما يفعله الحجازي، فكان يشرب والماء يسيل على أشداقه وثيابه، فنزل الحسين روي فداه بنفسه وخنث له السقاء حتَّى شرب وارتوى^(١).

وأعجب ثالثاً لإيثاره بالماء في بادية قحلاء وصحاح أجرد والماء فيه أعزّ من الذهب وقد لا يجدونه في يومين أو ثلاث أو أكثر، فأئى سخاء هذا السخاء؟ وأئى نفس تلك النفس؟

* * *

(٥)

خروج الحسين عليه السلام مصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

يرى داعي الدين وهو الأبى الحرّ صاحب المبدأ الراسخ الذي غلب حبه لأُمَّته على حبه لنفسه أن ما يدعو إليه من الصلاح وتقويم الأود والعمل بالحقّ كلّ ذلك في خطر الإندراس بين الناس، ويرى العاملين بالمنكر جادّين في سبيلهم، وأنّ سكوت الأمرين بالمعروف عمّا أمروا به رهبة أو طمعاً سيؤدّي إلى موت الحقّ ونمو البدعة وفساد الأخلاق، وما ماتت أُمَّة إلا بموت أخلاقها وبخنوعها عن محاربة الذلّ والضميم والاستبداد.

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا والاستبداد لا شكّ مفنٍ للشعوب هادمٍ للعمران، يرى ذلك فيأبى إياؤه الإقرار على مثله، فينهض ويثور غير مبالي في هذا السبيل تقتيلاً أو تشريداً، وإنّما الموت في سبيل الحقّ ونصرتة حياة دائمة لا تعدّ عندها حياة والجسم الفاني في سبيل الحقّ شيئاً مذكوراً. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، على هذا مضى الشهداء والصديقون، وبمثل مفادة

هذا الرهط من الأباة عزّت الأمم ورُدَّ جماح الظلم والاستبداد عنها، وعلى هذا الطريق مشّت الأمم إلى استقلالها، والله درّ أبي الطيّب المتنبّي إذ يقول:

لا يَسْلَمُ الشرف الرفيع من الأذى حتّى يُراق على جوانبه الدم
رأى الحسين بن علي عليه السلام ربيب الوحي وريحانة الهادي الرسول
متّم مكارم الأخلاق والمرسل لتطهير العالم من أدران الفساد أنّ الناس
أفلتوا من كثير من تعاليم الهداية النبوية، وأنّ سُنّة جدّه وتعاليمه العالية
تمشي إلى الاضمحلال تدريجاً بما جهر به ذووا السلطان من الهتك
لحرمتها والخلاف لها علانية في سبيل تأييد سلطانهم وشفاء لأحقّادهم
الموروثة من جاهليتهم وإحياء لعصبيّاتهم التي حاربها مصلح الأُمّة.

رأى أنّ أحكام الشرع تُغيّر وتبدّل ولا من يجهر بالأمر بالمعروف،
وأنّ أساس الشورى قد تهدّم بتسليم أمر الأُمّة على غير اختيار منها قوّة
وقهراً لمن لا ترضاه مع معالنته بالفجور والتهتك واستباحته الحرام
وجهره بالإلحاد - فلا خبر جاء ولا وحي نزل -، وأنّ من شرع محمّد
ﷺ النهي عن المنكر والبغي كما جاء في القرآن المجيد.

أليست السُنّة الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وقتالهم إذا
لم يصلّوا؟ فهل كان للحسين عليه السلام ومن على رأيه من المسلمين أن يروا
يزيد يهجر الفرض والسُنّة، ويرتكب الفسق علناً، ويسعى في الأرض
فساداً، ولا ينكرون عليه ولا يعترضون؟

فالحسين روعي فداه يرى كلّ ذلك، فلا يرى الحياة مع الظالمين
إلّا برّماً، وهو الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يحوله عن نصرة
الحقّ قتل أو تفضيع أو تشريد سبط الهادي والزعيم بإحياء سُنّته، وكان

ذوو السلطان يومئذ يعرفون هذا منه، فكان أخوف ما يتخوفونه على سلطانهم، فأرادوه على البيعة ليزيد، فأبى عليهم لأن فيها الإقرار على غوايتهم والإملاء لهم فيزدادون إثماً على إثمهم، ويكون إثمهم سنة متبعة كما اتُّخذت سنتهم سبب أبيه على المنابر ديناً عند عامة أهل الشام حتى صعب على عمر بن عبد العزيز نزاعها إلا بعد جهد، وهو الموجب لسمه ففضي به.

فالحسين عليه السلام أبى ذلك ورأى أمره بين السلة والذلة، ويأبى له الله وحجور طابت وطهرت أن يختار الذلة:

فأثر أن يسعى إلى جمرة الوغى برجل ولا يعطي المقادة عن يد
فخرج من المدينة على مكة ثم إلى العراق معلناً خطته في وصيته التي كتبها لأخيه محمد إذ يقول: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدي رسول الله وأبي علي، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى ألقى الله وهو أحكم الحاكمين»، فخرج عليه السلام وأخرج عياله معه ^(١).

والموجب لحمل العيال معه مع علمه بقتله وسبي عائلته لمقاصد عالية وأسرار خفية لا يدركها إلا من آتاه الله سعة من العلم وخصباً في الفكر، ذو اللب والمعرفة من أهل العلم والعرفان.

فمنها أنه عليه السلام كما ألمعنا إليه أبت نفسه الشريفة وأنفت همته

القعساء أن يخرج هو وولدانه خروج الأذلاء والصعاليك، بل أراد أن يخرج بزيّ العظمة والسلطان كسير أكبر ملك من ملوك الدنيا وأوسعهم في القدرة والسلطان.

وإذا صحَّ ما رواه الطريحي في (مجمع البحرين)^(١) من أن الحسين عليه السلام لما نزل كربلاء اشترى أرض نينوى والغازية من بني أسد بستين ألف درهم، واشترط عليهم أن يدلّوا زوّاره على قبره ويضيّفوهم. إذا فكّم تراه كان يحمل معه من الأموال والنقود التي يكون فضلها ستين ألف درهم؟

قصة محمد بن بشير الحضرمي:

وأزيدك شاهداً على ذلك من عظمة الملك قضية محمد بن بشير الحضرمي التي رواها السيّد ابن طاووس وغيره حين قيل له ليلة عاشوراء ليلة القلق والأرق الليلة التي كانت المنايا فيها على الحوايا والحمام يحوم على الخيام، قيل له: إن ابنك أسر في غري الرّي، فقال: عند الله أحاسبه ونفسي، ما أحبُّ أن يُوسر وأنا أبقي بعده، فسمع الحسين عليه السلام قوله فقال له: «رحمك الله أنت في حلٍّ من بيعتي، فاعمل في فكاك ابنك»، فقال: أكلتني السباع حياً إن فارقتك، قال: «فاعطِ ابنك هذه الأثواب والبرود يستعين بها في فداء أخيه»، فأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار^(٢). وعليه فيكون قيمة كلّ ثوب مأتي دينار - مائة ليرة ذهب -.

وأنا لا أدري ما كانت تلك الثياب التي قيمة الواحد منها مائة ليرة، وكم كان معه مثلها؟ ولماذا يحملها وأمثالها معه في تلك المراحل؟

(١) مجمع البحرين ٥: ٤٦١ و ٤٦٢.

(٢) أنظر: اللهوف: ٥٧؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٤ عنه.

هذه أسئلة لعلك في غنى عن تكليفي الجواب عنها.
أيها السائل ما أظنك تحسب أن الحسين عليه السلام كان صعلوكاً من
صعاليك العرب ولثيماً من لثامها كابن الزبير الذي يقول لجنده: أكلتم
تمري وعصيتم أمري^(١).

ويقول للوافد عليه المستجدي منه بعد أن قال له: إن ناقتي قد
نقبت^(٢)، فقال: ارقعها بجلد، واخصفها بهلب^(٣)، فقال الوافد: لعن الله
ناقة حملتني إليك، فقال: إن وراكبها^(٤).

لا يا هذا الحسين أكبر ممّا تظنّ، الحسين أكبر من أن يتخلّص من
طواغيت بني أميّة الذين أرادوا سفك دمه في حرم الله فتهتك به حرمة
الحرم كما فعل ابن الزبير وفعلوا به، هو أكبر من أن يخلص بنفسه ويترك
عياله يشرّابون إليه ويتطلّعون إلى أخباره ويناشدون الركبان عنه.

الحكمة في حمله العيال والأطفال:

الوجه الأوّل: وأمّا ما تخيّلت من أن هتك الحريم لا يقدم الغيور
عليه مهما كان الأمر فهو وهم زائف^(٥)، وقد عرّفناك فيما تقدّم أن اهتك
المشين هو الذي يلمس أذيال العفّة ويمسّ ذلاذل الشرف لا الذي
تستحكم به أسوار الصون وسياج العفاف.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠: ١٢٣.

(٢) أي رقت أخفافها. (راجع: النهاية في غريب الحديث ٥: ١٠٢ / مادة نقب).

(٣) الهلب: ما غلظ من الشعر كشعر ذنب الناقة، ورجل أهرب: غليظ شعر ذراعيه
وجسده. (العين للفراهيدي ٤: ٥٣ / مادة هلب).

(٤) الأغاني ١٢: ٣١٦ بتفاوت سير.

(٥) أي مردود. من وصف الدراهم، يقال: زافت عليه دراهمه أي صارت مرذودة لغش
فيها، وقد زُيِّفت إذا رُدّت. (لسان العرب ٩: ١٤٢ / مادة زيف).

وبعد هذا كله فهل أقنعك هذا الوجه وعرفت كيف كانت منزلة الحسين عليه السلام من عظمة الشأن وسمو السلطان؟

وهناك وجه ثاني لحمل العيال، وهو أنه عليه السلام لو ترك عياله بالمدينة أو بمكة أو أي مكان بعيد عنه ربّما تمكّن خصمه من إيذائهم كما فعل بسر بن أرطأة إذ ضرب في يوم واحد من أعناق الأبناء من شيعة علي عليه السلام سبعين عنقاً، وذبح ابني عبيد الله بن العباس صبيين^(١)، وكما فعل الخوارج إذ ضربوا عنق ابن خباب وبقرؤا بطن زوجته^(٢)، ولو لم يحمل الحسين عياله معه لشغله على كلّ حال همهم عمّا يقصده.

وهناك وجه ثالث لعلّه يُقْنِعُك، وهو ما كانت عليه العرب من حمل العيال والصغار في الحروب معهم، وإلى ذلك يشير عمرو بن كلثوم في معلقته إذ يقول:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تُقسّم أو تهونا
يُقتنّ جياننا ويُقلنّ لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ...﴾ الآية (آل عمران: ٦١)، خصّ الله الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل والصقهم بالقلوب، وربّما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتّى يُقتل، ومن هنا كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويُسمّون الذادة عنها بأرواحهم حماة الطعائن أو الحقائق.

(١) أنظر: أمالي الطوسي: ٧٧ / ح (١١١ / ٢٠).

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٤: ٦٠؛ بحار الأنوار ٣٣: ٣٤٦ عنه.

قال ابن خلدون في مقدّمته ما ملخصه: (حينما كانت الدول بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم، فلما حصّلوا على شرف الملك وألفوا سكنى القصور والحوضر تركوا شأن البادية ونسوا الإبل والظعان، فخلّفوا النساء في الأسفار واقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية، ولا يغني ذلك كلّ الغناء، لأنّه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال^(١)).

وفي وقعة اليرموك الشهيرة بين المسلمين والروم كان مع المسلمين نساؤهم، قال ابن عساكر في تاريخه: (وكان كثير من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهنّ وأبنائهنّ وأجلسن خلف صفوف المسلمين...، ولمّا انكشف بعض المسلمين سمع نسوة من نساء المسلمين يقلن: فلستم بعولتنا إن لم تمنعونا)^(٢).

قال ابن الأثير في الكامل: (وقاتل النساء ذلك اليوم وأبلين)^(٣).

ومثل هذه الوقائع لا تغيب عن الضليع في تاريخ العرب، ومثلها ما وقع لثقيف وهوازن في غزوة حنين^(٤).

وهذه العادة معتادة متعارفة عند العرب إذا أرادوا أن يستميتوا في الحرب ويصبروا للطعن والضرب جعلوا الحريم خلفهم واستقبلوا العدو، فمّا الحتف أو الفتح، ويستحيل عندهم النكوص أو الفرار وترك الحريم للذلّ والأسر، فلعلّه عليه السلام حمل العيال كي يستميت أصحابه دونها وينالوا درجة السعادة بالشهادة كما فعلوا.

(١) راجع: تاريخ ابن خلدون ١: ٢٧٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢: ١٥٠ - ١٥٦.

(٣) الكامل في التاريخ ٢: ٤١٤.

(٤) أنظر: تاريخ الطبري ٢: ٣٤٤ / ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ﷺ هوازن بحنين.

وهناك وجه رابع لعلّه أوجه من تلك الوجوه وأقربها إلى الحقيقة وإن كانت للحسين عليه السلام محوطة وراء التّعبد والانقياد والرضا والتسليم للمشينة القاهرة، وكانت سياسته عن فلسفة نظرية وتدابير بشرية، فهي هذه الملاحظة التي سوف نبديها ونشير إليها إجمالاً حيث لا سعة للتفصيل.

تقول أيها الناقد: إنَّ الحسين عليه السلام كان يعلم أنّه يُقتل، نعم وأنا أقول كذلك، بل يعلم أنّ جميع من معه من الرجال، بل وكثير من الأطفال يُقتلون حتّى الرضيع، ولا يفلت إلّا ولده زين العابدين عليه السلام من أجل العلة والمرض. فلما علم ذلك كلّ وعلم أنّ بني أميّة وأشياعهم سوف يُموّهون، بل كانوا قد موّهوا على المسلمين أنّ الحسين عليه السلام خارج على إمام زمانه وهو يزيد المنصوب بالنصّ عليه بالاستخلاف من الخليفة الذي قبله وهو معاوية لعنه الله، فالحسين بخروجه باغ وحكم الباغي القتل، ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩)، فتكون هذه الفتوى وهذا التمويه أعظم على الحسين من قتله، وهذا الطلاء المبهرج وإن كان لا يخفى على العارفين والنياقدة، ولكنهم بالضرورة خاضعون للسلطة قد شملتهم الذلّة وأخملتهم القلّة وأجهمهم الخوف والتقيّة، سيّما بعد الفراغ من أمر الحسين عليه السلام، فلا رحمة لأحد بعده ولا حرمة، والناس كما قال عليه السلام يوم الطفّ وكما حالهم اليوم: «عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم»^(١)، فمن ذا يقدر أن ينبس بالحقيقة فضلاً عن الإصحاح بها وسيوف يزيد وابن زياد فوق رؤسهم

وأموالهم نصب أعينهم، وتعلم كيف يلعب الرجاء والخوف في النفوس، فحينئذٍ فلا يمرُّ حول أو حولان إلَّا وقد سجَّل التاريخ أنَّ الحسين عليه السلام وأستغفر الله باغٍ عاتي وقد قُتِلَ بحكم شريعة جدِّه، ويعضد الناقد فريَّته بقوله: هَلَّا بايع كما بايع أخوه الحسن ودفع عن نفسه وأهله القتل؟

وهذه عند الحسين عليه السلام وهو علم الحقِّ ومنار الهدى وجسم روح الغيرة والإباء رزيَّة لا رزيَّة فوقها ومصيبة لا مصيبة أعظم منها، فعلى من يعتمد الحسين في دفع هذه العائلة وتفنيد هذه الضلالة وإنقاذ المسلمين من هذه الورطة المهلكة؟ أعلى رجاله وكلَّهم سوف يُقتلون معه بعلم منه أم على زين العابدين وهو أسير مشغول بعلته وقتله أهون عليهم من قتل ذبابة؟ فمن يقوم للحسين بهذه المهمة بعد قتله؟ ومن ذا يقرع بالحجَّة ويوضِّح الحجَّة ويكشف الحقيقة ويتعقَّب القضية ويخطب في النوادي الحاشدة والجوامع الحافلة تلك الخطب البليغة والحجج الدامغة؟

قصة عبد الله بن عفيف الأزدي:

تصوّر ذلك العصر مليّاً واستوسع التأمل في تلك الأوضاع وانظر هل كان من الممكن أن يقوم بشيء من ذلك أكبر رجل باسل؟ وهب أن من الممكن أن يفادي رجل بنفسه للحقِّ وإبداء الحقيقة، ولكن هل يُمهِّلوه إلى أن يستوفي الغرض ويبلغ الغاية؟ أو ليس عبد الله بن عفيف الأزدي ذلك البصير الذي ذهبت عيناه واحدة يوم الجمل والأخرى بصفين، نعم ذهبت عيناه ولكن فتح الله له في قلبة عشرة عيون، وسقط الجهاد عنه بيده ولكن جاهد في لسانه بعشرة أسياف إلى أن أحرز الشهادة في هذا السبيل، فإنَّه لمَّا سمع خطبة ابن زياد على منبر

الكوفة بعد قتل الحسين عليه السلام وهو يقول: الحمد لله الذي نصر أمير المؤمنين يزيد وأشياعه وقتل الكذاب ابن الكذاب... نهضت به الحمية الحامية للحق، وفادى بنفسه في ذلك الحشد الرهيب، فقام وقطع عليه خطبته قائلاً له: إنَّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه، يا عدوَّ الله أقتتلون أولاد النبيين وتكلمون بهذا الكلام على منابر المسلمين؟ فغضب ابن زياد وقال: من هذا المتكلم؟ فقال: أنا المتكلم يا عدوَّ الله، أقتتل الذرية الطاهرة التي أذهب الله عنهم الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام؟ وا غوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد ﷺ؟ فازداد غضب ابن زياد حتَّى انتفخت أوداجه وقال: عليَّ به، فقام الجلاوزة فأخذه وقامت الأشراف من الأزد عشيرته فخلصوه وانطلقوا به إلى منزله.

ولكن هل خلص ونجا من ذلك الطاغية؟ وهل كان آخر أمره إلاَّ أن أحضر بين يديه فضرب عنقه صبراً وصلب جثمانه في السبخة في قصَّة طويلة، وما ظفر به ابن زياد إلاَّ بعد حرب سجال وتحريش منه خبيث بين اليمانية والمضرية على قاعدة التفريق^(١).

* * *

(٦)

علل وأسباب نهضة الحسين عليه السلام

إن قيام الحسين عليه السلام بالدعوة إلى الله وإلى الحق والعدل كان على طريق مخصوص قلما يهتدي لمثله، وقل من يثبت على صراطه.

علم الحسين عليه السلام بالخور الذي خامر المسلمين في دولة بني أمية والضعف الذي استولى عليهم، وعلم ما سار عليه بنو أمية من حمل الناس على تحريف الشريعة الإسلامية وإدخال ما ليس منها فيها، وحملهم بكل طريق على تحقير شأن آل محمد، وبآل محمد ﷺ قام الإسلام وثبتت دعائمه.

علم ذلك الحسين عليه السلام فأصبح طبعاً ينظر إلى الشريعة الإسلامية نظره إلى غيرها من الشرائع السابقة، وأنه سيجري على هذه من بني أمية لو تركوا ما جرى على تلك من جبايرة أعمها وطواغيت عصورها، حتى أصبحت نسياً منسياً. ورأى أنه لا يمكن محو ما أدخلوا فيها ولا تعديل ما حرفوا منها ولا إرجاع الناس إلى الحق والعدل وإلى حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ ولبنى أمية الملك والسلطان وهم الحكام على المسلمين، كما أنه لا يمكن القضاء عليهم بالسيف ولا تأليب المسلمين عليهم بالبيان، وقد علم كيف أصبح المسلمون معهم. فرجع الحسين عليه السلام إلى هذا الطريق الذي ركبه والسبيل المستقيم الذي سلكه رجع إلى قتلهم وقصد إلى القضاء على ملكهم وسلطانهم ولكن لا بسيفه

وسنانه، بل بما يُبَيِّتُ في العالم من شنائع بني أُمَيَّة وجورهم وظلمهم وتخلُّقهم بأخلاق تأبى حتَّى الوحوش أن تتَّصف بها أو تأتي بمثلها، غير أنَّ هذه الحركة والفكرة تحتاج إلى المثابرة والتعقيب في الخطب الرنانة والكلمات المهيَّجة وتشهير المثالب والمساوي ونقد السيِّئات ونعيها على تلك الدولة الغاشمة والسلطة الظالمة والحكومة الجائرة، فإنَّ بهذا ومثله تتكوَّن في الأُمَّة روح ثورة وانفجار تكتسح ظلم الظالمين وتقتلع عروق الجور والاستبداد.

قل لي برُّك أيُّها الناقد أيَّ رجالات ذلك العصر كان يقدر على القيام بتلك المهنة ويقوى على النهوض بذلك العباء؟ أليس قصارى أمره مهما كان من البسالة والجرأة أن يقول الكلمتين والثلاث فيقال: خذوه فاقتلوه فاصلبوه في السبخة أو في الكناسة؟

ولا استحضر منكراً على ابن زياد إلاَّ عبد الله بن عفيف رضوان الله عليه، وإلاَّ ذلك الصحابي الضعيف بكلِّ مواقع الضعف، ألاَّ وهو زيد بن أرقم، فإنَّه حين رأى رأس الحسين عليه السلام بين يدي ابن زياد وهو يضربه بعوده قال له: ارفع عودك عن هاتين الشفتين، فوالله لطالما رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلُهما، ثمَّ بكى زيد، فقال له ذلك الجبت الخبيث: أتبكي لما فتح الله للأمر، لولا أنَّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لأخذت الذي فيه عينك، فخرج زيد وهو يقول: ملك عبد حرّاً، أنتم يا معشر العرب عبيد بعد اليوم، قتلتم ابن بنت رسول الله ﷺ وأمرتم ابن مرجانة^(١).

نعم ما أنكر على ابن زياد غير هذين الرجلين، وكلماتهما وإن كانت ذات قيمة ثمينة في مثل تلك الأيام العصيبة والمواقف الرهيبة ولكن أي شيء لها من التأثير؟ وما مبلغها في تلك التيارات الجارفة والزوابع القاصفة؟ وهل هي إلا كلمات قيلت وذهبت أدراج الرياح؟ وهل كانت تكفي لإيجاد بواعث الثورة وتكوين الانقلاب على بني أمية وتحوير النفوس وغلbian الأفكار وتأجيج النار لطلب الثار؟

وكلُّ غرضنا من سحب أذيال هذا المقال أن يتجسّم لديك كيف كان الحال في كمّ الأفواه وعقل الألسن وإرجاف القلوب ومشق الحسام لضرب الهام على أقلّ كلام.

إذاً فمن يردُّ تلك الأمانة ويؤدّي تلك الوديعة وديعة الحقّ وأمانة الصدق والانتصار للحقيقة وإزهاق الباطل؟

نعم قمن بكلّ تلك الوظائف على أوفي ما يرام وأتمّ ما يحصل به الغرض، قمن به ودائع النبوة وحرائر الوحي والرسالة، نهضن بتلك الأعباء الثقيلة التي تعجز عنها الأبطال وأسود الرجال.

كأنّ الحسين عليه السلام علم - ولا شكّ أنّه علم - أنّه سيقتل هو وجميع أهل بيته وأنصاره، ولا يبقى رجل يتسنّى له الكشف لجمهرة ذلك الخلق التعيس عن فظاعة تلك الجناية وشناعة تلك الجرائم السيئة، ولو أهمل هذه الناحية المهمة لذهب قتله سدى، ولفات الغرض والغاية، فلم يجد بُدّاً من حمل تلك المصونات معه لتكميل ذلك المشروع الذي ابتذل نفسه ونفوس أعزّته في سبيله، - فليكن هذا وجهاً خامساً لحمل العيال -^(١).

(١) تقدّمت أربعة أوجه في (ص ٥٩) تحت عنوان: (الحكمة في حمله العيال والأطفال).

دخول السبايا الكوفة وخطبة زينب عليها السلام:

ذكر أرباب المقاتل وأمناء التاريخ أنَّ السبي لَمَّا دخل إلى الكوفة جعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون، فقال علي بن الحسين عليه السلام وقد أنهكته العلة: «تقتلنا رجالكم وتبكيانا نساءكم، فالحكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء...»، ثم تعاضمت الفجيعة فصار الرجال والنساء يبكون معاً، فقال عليه السلام: «أتبكون وتنوحون لنا؟ فمن قتلنا؟»، قال بشر بن خزيمة الأسدي: ونظرت إلى زينب بنت علي عليها السلام يومئذٍ، فلم أرَ خفرة^(١) والله أنطق منها، كأنها تنطق عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن أُسكتوا، فارتدَّت الأنفاس وسكنت الأجراس، ثم قالت: (الحمد لله، والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار. أمّا بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟ فلا رَقَاتِ الدمعة ولا هدأت الرنة، إنَّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثاً...)، واندفعت كالسيل المنحدر إلى أن قالت: (أتبكون وتنتحبون؟ إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ويلكم أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله فريتم؟ وأيّ كريمة له أبرزتم؟ وأيّ دم له سفكتم؟ وأيّ حرمة له انتهكتم؟ أفعجبتكم إن مطرت السماء دماً؟ ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تُنصرون، فلا يستخفنكم المهل فإنَّه لا يحفره البدار ولا يخاف فوت الثار، وإنَّ ربكم لبالمرصاد).

قال: فوالله لقد رأيت الناس يومئذٍ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتَّى اخضَلَّت

(١) الخفرة: شدَّة الحياء، وامرأة خفرة: حياء متخفّرة. (العين للفراهيدي ٤: ٢٥٣ / مادة خفر).

لحيته وهو يقول: بأبي أنتم كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونسائكم خير النساء ونسلكم خير نسل لا يذل ولا يخزي^(١).

دخول زينب عليها السلام على مجلس ابن زياد:

أستطيع أن تستحضر في نفسك وتتمثل في أم رأسك مجلس ابن زياد في قصر الإمارة بالكوفة، وقد أدخلوا عليه السبايا والرؤوس، وفيهنَّ الحرَّة الحوراء زينب الكبرى، وهو سكران بنشوة الفتح والظفر، ورؤساء الأرباع والأسباع ورؤوس القبائل مثول بين يديه والدنيا مقبلة بكلِّ وجهها عليه. دخلت عليه تلك العقيلة وجلست ناحية متنكرة، فأبت نفسه الخبيثة أن يصفح صفح الكرام ويغضي إغضاء الأماجد، أبت نفسه إلاَّ إظهار الشماتة ولؤم الملكة وخبث الظفر وسوء الاستيلاء وقبيح الأثرة.

فسأل ولا شكَّ أنه عرفها ولكن أراد أن يتحدّثها ويهتكها - وهو المهتوك -، وقال: من هذه المتنكرة؟ ف قيل له: هي زينب بنت علي عليه السلام، فقال لها قول الشامت الشاتم: أرايت صنع الله بأخيك الحسين والعتاة المردة من أهل بيته؟ فقالت قول الثابت الجنان المتدرّع بدلاص اليقين والإيمان المستحقر له ولكلِّ ما له من قوَّة وسلطان: (ما رأيت إلاَّ جميلاً، أولئك قوم كُتِبَ عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتُحاجَّ وتُخاصَّم، فانظر لمن الفلج، ثكلتك أمُّك يا بن مرجانة)، فلمَّا لطمته بهذه اللطمة السوداء لم يجد سبيلاً للتشفي منها والانتقام إلاَّ بأسوء الكلام من السباب والشتيمة، فقال: الحمد لله الذي قتلكم

وفضحكم وأكذب أحدوثتكم. فقالت غير طائشة ولا مدعورة: (إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا)^(١).

قل لي برّبك أيّ رجالات ذلك العصر كان يقدر على القيام بتلك المهنة ويقوى على النهوض بذلك العباء؟ هل أحسست في تلك الساعة الرهبة من زينب أمام عدوّها القاسي الظالم الشامت الشاتم أن تلجلج لسانها أو اضطرب جنانها أو ظهر عليها ذرّة من الذلّ والاستكانة، أو خضعت فانقطعت، أو عجزت عن ارتجال الخطب البليغة التي لو جاء بها الوادع الساكن والمطمئن الآمن بعد ليالٍ وأيام لكانت آية من آيات الإبداع ورمزاً من رموز البراعة، فكيف وقد اندفعت بها في حشد الرجال على سبيل الارتجال، وهي على ما عرفت من الوضع الذي عنه يقال في الشدّة: (بين ذراعي وجبهة الأسد)^(٢)، تتقاذفها لهوات الكرب وتلوكها وتمضغها أنياب النوب، حتّى أنّ ابن زياد لمّا عجم عودها فرآه صلباً مرّاً لا يلين لغامز ولا يلدّ لماضغ، وأنّها لا تنقطع ولا تكلّ ولا تعرف للرهبة وللخوف معنىً، وخشي أن لا تبقي من هتكه وفضحها باقية، وأن تقلب عليه الرأي العامّ وتُحدّث في جماعته فتقلاً لا يرتق غير من حُطّته وتنازل عن غلوائه وشدّته، فكان آخر كلامه معها بعد أن شفت

(١) راجع: اللهوف: ٩٤؛ بحار الأنوار ٤٥: ١١٥ و ١١٦ عنه، والرواية هكذا: فأقبل إليها فقال: الحمد لله الذي فضحككم وأكذب أحدوثتكم، فقالت: إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا، فقال ابن زياد: كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيت إلّا جميلاً، هؤلاء قوم كتب عليهم القتال فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتُخاصم فانظر لمن يكون الفلج يومئذ هبتك أمك يا ابن مرجانة.

غليلها منه: (لعمري أنّها لسجّاعة، ولقد كان أبوها أسجع منها)^(١)، لا يا ابن مرجانة ما هي بسجّاعة هي أمثولة الصبر والثبات ورمز غلبة الحق على الباطل واحتقار الحكم الزائف والملك الزائل وسلطنة الخداع والمكر.

لا يا ابن مرجانة هذه زينب بنت علي الذي علّم الناس الفصاحة والبراعة والشجاعة، هذه زينب بنت الزهراء البتول لا كمرجانة وسُميّة ذوات الأعلام في الجاهلية والإسلام.

هذه زينب بنت الطاهرة العذراء لا كهند الخرقاء صاحبة الفارعة أو الفاكه التي يقول فيها حسنّ شاعر النبي ﷺ: (لمن الصبي بجانب البطحاء...) البيتين^(٢).

وما كانت تلك الشجاعة والبراعة منها ﷺ في مرّة أو مرّتين، بل كانت كلّما ضاق الأمر واشتدّت المحنة وتجمهر المتفرّجون عليهم عند دخولهم الكوفة وعند خروجهم منها وفي قصر الإمارة وفي مجلس ابن زياد في كلّ ذلك تتحدّى فندّهش وتحتجّ فتفالج وتخطّب فتعجب، تخطب خطبة البليغ المدرّة والمصقع المفوّه الذي تهيّأت له كلّ أسباب الدعة والراحة والفراغ والطمأنينة.

دخول زينب عليها السلام إلى الشام ومجلس يزيد:

هلّمّ معي ندخل مع هذا السبي إلى الشام وننظر كيف دخوله على

(١) راجع: الإرشاد ٢: ١١٦؛ اللهوف: ٩٤.

(٢) تمام البيتين:

لمن الصبي بجانب البطحاء	في الترب ملقى غير ذي مهدٍ
نجلت به بيضاء آنسة	من عبد شمس صلته الخدّ

راجع: بحار الأنوار ٣٣: ٢١.

يزيد ووقوفهم بين يديه، ولنستبق إلى مجلس يزيد نتبوءً لنا موقفاً منه قبل ازدهام المتفرجين وتزاحم النظارة. وقفنا في حاشية النادي الأموي نتطلع، هذا يزيد جالس على السرير فوق المصيبة العالية وهو مخمور يرنح أعطافه من خمرتين خمرة العقار وخمرة الانتصار، ومنتشي بنشوتين نشوة الملك ونشوة الفتح والظفر، ودونه طواغيت بني أمية من الأعياص والغناسة من بني عبد شمس، وهم على كراسي الذهب والعاج يرفلون بحلل الحرير والديباج، وهذه أقذاح الشراب والخمور ونخب الفرح والسرور تُدار عليه وعليهم، والأعواد والمزاهر تُضرب لديهم، فبينا هم على هذا ومثله إذ أدخلوا سبي آل محمد مربقين بالحبال بين نساء وأطفال.

هناك استفرته نشوة الأنس والطرب، وتمنى حضور أشياخه قتل بدر من عتبة وشيبة والوليد ليشاهدوا أخذه بشارهم وقيامه بأوتارهم، وأنه زاد على أخذ الثار بقتل الرجال سبي العيال، قائلاً: ليت أشياخي بدر شهدوا...

هنالك قامت العقيلة زينت فقالت واسمع ما قالت، وانظر كيف خطبت، وهل راعها أو هالها شيء من تلك المظاهر الهائلة؟ وتأمل في فقرات خطبتها التي قصمت بها الفقار من ظهر يزيد، وكانت أشد عليه من ضرب الحسام في يد الضرغام، وانظر كيف صيرته وهو بتلك الأبهة أحقر من قلامة وأقذر من قمامة.

قامت عليها السلام فقالت: (صدق الله كذلك حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ [الروم: ١٠]، أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وأفاق

السماء فأصبحنا نُساق بين يديك كما تُساق الأسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]؟ أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإمائك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهنّ وأبديت وجوههنّ؟ وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ ثم تقول غير مستعظم ولا متأثم: لأهلّوا واستهلّوا فرحاً، تهتف بأشياخك، زعمت أنك تُناديهم فلتردنّ وشيكاً موردّهم ولتودنّ أنك شللت وبُكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت، حسبك بالله حاكماً وبمحمّد ﷺ خصيماً وبجبرائيل ظهيراً وسيعلم من سؤل لك ومكّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً، وأيكم شرّ مكاناً وأضعف جنداً).

أقول: ألا بحرمة الإنصاف والحقيقة قل لي: أتستطيع ريشة أعظم مصوّر وأبداع ممثّل أن يُمثّل لك حال يزيد وشموخه بأنفه وزهوه بعطفه وسروره وجذله بأنساق الأمور وانتظام الملك ولذة الفتح والظفر والتشفي والانتقام، بأحسن من ذلك التصوير والتمثيل؟ وهل في القدرة والإمكان لأحد أن يدفع خصمه بالمحجّة والبيان والتفريع والتأنيب ويبلغ منه ما بلغته سلام الله عليها بتلك الكلمات، وهي على الحال الذي عرفت؟

ثم لم تقنع منه بذلك حتّى أرادت أن تمثّل له وللحاضرين عنده ذلّة الباطل وعزّة الحقّ، وعدم الاكتراث والمبالاة بالقوّة والسلطة والهيبة والرهبّة، أرادت أن تُعرّفه خسّة قدره وضعة مقداره وشناعة فعله ولؤم فرعه وأصله، وتعالّوها عن حوارهِ وترفّعها عن مخاطبته، فقالت وتعاضمت بحقّ واستطالت: (ولئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك إنّّي لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرّى، ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء).

ثم أرادت أن تُجسّم له عياناً مقام العزّة وموضع الصبر والجلد والثبات والسكينة، أرادت أن تُعرّفه والناس جميل النظر في العاقبة، وأنّ الأمور بعواقبها، والأعمال بخواتمها، أرادت أن تُعرّفه شرف آبائها وإبائها، وأنّ القتل والشهادة ما زادهم إلّا فخاراً، وما جلب لعدوّهم إلّا عاراً وناراً، فقالت وما أبلغ ما قالت: (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تُميت وحيّنا، ولا تُدرِك أمدنا، ولا تُرْحض^(١) عنك عارها، وهل رأيك إلّا فند، وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد؟ يوم ينادي المنادي: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، فالحمد لله الذي ختم لأؤلّنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل^(٢)).

هذا قليل من كثير تلك الخطبة التي هي آية في البلاغة والفصاحة،

(١) أي تغسل، يقال: رحضت يدي وثوبي أرحضه رحضاً: غسلته. (راجع: الصحاح للجوهري ٣: ١٠٧٧ / مادةً رحض).

(٢) راجع: اللهوف: ١٠٥ - ١٠٨، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٣ - ١٣٥.

ومعجزة من معجزات البيان، وهل يختلجك الشكُّ والريب بأنَّ كلَّ فقرة منها كانت على 'يزيد أشدَّ من ألف ضربة؟ وهل تشكُّ أن هذه الخطبة وأمثالها كانت هي الضربة القاضية على ملك يزيد ومعاوية؟ وهل أبقت لهم من باقية؟ وهل يبقى لك شكُّ بعد أن مواقف زينب وأم كلثوم وفاطمة الصغرى ورباب وسكينة في الكوفة والشام، بل في كلِّ موقف ومقام كان لا يقصر إن لم يتفوّق على موقف حماتهنَّ وسراتهنَّ يوم الطفِّ؟ وهل تشكُّ وترتاب في أنَّ الحسين عليه السلام لو قُتل هو وولده ولم يتعقَّبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جباراً، ولم يطلب به أحد ثاراً، ولضاع دمه هدرأً، ولم يكن قتله إلا كقتل عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وأمثالهما ممَّن خمد ذكرهم وصاع وترهم؟

نعم لا يرتاب لبيب عارف بأسباب الثورات وتكوين الانقلابات في الأمم وتبيح الرأي العامَّ أنَّ أقوى سبب لذلك هو الخطابة والسحر البياني الذي يُؤثِّر في العقول ويثير العواطف.

وإذا استحضرت واقعة الطفِّ المفجعة وتواليها تعلم حقاً أنَّه ما قلب الفكرة على بني سفيان وانقرضت دولة يزيد بأسرع زمان إلا من جرّاء تلك الخطب والمقالات التي لم يقدر أيُّ رجل في تلك الأوقات الحرجة والأوضاع الشاذّة على القيام بأدنى شيء منها، فقد تسلسلت الثورات والفتن على يزيد من بعد فاجعة الطفِّ إلى أن هلك، بل ما نهضت جمعيّة التوايين وتلاههم قيام المختار لأخذ الثار إلا من أثر تلك المواقف المشهودة لزينب وأخواتها.

فكانَّ الحسين عليه السلام يعلم أنَّ هذا عمل لا بدَّ منه، وأنَّه لا يقوم به

إلا تلك العقائل، فوجب عليه حتماً أن يحملهنَّ معه، لا لأجل بثِّ المظلومية بسببهنَّ فقط كما شرحناه في الجواب الأوَّل، بل لنظر سياسي وفكر عميق، وهو تكميل الغرض وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد، والمبادرة إلى القضاء عليها، قبل أن تقضي على الإسلام وتعود الناس إلى جاهليتها الأولى، فقد أصبح الدين على عهد يزيد هو دين القروء والفهود، دين الخمر والفجور، والضرب بالعود والطنبور، وأوشك أن يذهب دين محمد ﷺ أدراج الرياح، وتكون نبوته كنبة مسيلمة وسجاح ونظرائه، إذاً فجزى الله تلك الخرائر بحسن صنيعهنَّ عن الإسلام أحسن الجزاء، وكلُّ مسلم مدين بالشكر لهنَّ وللحسين عليه السلام إذا كان مسلماً حقاً ويرى للإسلام حقاً عليه.

* * *

(٧)

توجيهات علمية للحزن على الحسين عليه السلام

إِنَّ فَقْدَ الْأَحَبَّةِ وَمَوْتَ الْأَعَزَّةِ بَاعَثَ بِالْجَبَلَةِ وَالْفَطَرَةِ لِلنَّفُوسِ حَسْرَةً وَلِلْعَيُونِ عِبْرَةً وَلِلْقُلُوبِ حَرْقَةً، تِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَصَبْغَتُهُ فِي عِبَادِهِ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨)، هُوَ يُضْحِكُ وَيُبْكِي، وَلِكُلِّ مَحَلٍّ يَسْتَوْجِبُهُ وَسَبَبٌ يَسْتَدْعِيهِ، فَدَاعِي الْبَكَاءِ هُوَ حُلُولُ الْمَوْلَمِ.

شَرَعَ اللَّهُ الْبَكَاءَ تَخْفِيفاً وَتَسْكِيناً لِلنَّفْسِ، وَهَذَا لَطْفٌ مِنْهُ تَعَالَى، يَسْتَوِي بِهِ الضَّعِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالشَّجَاعُ وَالْجَبَانُ.

الْأَصْلُ الْعَمَلِيُّ يَقْتَضِي إِبَاحَةَ الْبَكَاءِ عَلَى مَطْلَقِ الْمَوْتِ، وَرِثَائِهِمْ بِالْقَرِيضِ، وَتَلَاوَةَ مَنَاقِبِهِمْ وَمَصَائِبِهِمْ، وَالْجُلُوسَ حَزْناً عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْفَاقَ عَنْهُمْ فِي وَجْهِهِ الْبَرِّ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى خِلَافِ هَذَا الْأَصْلِ، بَلِ السَّيْرَةُ الْقَطْعِيَّةُ وَالْأَدْلَةُ اللَّفْظِيَّةُ حَاكِمَانِ بِمَقْتَضَاهُمَا، بَلِ يُسْتَفَادُ مِنْ بَعْضِهَا اسْتِحْبَابُ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِ الْمَزَايَا الْفَاضِلَةِ وَالْآثَارِ النَّافِعَةِ، وَفَقّاً لِقَوَاعِدِ الْمَدَنِيَّةِ وَعَمَلَاءُ بِأُصُولِ الْعِمْرَانِ، لِأَنَّ تَمْيِيزَ الْمَصْلُوحِينَ يَكُونُ سَبَباً فِي تَنْشِيطِ أَمْثَالِهِمْ، وَأَدَاءِ حَقُوقِهِمْ يَكُونُ دَاعِياً إِلَى كَثْرَةِ النَّاسِجِينَ عَلَى مَنَواهِمِ، وَتَلَاوَةِ أَخْبَارِهِمْ تَرْشِدُ الْعَامِلِينَ إِلَى اقْتِفَاءِ آثَارِهِمْ.

وهذا البحث يستدعي مطالب ليسهل المهمّ منه على الطالب الراغب.

المطلب الأول: في البكاء:

ودلينا على ما اخترناه فيه - مضافاً إلى السيرة القطعية - فعل النبي ﷺ وقوله وتقريره.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ متواتر عنه ﷺ في موارد عديدة:

منها يوم أُحُد إذ علم الناس كآفة بكائه يومئذٍ على عمّه أسد الله وأسد رسوله حتّى قال ابن عبد البرّ في ترجمة حمزة من استيعابه: لَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلَمَّا رَأَى ما مُثِّل به شهق، وقال: «رحمك الله يا عم...»^(١).

وذكر الواقدي - كما في أوائل الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة للفاضل المعتزلي -: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يومئذٍ إذا بكت صفية يبكي وإذا نشجت ينشج، وجعلت فاطمة تبكي، فلَمَّا بكت بكى رسول الله ﷺ^(٢).

فهذا الحديث كما تراه قد اشتمل على فعل النبي ﷺ وتقريره، فهو حجة من جهتين. على أن بكاء سيّدة النساء كافٍ كما لا يخفى.

ومنها يوم نعى زيدا وذا الجناحين وابن رواحة فيما أخرجه البخاري في صحيحه في أبواب الجنائز، وذكر ابن عبد البرّ في استيعابه في ترجمة زيد أن النبي ﷺ بكى على جعفر وزيد وقال: «أخوأي ومؤنساي ومحدّثاي»^(٣).

(١) الاستيعاب ١: ٣٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧، عن المغازي للواقدي ١: ٢٩٠.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٦٩ - ١٠١ / باب في الجنائز؛ الاستيعاب ٢: ٥٤٦.

ومنها يوم مات ولده إبراهيم إذ بكى عليه، فقال له عبد الرحمن بن عوف كما في الجزء الثاني من صحيح البخاري: وأنت يا رسول الله؟ قال: «يا ابن عوف إنَّها رحمة» ثمَّ أتبعها - يعني عبرته - بأخرى فقال: «إنَّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلَّا ما يُرضي ربَّنَا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، قوله ﷺ لابن عوف: «إنَّها رحمة» لا يخفى ما في تسميتها بهذا الاسم من الدلالة على حسن البكاء في مثل المقام، وقوله ﷺ: «ولا نقول إلَّا ما يُرضي ربَّنَا» أراد بهذا أنَّ الملامة والإثم في المقام إنَّما يكونان بالقول الذي يُسخط الربَّ ﷻ كالاعتراض عليه والسخط لقضائه لا بمجرد دمع العين وحزن القلب منه^(١).

ومنها يوم ماتت إحدى بناته ﷺ إذ جلس على قبرها - كما في الجزء الثاني من صحيح البخاري - وعيناه تدمعان^(٢).

ومنها يوم مات صبيٌّ لإحدى بناته إذ فاضت عيناه يومئذٍ كما في الصحيحين البخاري في الجزء الأوَّل ومسلم في باب البكاء على الميِّت وغيرهما، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء»، ودلالة استحباب البكاء في قوله: «وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء» في غاية الوضوح^(٣).

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن ابن عمر،

(١) صحيح البخاري ٢: ٨٥ / باب في الجنائز.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٨٠ / باب في الجنائز.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٨٠ / باب في الجنائز، و٧: ٢٢٤ / كتاب الأيمان والنذور، و٨:

١٦٥ / كتاب الوحيد؛ صحيح مسلم ٣: ٣٩ / باب البكاء على الميِّت؛ سنن النسائي ٤:

٢٢؛ سنن البيهقي ٤: ٦٥ / باب الرغبة في أن يتعزَّى... وغيرها من المصادر.

قال: اشتكى سعد فعاده رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه فوجده في غشية، فبكى، قال: فلما رأى القوم بكائه بكوا... الحديث^(١).

والأخبار في ذلك لا تُحصى ولا تُستقصى.

وأما قوله وتقريره فمستفيضان ومواردهما كثيرة:

فمنها ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة جعفر من استيعابه، قال: لما جاء النبي ﷺ نعي جعفر أتى امرأته أسماء بنت عميس فعزّأها، قال: ودخلت فاطمة عليها السلام وهي تبكي وتقول: واعمّاه، فقال رسول الله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك البواكي»^(٢).

وهذا أمر منه ﷺ بالبكاء ندباً على أمثال جعفر من رجال الأمة، وحسبك به حجة على الاستحباب.

ومنها ما ذكره ابن جرير وابن الأثير وصاحب العقد الفريد وجميع أهل السير، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل من حديث ابن عمر في الجزء الثاني من مسنده، قال: رجع رسول الله ﷺ من أحد فجعلت نساء الأنصار يبكين على من قُتل من أزواجهنّ، فقال رسول الله ﷺ: «ولكن حمزة لا بواكي له»، قال: ثمّ نام فاستنبه وهنّ يبكين، قال: فهنّ اليوم إذا بكين يندبن بحمزة»^(٣).

(١) صحيح البخاري ٢: ٨٥ / باب في الجنائز؛ صحيح مسلم ٣: ٤٠ / باب في الصبر على المصيبة.

(٢) الاستيعاب ١: ٢٤٣.

(٣) البداية والنهاية ٤: ٥٥؛ تاريخ الطبري ٢: ٢١٠؛ سنن ابن ماجه ١: ٥٠٧ / باب ما جاء في البكاء على الميت / ح ١٥٩١؛ مستدرک الحاكم ١: ٣٨١، و٣: ١٩٥؛ سنن البيهقي ٤: ٧٠ / باب سياق أخبار تدلّ على جواز البكاء...؛ مسند أحمد ٢: ٤٠؛ وغيرها من المصادر.

وفي ترجمة حمزة من الاستيعاب نقلاً عن الواقدي، قال: لم تبك امرأة من الأنصار على ميت بعد قول رسول الله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له» إلى اليوم إلا بدأن بالبكاء على حمزة^(١).

وحسبك تلك السيرة في رجحان البكاء على من هو كحمزة وإن بعدَ العهد بموته.

ولا تنسَ ما في قوله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له»، من البعث على البكاء والملامة لمنَّ على تركه، وحسبك به وبقوله: «على مثل جعفر فلتبك البواكي» دليلاً على الاستحباب.

وأخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس في الجزء الأول من مسنده من جملة حديث ذكر فيه موت رقية بنت رسول الله ﷺ وبكاء النساء عليها، قال: فجعل عمر يضربهنَّ بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهنَّ يكين»، ثم قال: «مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة»، وقعد ﷺ على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عين فاطمة بثوبه رحمةً لها^(٢).

وأخرج أحمد أيضاً من حديث أبي هريرة في الجزء الثاني من مسنده حديثاً جاء فيه أنه مرَّ على رسول الله ﷺ جنازة معها بواكي، فنهرهنَّ عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «دعهنَّ فإنَّ النفس مصابة وإنَّ العين دامعة»^(٣). إلى غير ذلك ممَّا لا يسعنا استيفاءه.

وقد بكى يعقوب إذ غيَّب الله ولده، ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ

(١) الاستيعاب ١: ٣٧٤.

(٢) مسند أحمد ١: ٢٣٧.

(٣) مسند أحمد ٢: ٢٧٣.

عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» (يوسف: ٨٤)، حَتَّى قِيلَ - كما في تفسير هذه الآية من الكشف -: ما جَفَّتْ عيناه من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرم على الله منه ^(١).

وعن رسول الله ﷺ كما في تفسير هذه الآية من الكشف أيضاً أَنَّهُ سَأَلَ جَبْرَائِيلَ عليه السلام: «ما بلغ وجد يعقوب على يوسف؟»، قال: وَجَدُ سَبْعِينَ ثَكْلِي، قال: «فما كان له من الأجر؟»، قال: أجر مائة شهيد وما ساء ظنّه بالله قط ^(٢). وهذا كالصريح في استحباب البكاء، إذ ليس المستحبُّ إلّا ما يترتب الثواب على فعله كما هو واضح.

فأيُّ عاقل يرغب عن مذهبنا في البكاء بعد ثبوته عن الأنبياء، ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٣٠).

شبهة (أَنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ) وجوابها:

وأما ما جاء في الصحيحين من أَنَّ «الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» ^(٣)، وفي رواية: «ببعض بكاء أهله عليه» ^(٤)، وفي رواية: «ببكاء الحي» ^(٥)، وفي رواية: «يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ» ^(٦)، وفي رواية: «مَنْ يُبْكِ عَلَيْهِ يُعَذَّبُ» ^(٧)، فَإِنَّهُ خَطَأٌ مِنَ الرَّاوي بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ.

(١) تفسير الكشف ٢: ٣٣٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٨٠ و ٨٥ / باب في الجنائز؛ صحيح مسلم ٣: ٤١ - ٤٤ / باب الميّت يعذب ببكاء أهله عليه.

(٤) صحيح البخاري ٢: ٧٩ و ٨١ / باب في الجنائز؛ صحيح مسلم ٣: ٤٣ / باب الميّت يعذب...

(٥) صحيح البخاري ٢: ٨٢ / باب في الجنائز؛ صحيح مسلم ٣: ٤٤ / باب الميّت يعذب...

(٦) صحيح البخاري ٢: ٨٢ / باب في الجنائز؛ صحيح مسلم ٣: ٤١ / باب الميّت يعذب...

(٧) كنز العمال ١٢: ٦٨٨ / ح ٣٦٠٦٥.

قال الفاضل المسعودي عند ذكر هذه الروايات في باب الميّت يُعَذَّب ببكاء أهله عليه من شرح صحيح مسلم: هذه الروايات كلّها من رواية عمر بن الخطّاب وابنه عبد الله، قال: وأنكرت عائشة عليهما ونسبتهما إلى النسيان والاشتباه، واحتجّت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤)^(١).

وأنكر هذه الروايات أيضاً عبد الله بن عباس، واحتجّ على خطأ روايتها^(٢). وما زالت عائشة وعمر في هذه المسألة على طرفي نقيض حتّى أخرج الطبري عند ذكر وفاة أبي بكر في الجزء الثاني من تاريخه في حوادث سنة (١٣) بالإسناد إلى سعيد بن المسيّب، قال: لمّا توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح، فأقبل عمر بن الخطّاب حتّى قام ببابها فنهاهّن عن البكاء على أبي بكر، فأبين أن ينتهين، فقال عمر لهشام بن الوليد: أدخل فأخرج لي ابنة أبي قحافة، فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: إني أخرج عليك بيتي، فقال عمر لهشام: أدخل فقد أذنت لك، فدخل هشام، فأخرج أمّ فروة أخت أبي بكر إلى عمر فعلاها بالدرة فضرها ضربات، فتفرّق النوح حين سمعوا ذلك^(٣).

فيا سبحان الله كأنّه لم يعلم تقرير النبي ﷺ نساء الأنصار على البكاء على موتاهنّ، ولم يبلغه قوله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له»، وقوله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك البواكي»، وقوله ﷺ: «وإنما يرحم من عباده الرّحماء».

(١) شرح مسلم ٦: ٢٢٨ / باب عيادة المرضى.

(٢) المصنّف لابن أبي شيبة ٣: ١٧٠ / ح ٢.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٦١٤.

ولعلّه نسي نبي النبي ﷺ إياه عن ضرب البواكي يوم ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ، ونسي نهيه إياه عن انتهارهنّ في مقام آخر مرّ عليك آنفاً.

ثمّ إذا كان البكاء على الميّت حراماً فلماذا أباح لنساء بني مخزوم أن يبكين على خالد بن الوليد حتّى ذكر محمّد بن سلام كما في ترجمة خالد من الاستيعاب أنّه لم تبق امرأة من بني المغيرة إلّا وضعت لمتها - أي حلقت رأسها - على قبر خالد^(١). وهذا حرام بلا ارتياب.

ويكفي هو على النعمان بن مقرن واضعاً يده على رأسه كما نصّ عليه ابن عبد البرّ في ترجمة النعمان من استيعابه^(٢).

وفي أوائل الجزء الثاني من العقد الفريد، قال: ولما نعي النعمان بن مقرن إلى عمر بن الخطّاب وضع يده على رأسه وصاح: يا أسفا على النعمان.

وبكاؤه على أخيه زيد معلوم بالتواتر^(٣).

المطلب الثاني: في رثاء الميّت بالقريض:

ويظهر من القسطلاني في شرح البخاري أنّ الجماعة يُفصّلون القول فيه فيُحرّمون ما اشتمل منه على مدح الميّت وذكر محاسنه الباعث على تحريك الحزن وتهيج اللوعة ويبيحون ما عدا ذلك^(٤).

(١) الاستيعاب ٢: ٤٣١.

(٢) الاستيعاب ٤: ١٥٠٦ / الرقم ٢٦٢٦.

(٣) العقد الفريد ٣: ٢٣٥.

(٤) إرشاد الساري ٣: ٢٩٨ / باب رثاء النبيّ سعد بن خولي.

والحقُّ إباحته مطلقاً، إذ لا دليل هنا يعدل بنا عن مقتضى الأصل، والنواهي التي يزعمونها أنَّها يستفاد منها الكراهة في موارد مخصوصة، على أنَّها غير صحيحة بلا ارتياب.

وقد رثى آدم عليه السلام ولده هابيل فيما روي^(١)، واستمرت على ذلك ذريته إلى يومنا هذا بلا نكير.

وأقرَّ رسول الله ﷺ أصحابه عليه مع إكثارهم من تهيج الحزن وتفننهم بمدائح الموتى فيه. وتلك مراثيهم منتشرة في كتب الأخبار، فراجع من الاستيعاب إن أردت بعضها أحوال سيّد الشهداء حمزة وعثمان بن مظعون وسعد بن معاذ وشماس بن عثمان بن الشريد والوليد بن الوليد بن المغيرة وأبي خراش الهذلي وأياس بن البكير الليثي وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم^(٢).

ولاحظ من (الإصابة) أحوال ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب وأبي زبيد الطائي وأبي سنان بن حريث المخزومي والأشهب بن رميلة الدارمي وزينب بنت العوّام وعبد الله بن عبد المدان الحارثي وجماعة آخرين لا تحصرني أسماؤهم^(٣).

ودونك كتاب (الدرّة في التعازي والمراثي) وهو في أوّل الجزء

(١) بحار الأنوار ١١: ١١٣/ ح ٣٦؛ كنز العمال ٢: ٤٠٠/ ح ٤٣٥٦.

(٢) الاستيعاب ١: ٣٦٩/ الرقم ٥٤١، و٣: ١٠٥٣/ الرقم ١٧٧٩، و٢: ٦٠٢/ الرقم ٩٥٨، و٢: ٧١٠/ الرقم ١٢٠٣، و٤: ١٥٥٨/ الرقم ٢٧٢٤، و٤: ١٦٣٦/ الرقم ٢٩٢٨، و١: ١٢٤/ الرقم ١٢٢، و٤: ١٨٧٦/ الرقم ٤٠٢٤.

(٣) الإصابة ١: ٥٩٢/ الرقم ١١٦٨، و٧: ١٣٦/ الرقم ٩٩٧١، و٧: ١٦٤/ الرقم ١٠٠٦٧، و١: ٣٤٤/ الرقم ٤٦٧، و٨: ١٦١/ الرقم ١١٢٤٩، و٤: ١٣٧/ الرقم

الثاني من العقد الفريد تجد فيه من مراثي الصحابة ومن بعدهم شيئاً كثيراً، وليس شيء مما أشرنا إليه إلا وقد اشتمل على ما يُسيج الحزن ويُجدد اللوعة بمدح الميت وذكر محاسنه.

ولما توفي رسول الله ﷺ تنافست فضلاء الصحابة في رثائه، فرثته سيّدة النساء فاطمة عليها السلام بأبيات تُهيج الأحزان.

ذكر القسطلاني في جزئه الثالث من إرشاد الساري في باب رثي النبي ﷺ بيتين منها، وهما قولها عليها السلام:

ماذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غاليا
صبت عليّ مصائب لو أنّها صبت على الأيام صرن لياليا^(١)

ورثته أيضاً بأبيات تثير لواعج الأشجان، ذكر ابن عبد ربّه المالكي بيتين منها في أوائل الجزء الثاني من العقد الفريد^(٢)، وهما:

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لِمَا نعيم وحالت دونك الكذب

ورثته عمّته صفية بقصيدة يائية ذكر ابن عبد البرّ في أحوال النبي ﷺ من استيعابه جملة منها^(٣).

ورثاه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بقصيدة لامية ذكر بعضها صاحباً الاستيعاب والإصابة في ترجمة أبي سفيان المذكور^(٤).

(١) روضة الواعظين: ٧٥؛ نظم درر السمطين: ١٨١.

(٢) العقد الفريد ٣: ١٩٤.

(٣) الاستيعاب ١: ٤٩.

(٤) الاستيعاب ٤: ١٦٧٣ / الرقم ٣٠٠٢؛ الإصابة ٧: ١٥١ / الرقم ١٠٠٢٨.

ورثاه أبو ذؤيب الهذلي كما يُعلم من ترجمته في الاستيعاب والإصابة بقصيدة حائية^(١).

ورثاه أبو الهيثم ابن التيهان بقصيدة دالية أشار إليها ابن حجر في ترجمة ابن الهيثم من إصابته^(٢).

ورثته أمُّ رعدة القشيرية بقصيدة رائية أشار إليها العسقلاني في ترجمة أمُّ رعدة من إصابته^(٣).

ورثاه عامر بن الطفيل بن الحرث الأزدي بقصيدة جيمية أشار إليها ابن حجر في ترجمة عامر من الإصابة^(٤).

ومن استوعب الاستيعاب وتصفَّح الإصابة وأسد الغابة ومارس كتب الأخبار يجد من مراثيهم المشتملة على تهيج الحزن بذكر محاسن الموتى شيئاً يتجاوز حدَّ الإحصاء.

وقد أكثرت الخنساء وهي صحابية من رثاء أخويها صخر ومعاوية وهما كافران، وأبدعت في مدائح صخر وأهاجت عليه لواعج الحزن، فما أنكر عليها منكر^(٥).

وأكثر أيضاً متمم بن نويرة من تهيج الحزن على أخيه مالك في مرثيته السائرة حتَّى وقف مرّة في المسجد وهو غاص بالصحابة أمام أبي بكر بعد صلاة الصبح واتَّكأ على سيِّة قوسه فأنشد:

(١) الاستيعاب ٤: ١٦٤٨ / الرقم ٢٩٤٢؛ الإصابة ٧: ١١٠ / الرقم ٩٨٨١.

(٢) الإصابة ٧: ٣٦٥ / الرقم ١٠٦٨٩.

(٣) الإصابة ٨: ٣٩٠ / الرقم ١٢٠٢٥.

(٤) الإصابة ٣: ٤٧٣ / الرقم ٤٤١٤.

(٥) الإصابة ٨: ١٠٩ / الرقم ١١١١٢.

نعم القتيل إذ الرياح تناوحت خلف البيوت قتلت يا ابن الأزوري
ثمّ أوماً إلى أبي بكر كما في ترجمة وثيمة بن موسى بن الفرات من
وفيات ابن خلّكان، فقال مخاطباً له:

أدعوتـه بالله ثمّ غدرته لو هو دعاك بذمّة لم يغدر
فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا غدرته، ثمّ قال:

ولنعم حشو الدرع كان وحاسراً ولنعم مأوى الطارق المتنوّر
لا يمسك الفحشاء تحت ثيابه حلوشائه عفيف المأزر
وبكى حتّى انحطّ عن سيّة قوسه، قالوا: فما زال يبكي حتّى دمعت عينه
العوراء، فما أنكر عليه في بكائه ولا في رثائه منكر، بل قال له عمر كما في ترجمة
وثيمة من الوفيات: لوددت أنّك رثيت زيدا أخي بمثل ما رثيت به مالكا أخاك،
فرثي متّم بعدها زيد بن الخطّاب فما أجاد، فقال له عمر: لِمَ لم ترث زيدا كما
رثيت مالكا؟ فقال: إنّّه والله ليحرّكني لمالك ما لا يُحرّكني لزيد^(١).

فاستحسن الصحابة ومن تأخّر عنهم مراثيهم في مالك، وكانوا
يتمثّلون بها، كما اتّفق ذلك من عائشة، إذ وقفت على أخيها عبد الرحمن
كما في ترجمته من الاستيعاب، فبكت عليه وتمثّلت:

وكنا كندماني جُذيمة حقبة من الدهر حتّى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرّقنا كآني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا^(٢)
وما زال الرثاء فاشياً بين المسلمين وغيرهم في كلّ عصر ومصر
لا يتناكرونه مطلقاً.

(١) وفيات الأعيان ٦: ١٥ / الرقم ٢٩٥.

(٢) الاستيعاب ٢: ٨٢٤ / الرقم ١٣٩٤.

المطلب الثالث: في تلاوة الأحاديث المشتملة على مناقب الميِّت ومصائبه:

كما كانت عليه سيرة السلف وفعلته عائشة، إذ وقفت على قبر أبيها باكية فقالت: كنت للدنيا مذلاًّ بإدبارك عنها، وكنت للآخرة معزاً بإقبالك عليها، وكان أجَلُ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك^(١).

وفعله محمد بن الحنفية عليه السلام، إذ وقف على قبر أخيه المجتبي عليه السلام فخنقته العبرة - كما في أوائل الجزء الثاني من العقد الفريد ^(٣) -، ثم نطق فقال: يرحمك الله أبا محمد، فلئن عزت حياتك فقد هدت وفاتك، ولنعم الروح روح ضمّ بدنك ولنعم البدن ضمّه كفنك، وكيف لا تكون كذلك وأنت بقيّة ولد الأنبياء وسليل الهدى وخامس أصحاب الكساء، غدتك أكفّ الحقّ، وربيت في حجر الإسلام، فطبت حيّاً وطبت ميتاً، وإن كانت أنفسنا غير طيّبة بفراقك ولا شاكّة في الخيار لك... الخ. ثم بكى بكاءً شديداً، وبكى الحاضرون حتّى علا نسيجهم.

ووقف أمير المؤمنين عليه السلام على قبر خبّاب بن الأرت في ظهر الكوفة، وهو أوّل من دُفِنَ هناك كما نصَّ عليه ابن الأثير في آخر تنمّة صفين، فقال: «رحم الله خبّاباً لقد أسلم راغباً وجاهد طائعاً وعاش مجاهداً وابتلي في جسمه أحوالاً ولن يُضَيِّعَ الله أجر من أحسن عملاً»^(٣).

ولمّا توفي أمير المؤمنين عليه السلام قام الخلف من بعده أبو محمّد الحسن

(١) تاريخ مدينة دمشق ٣٠: ٤٤٣.

(٢) العقد الفريد ٢: ٧٨.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٣٢٤.

٩٠ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

الزكي عليه السلام خطيباً فقال - كما في حوادث سنة (٤٠) من تاريخ ابن جرير وابن الأثير وغيرهما -: «لقد قتلتم الليلة رجلاً والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده، إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السرية وجبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء...» الخ^(١).

ووقف الإمام زين العابدين عليه السلام على قبر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «أشهد أنّك جاهدت في الله حقّ جهاده، وعملت بكتابيه، وأتبع سنن نبيّه ﷺ، حتّى دعاك الله إلى جواره، فقبضك إليه باختياره لك كريم ثوابه، وألزم أعداك الحجّة مع ما لك من الحجج البالغة على جميع خلقه»^(٢).

وعن أنس بن مالك - كما في العقد الفريد وغيره - قال: لمّا فرغنا من دفن رسول الله ﷺ بكت فاطمة عليها السلام ونادت: «يا أبتاه أجاوب ربّاً دعاه، يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه»^(٣).

ولو أردنا أن نستوفي ما كان من هذا القبيل لخرجنا عن الغرض المقصود، وحاصله أن تأييد الموتى من أهل الآثار النافعة بنشر مناقبهم وذكر مصائبهم ممّا حكم بحسنه العقل والنقل، واستمرت عليه سيرة السلف والخلف، وأوجبته قواعد المديّة، واقتضته أصول الترقّي في

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٢١؛ الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٠؛ البداية والنهاية ٧: ٣٦٨؛ وغيرها من المصادر.

(٢) إقبال الأعمال ٢: ٢٧٣.

(٣) العقد الفريد ٣: ٢٣؛ مستدرک الحاكم ١: ٣٨٢ / باب البكاء على الميت؛ صحيح البخاري ٥: ١٤٤ / باب مرض النبي ﷺ ووفاته، باختلاف يسير.

المعارف، إذ به تُحَفَظ الآثار النافعة، وبالتنافس فيه تعرج الخطباء إلى أوج البلاغة.

والقول بتحريمه يستلزم تحريمه قراءة التاريخ وعلم الرجال، بل يستوجب المنع من تلاوة الكتاب والسُّنَّة، لاشتغالها على جملة من مناقب الأنبياء ومصائبهم، ومن يرضى لنفسه هذا الحمق أو يختار لها هذا العمى؟ نعوذ بالله من سفه الجاهلين.

المطلب الرابع: في الجلوس حزناً على الموتى من أهل الحفائظ والأأيادي المشكورة:

وحسبك في رجحان ذلك ما تواتر عن رسول الله ﷺ من الحزن الشديد على عمِّه أبي طالب وزوجته الصديقة الكبرى أم المؤمنين خديجة عليها السلام، وقد ماتا في عام واحد، فسُمِّي: عام الحزن، وهذا معلوم بالضرورة من أخبار الماضين.

وأخرج البخاري في باب من جلس عند المصيبة يُعرَف فيه الحزن من الجزء الثاني من صحيحه بالإسناد إلى عائشة، قالت: لَمَّا جاء النبي ﷺ قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس - أي في المسجد كما في رواية أبي داود - يُعرَف فيه الحزن^(١).

وأخرج البخاري في الباب المذكور أيضاً عن أنس، قال: قَتَلَ رسول الله ﷺ شهراً حين قُتِلَ القرءاء، فما رأيتُه حزن حزناً قطَّ أشدَّ منه... الحديث^(٢).

(١) صحيح البخاري ٢: ٨٣ / باب في الجنائز؛ سنن أبي داود ٢: ٦٣ / ح ٣١٢٢.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٨٤ / باب في الجنائز.

والأخبار في ذلك أكثر من أن تُحصى أو تُستقصى.

والقول بأنّه إنّما يحسن ترتيب آثار الحزن إذا لم يتقدم العهد بالمصيبة مدفوع بأنّ من الفجائع ما لا تحبوز فرتها ولا تحمد لوعتها، فقرب العهد بها وبعده عنها سواء. نعم يتم قول هؤلاء اللائمين إذا تلاشى الحزن بمرور الأزمنة، ولم يكن دليل ولا مصلحة يوجبان التبعّد بترتيب آثاره. وما أحسن قول القائل في هذا المقام:

خلّي أُميمة عن ملامِك	ما المعزّي كالشكول
ما الراقد الوسنان مثل	معدّب القلب العليل
سهران من ألم وهذا	نائم الليل الطويل
ذوقِي أُميمة ما أذوق	وبعده ما شئتِ قولي

على أنّ ترتيب آثار الحزن بما أصاب رسول الله ﷺ من تلك الفجائع وحلّ بساحته من هاتيك القوارع حكماً توجب التبعّد بترتيب آثار الحزن بسببها على كلّ حال، والأدلة على ترتيب تلك الآثار في جميع الأعصار متوفّرة، وستسمع اليسير منها إن شاء الله في غير هذا البحث.

وقد علمت سيرة أهل المدينة الطيّبة واستمرارها على ندب حمزة وبكائها مع بُعد العهد بمصيبته، فلم ينكر عليهم في ذلك أحد، حتّى بلغني أنّهم لا يزالون إلى الآن إذا ناحوا على ميّت بدؤوا بالنياحة عليه، وما ذاك إلّا مواساةً لرسول الله ﷺ بمصيبته في عمّه، وأداءً لحقّ تلك الكلمة التي قالها في البعث على البكاء عليه، وهو قوله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له».

وكان الأولى لهم ولسائر المسلمين مواساته في الحزن على أهل بيته والاعتداء به في البكاء عليهم، وقد لام بعض أهل البيت عليه من لم

يواسهم في ذلك فقال: فيا لله لقلب لا ينصدع لتذكّار تلك الأمور، ويا عجباً من غفلة أهل الدهور، وما عذر أهل الإسلام والإيمان في إضاعة أقسام الأحزان؟ ألم يعلموا أنّ محمّداً ﷺ متورّ وجيعٌ، وحبّيه مقهورٌ صريعٌ؟ وقد أصبح لحمه مجرّداً على الرمال، ودمه الشريف مسفوكةً بسيوف أهل الضلال، فيا ليت لفاطمة وأبيها عيناً تنظر إلى بناتها وبنيتها وهم ما بين مسلوب وجريح ومسحوب وذبيح^(١).

* * *

(٨)

فصل ووصل

(عقد المآتم على الحسين عليه السلام)

كُلُّ مَنْ وَقَفَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا وَجْهَ لِلْإِنْكَارِ عَلَيْنَا فِي مَا تَمَنَّا الْمُخْتَصَّةَ بِسَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عليه السلام، ضَرُورَةُ أَنَّهَا لَا تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى تِلْكَ الْمَطَالِبِ، وَقَدْ عَرَفْتَ إِبَاحَتَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُطْلَقِ الْمَوْتَى مِنْ كَافَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَنْكَرُونَ مَا تَمَّ انْعَقَدَتْ لِمَوَاسَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأُسِّسَتْ عَلَى الْحُزْنِ لِحُزْنِهِ؟ أَيْبَكِي بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي قَبْلَ الْفَاجِعَةِ وَنَحْنُ لَا نَبْكِي بَعْدَهَا؟ مَا هَذَا شَأْنُ الْمَتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ وَالْمُقْتَصِّصَ لِأَثَرِهِ، إِنْ هَذَا إِلَّا خُرُوجٌ عَنْ قَوَاعِدِ الْمَتَأَسِّينَ، بَلْ عَدُولٌ عَنْ سَنَنِ النَّبِيِّينَ.

أَلَمْ يَرَوْا الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ عليه السلام مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ مَسْنَدِهِ بِالْإِسْنَادِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَجَا عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَارَ مَعَ عَلِيِّ عليه السلام فَلَمَّا حَازَى نَيْنَوَى وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى صَفِّينَ نَادَى: «صَبْرًا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، صَبْرًا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بِشَطِّ الْفِرَاتِ»، قَالَ: قُلْتَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانُ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا شَأْنُ عَيْنِكَ تَفِيضَانُ؟ قَالَ: قَامَ مِنْ عِنْدِي جَبْرِئِيلُ قَبْلُ فَحَدَّثَنِي أَنَّ وَلَدِي الْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بِشَطِّ الْفِرَاتِ، قَالَ: فَقَالَ: هَلْ لَكَ إِلَيَّ أَنْ أُشَمِّكَ مِنْ تَرْبَتِهِ؟ قَالَ:

قلت: نعم، فمدَّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا... الخ^(١).

وأخرج ابن سعد كما في الفصل الثالث من الباب الحادي عشر من الصواعق المحرقة لابن حجر عن الشعبي، قال: مرَّ علي عليه السلام بكرلاء عند مسيره إلى صفّين، وحاذى نينوى، فوقف وسأل عن اسم الأرض، فقيل: كربلاء، فبكى حتّى بلّ الأرض من دموعه، ثمّ قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت: ما يبكيك بأبي أنت وأمي؟ قال: كان عندي جبرائيل آنفاً وأخبرني أنّ ولدي الحسين عليه السلام يُقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له: كربلاء...» الحديث^(٢).

وأخرج الملا - كما في الصواعق أيضاً - أنّ علياً مرَّ بموضع قبر الحسين عليه السلام فقال: «هاهنا مناخ ركا بهم، وهاهنا موضع رحالهم، وهاهنا مهراق دمائهم، فتيّة من آل محمّد يُقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض...» الخ^(٣).

ومن حديث أمّ سلّمة - كما نصّ عليه ابن عبد ربّه المالكي حيث ذكر مقتل الحسين في الجزء الثاني من العقد الفريد -، قالت: كان عندي النبي ﷺ ومعى الحسين عليه السلام، فدنا من النبي ﷺ فأخذته فبكي فتركته فدنا منه فأخذته فبكى فتركته، فقال له جبرائيل: «أُحِبُّهُ يا محمّد؟»، قال: «نعم»، قال: «أما إنَّ أُمّتك ستقتله، وإن شئت أريتك الأرض التي يُقتل بها»، فبكى النبي ﷺ^(٤).

(١) مسند أحمد ١: ٨٥.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٩٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) العقد الفريد ٥: ١٣٢.

وروى الماوردي الشافعي في باب إنذار النبي ﷺ بما سيحدث بعده من كتابه (أعلام النبوة) عن عروة، عن عائشة، قالت: دخل الحسين بن علي على رسول الله وهو يُوحى إليه، فقال جبرائيل: «إِنَّ أُمَّتَكَ سَتُقْتَلَنَّ بِعَدِّكَ وَتَقْتُلُ ابْنَكَ هَذَا مِنْ بَعْدِكَ»، ومدَّ يده فأثاه بترية بيضاء، وقال: «في هذه يُقْتَلُ ابْنُكَ اسْمُهَا الطِفُّ»، قال: فلماً ذهب جبرائيل خرج رسول الله ﷺ إلى أصحابه والتربة بيده وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وحذيفة وعمار وأبو ذر، وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: «أخبرني جبرائيل أَنَّ ابْنِي الْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بِعَدِي بِأَرْضِ الطِفِّ، وجاءني بهذه التربة، فأخبرني أَنَّ فِيهَا مُضْجِعَهُ...» الخ^(١).

وأخرج الترمذي - كما في الصواعق وغيرها - أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَأَتْ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمَ بَاكِئاً وَبِرَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ التَّرَابَ فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ: «قُتِلَ الْحُسَيْنُ أَنْفًا»^(٢).

قال في (الصواعق): (وكذلك رآه ابن عباس نصف النهار أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم يلتقطه فسأله فقال: «دم الحسين وأصحابه لم أزل أتبعه منذ اليوم»، قال: فنظروا فوجدوه قد قُتِلَ في ذلك اليوم)^(٣).

بكاء النبي ﷺ على الحسين عليه السلام:

وأما صحاحنا فإنها متواترة في بكائه ﷺ على الحسين عليه السلام في

(١) أعلام النبوة: ٨٣.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٣٢٣/ ح ٣٨٦٠؛ الصواعق المحرقة: ١٩٣؛ مستدرک الحاکم ٤:

١٩؛ المعجم الكبير للطبراني ٢٣: ٣٧٣؛ التاريخ الكبير للبخاري ٣: ٣٢٤؛ وغيرها من

المصادر.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٩٣.

مقامات عديدة يوم ولادته وقبلها ويوم السابع من مولده وبعده في بيت فاطمة وفي حجرته وعلى منبره وفي بعض أسفاره.

تارة يبكيه وحده، ومرة هو والملائكة، وأحياناً هو وعلي وفاطمة، وربما بكاه هو وأصحابه، وكان يُقبّله في نحره ويبكي، ويُقبّله في شفّتيه ويبكي، وإذا رآه فرحاً يبكي، وإذا رآه حزيناً يبكي.

بل صحَّ أنه قد بكاه آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وزكريا ويحيى والخضر وسليمان عليهم السلام، وتفصيل ذلك كله موكول إلى مظانّه من كتب الحديث.

بكاء أهل البيت عليهم السلام على الحسين عليه السلام:

وأما أئمة العترة الطاهرة الذين هم كسفينة نوح وباب حطة، وأمان أهل الأرض، وأحد الثقلين اللذين لا يضلُّ من تمسَّك بهما، ولا يهتدي إلى الله من صدَّ عنها، فقد استمرَّت سيرتهم على الندب والعويل، وأمروا أوليائهم بإقامة مآتم الحزن جيلاً بعد جيل.

فعن الصادق عليه السلام فيما رواه ابن قولويه في الكامل وابن شهر آشوب في المناقب وغيرهما أن علي بن الحسين عليهما السلام بكى على أبيه مدة حياته، وما وُضِعَ بين يديه طعام إلا بكى، ولا أُتِيَ بشراب إلا بكى، حتّى قال له بعض مواليه: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، إنّي أخاف أن تكون من الهالكين، قال عليه السلام: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [يوسف: ٨٦] ^(١).

(١) كامل الزيارات: ٢١٣ / باب ٣٥ / ح (٣٠٦ / ١)؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٣ / باب إمامة علي بن الحسين؛ أمالي الصدوق: ٢٠٤؛ الخصال: ٢٧٣؛ وغيرها من المصادر.

وروى ابن قولويه وابن شهر آشوب أيضاً وغيرهما أنه لما كثر بكاءه قال له مولاه: أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال: «ويحك إن يعقوب (عليه السلام) كان له اثنا عشر ولداً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وابنه حي في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعموتي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني؟»^(١).

وقال الرضا (عليه السلام) وهو الثامن من أئمة الهدى (عليه السلام): «إن المحرم شهر كان أهل الجاهلية يُحرّمون فيه القتال، فاستُحلت فيه دماؤنا، وهُتكت فيه حرمتنا، وسُييت فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضمرت فيه النار في مضاربنا، وانتُهب ما فيها من ثقلنا، ولم تُرغ لرسول الله (ﷺ) حرمة في أمرنا. إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا. فعلى مثل الحسين فليكن الباكون، فإن البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام»، ثم قال (عليه السلام): «كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبيته وحزنه وبكائه»^(٢).

وقال (عليه السلام): «من تذكّر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يُحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»^(٣).

(١) كامل الزيارات: ٢١٣/ باب ٣٥/ ح (٢/٣٠٧) باختلاف؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٣/

باب إمامة علي بن الحسين؛ الخصال: ٥١٨ و ٥١٩؛ اللهوف: ١٢٢؛ وغيرها من المصادر.

(٢) أمالي الصدوق: ١٩١؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٨؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣/ ح ١٧.

(٣) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ٢: ٢٦٤/ ح ٤٨؛ بحار الأنوار ١: ٢٠٠/ ح ٦.

وعن الريّان بن شبيب - فيما أخرجه الشيخ الصدوق في العيون - قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرم فقال لي: «يا ابن شبيب إنّ المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية يُحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأُمة حرمة شهرها ولا حرمة نبيّها ﷺ، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريّته، وسبوا نساءه، وانهبوا ثقله. يا ابن شبيب، إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين عليه السلام، فإنّه ذُبِحَ كما يُذْبَح الكبش، وقُتِلَ معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض من شبيه، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله...»، إلى أن قال: «يا ابن شبيب، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العُلى فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا...» الحديث ^(١).

وبكى عليه السلام إذ أنشده دعبل بن علي الخزاعي قصيدته التائية السائرة حتّى أغمي عليه في أثنائها مرّتين، كما نصّ عليه الفاضل العباسي في ترجمة دعبل من (معاهد التنصيص) وغيره من أهل الأخبار ^(٢).
وفي البحار أنّه عليه السلام أمر قبل إنشادها بستر فضرب دون عقائله، فجلسن خلفه يسمعن الرثاء ويبكين على جدّهنّ سيّد الشهداء، وأنّه قال يومئذٍ: «يا دعبل من بكى أو أبكى على مصابنا ولو واحداً كان أجره على الله» ^(٣).

وحدّث محمّد بن سهل - كما في ترجمة الكميّ من معاهد التنصيص -، قال: دخلت مع الكميّ على أبي عبد الله الصادق عليه السلام في

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٨ و ٢٦٩ / ح ٥٨.

(٢) معاهد التنصيص ٢: ١٩٠.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٢٧٥ / ح ١٥.

أيام التشريق فقال له: جُعلت فداك ألا أنشدك؟ قال: «إنَّها أيام عظام»، قال: «إنَّها فيكم»، قال: «هات»، وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقُرب، فأنشده في رثاء جدِّه الحسين عليه السلام، فكثر البكاء حتَّى أتى على هذا البيت:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم فيا آخراً أسدئ له الغيَّ أول
قال: فرفع أبو عبد الله يديه فقال: «اللَّهم اغفر للكميت ما قدَّم وما أخَّر وما أسرَّ وما أعلن، واعطه حتَّى يرضى»^(١).

وروى الصدوق في الأمالي وثواب الأعمال وابن قولويه بأسانيد معتبرة عن أبي عمارة، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا عمارة، أنشدني في الحسين»، فأنشدته فبكى، ثمَّ أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت أنشده وهو يبكي حتَّى سمعت البكاء من الدار»^(٢).

وروى الصدوق أيضاً في ثواب الأعمال بالإسناد إلى هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقال لي: «يا أبا هارون أنشدني في الحسين عليه السلام»، فأنشدته فقال لي: «أنشدني كما ينشدون» يعني بالرقَّة، قال: فأنشدته:

أمرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكيَّه

قال: فبكى، ثمَّ قال: «زدني»، فأنشدته القصيدة الأخرى، قال: فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر»^(٣).

(١) معاهد التنصيص ٣: ٩٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٠٥/ ح (٦/٢٢٢)؛ ثواب الأعمال: ٨٤؛ كامل الزيارات: ٢٠٩/

باب ٣٣/ ح (٢/٢٩٨).

(٣) ثواب الأعمال: ٨٣.

وروى الكشي بسند معتبر عن زيد الشحام، قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام، فدخل جعفر بن عثمان، فقرّبه وأدناه، ثم قال: «يا جعفر»، قال: لبيك جعلني الله فداك، قال: «بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين عليه السلام وتجيد»، فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال: «قل»، فأنشدته فبكى ومن حوله حتّى صارت الدموع على وجهه ولحيته، ثم قال: «يا جعفر، والله لقد شهدك ملائكة الله المقرّبون ها هنا يسمعون قولك في الحسين، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر...»، إلى أن قال: «ما من أحد قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى به إلّا أوجب الله له الجنة وغفر له»^(١).

إلى غير ذلك من صحاح الأخبار المتواترة عن أئمة الأبرار، وناهيك بها حجّة على رجحان هذه المآثم واستحبابها شرعاً، فإنّ أقوال أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام وأفعالهم وتقديرهم حجّة بالغة، لوجوب عصمتهم بحكم العقل والنقل، كما هو مقرّر في مظانّه من كتب المتكلّمين من أصحابنا.

على أنّ الاقتداء بهم في هذه المآثم وغيرها لا يتوقّف عند الخصم على عصمتهم، بل يكفينا فيه ما اتّفقت عليه الكلمة من إمامتهم في الفتوى، وأنهم في أنفسهم لا يقصرون عن الفقهاء الأربعة والثوري والأوزاعي وأضرابهم علماً ولا عملاً. وأنت تعلم أنّ هذه المآثم لو ثبتت عن أبي حنيفة أو صاحبيه أبي يوسف والشيّابي مثلاً لاستبق الخصم إليها وعكف أيام حياته عليها، فلماذا ينكرها علينا ويُندّد بها بعد ثبوتها عن أئمة أهل البيت يا منصفون؟ أترأه يرى في أئمة الثقلين أمراً يقتضي الإعراض عنهم، أو يجد فيهم شيئاً يستوجب الإنكار على الآخذين

بمذهبهم، أو أن هناك أدلة خاصة تقصر الإمامة في الفتوى على أئمة خصومنا ولا تبيح الرجوع إلى غيرهم؟ كلاً إن واقع الأمر وحقيقة الحال بالعكس.

حديث الثقلين ومرجعية أهل البيت عليهم السلام:

هذا حديث الثقلين المجمع على صحته واستفاضته قد أنزل العترة منزلة الكتاب، وجعلها قدوة لأولي الألباب، فراجعه في باب فضائل علي من صحيح مسلم، أو في الجمع بين الصحيحين، أو في الجمع بين الصحاح الستة، أو في حديث أبي سعيد الخدري من مسند أحمد بن حنبل، أو خصائص علي للإمام النسائي، أو في تفسير الثعلبي والبيهقي، أو في حلية الحافظ الأصفهاني، أو في كتب الحاكم الطبراني، وغيرها من كتب الحديث^(١).

وأنا أوردته لك بلفظ الترمذي بحذف الإسناد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، الثقلين أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيها»^(٢).

(١) راجع: صحيح مسلم ٤: ٤١ / باب حجة النبي ﷺ ...؛ مسند أحمد ٣: ١٤؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: ٩٣؛ تفسير الثعلبي ٣: ١٦٣؛ سنن البيهقي ٥: ٨، و٩: ٢٠٦، و١٠: ١١٤؛ المعجم الأوسط ٣: ٣٧٤، و٣٣: ٣٣؛ المعجم الصغير ١: ١٣١؛ والمعجم الكبير ٣: ٦٥، و٥: ١٥٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦؛ كنز العمال ١: ١٧٢ و١٧٣ / ٨٧٢ و٨٧٣؛ وغيرها من المصادر.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ / ح ٣٨٧٦.

زاد الطبراني: «فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تُقَصِّروا عنهما فتهلكوا، ولا تُعَلِّموهم فإنَّهم أعلم منكم»^(١).

لا يخفى أنَّ تعليق عدم الضلال على التمسك بهما يقتضي بحكم المفهوم ثبوت الضلال لمن تخلَّى عن أحدهما، وناهيك به في وجوب اتِّباع العترة والانقطاع في الدين إليها وإلى القرآن العزيز.

على أنَّ اقترانهم بالكتاب - وهو معصوم -، وجعلهم في وجوب التمسك بهم مثله، دليل قاطع على حجِّية أقوالهم وأفعالهم، وأنَّ الرجوع في الدين إلى خلافهم ليس إلَّا كترك القرآن، والقرآن يُفَرِّغ عنه.

ثمَّ إنَّ قوله: «فلا تقدموهم فتهلكوا، ولا تُقَصِّروا عنهم فتهلكوا، ولا تُعَلِّموهم فإنَّهم أعلم منكم»، نصٌّ صريح فيما قلناه كما لا يخفى.

حديث أهل بيتي أمان:

وكم لهذا الحديث من نظير في الدلالة على وجوب الاقتداء بالعترة الطاهرة والمنع من مخالفتها، وحسبك منه ما أخرجه الحاكم بسند صحَّحه على شرط البخاري ومسلم كما في تفسير الآية السابعة من الآيات التي أوردها ابن حجر في الفصل الأوَّل من الباب الحادي عشر من صواعقه، ونقله حاكماً بصحَّته أيضاً في باب الأمان بيقائهم من أواخر الصواعق، عن رسول الله ﷺ قال من جملة حديث: «وأهل بيتي أمان لأُمَّتِي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب» في بعض أحكام الدين «اختلفوا» في فتاويهم «فصاروا حزب إبليس...»^(٢).

(١) المعجم الكبير ٥: ١٦٧.

(٢) مستدرک الحاكم ٣: ١٤٩؛ الصواعق المحرقة: ١٥٢ و ٢٣٦.

أليس هذا نصّاً في وجوب اتّباعهم وحرمة مخالفتهم؟ وهل في لغة العرب أو غيرها عبارة أبلغ منه في إنذار مخالفيهم؟

وأخرج أحمد بن حنبل وغيره كما نصّ عليه ابن حجر في باب الأمان ببقائهم من صواعقه بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، قال: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت ذهبوا، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»، وفي رواية: «فإذا هلك أهل بيتي جاء أهل الأرض من الآيات ما كانوا يوعدون»^(١).

وفي هذا المعنى صحاح متضافرة من طريق العترة الطاهرة^(٢)، ومتى كانوا أماناً لأهل الأرض فكيف يُستبدل بهم؟ وأنّى يُعدّل عنهم؟

حديث أهل بيتي كسفينة نوح:

وجاء من طرق عديدة يُقوّي بعضها بعضاً - كذا قال ابن حجر في تفسير الآية السابعة من الآيات التي أوردتها في الفصل الأوّل من الباب الحادي عشر من صواعقه -، وفي باب الأمان ببقائهم من أواخر الصواعق أيضاً أنّه ﷺ قال: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا». قال ابن حجر: وفي رواية مسلم: «ومن تخلّف عنها غرق»، قال: وفي رواية: «هلك، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غُفِرَ له»، قال: وفي رواية: «غفر له الذنوب...»^(٣).

(١) الصواعق المحرقة: ٢٣٥.

(٢) علل الشرائع ١: ١٢٣ / باب ١٠٣ / ح ١؛ كمال الدين: ٢٠٥ / باب ٢١ / ح ١٩؛ الطرائف: ١٣١ / ح ٢٠٥؛ بحار الأنوار ٢٣: ١٩ / ح ١٤؛ وغيرها من المصادر.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٥٢ و ٢٣٦.

ولا يخفى أن المراد من تمثيلهم بسفينة نوح إنما هو إلزام الأمة باتباع طريقتهم، والتمسك بالعروة الوثقى من ولايتهم، وليس المراد من النجاة بذلك إلا رضوان الله تعالى والجنة، كما أن المراد بغرق المتخلفين عنهم أو هلاكهم إنما هو سخط الله سبحانه والنار. والمراد من تمثيلهم بباب حطّة إنما هو بعث الأمة على التواضع لله تعالى بالاعتداء بهم والاستسلام لأوامرهم ونواهيهم. وهذا كله ظاهر كما ترى، قال ابن حجر بعد إيراد هذه الأحاديث في تفسير الآية السابعة من الآيات التي أوردها في الفصل الأوّل من الباب الحادي عشر من الصواعق ما هذا لفظه: (ووجه تشبيههم بالسفينة فيما مرّ أنّ من أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرفهم عليه السلام وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم وهلك في مفاوز الطغيان...)، إلى أن قال: (وباب حطّة - يعني ووجه تشبيههم بباب حطّة - أن الله تعالى جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحاء أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة، وجعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سبباً لها...) إلى آخر كلامه^(١).

ولو أردنا استيفاء ما جاء من صحاح السُنّة في وجوب اتباع أئمة أهل البيت، والانقطاع في الدين إليهم عن العالمين، لطال المقام وخرجنا عن موضوع هذه المقدّمة.

وحاصله أن مآتماً بما فيها من الجلوس بعنوان الحزن على مصائب أهل البيت، والإنفاق عنهم في وجوه البرّ، وتلاوة رثائهم ومناقبهم،

والبكاء رحمةً لهم، سيرة قطعية قد استمرت عليها أئمة الهدى من أهل البيت، وأمروا أوليائهم على مرّ الليالي والأيام، فورثناها منهم وثابرونا عليها عملاً بما هو المأثور عنهم، فكيف والحال هذه تنكرونها علينا وتقولون فيها ما تقولون؟ والله يعلم أنّها ليست كما تظنون.

فهل بعد هذا كلّه تقول: إنّ البكاء على مصائب أهل البيت بدعة، وهب أنّك لا ترجو شفاعَةَ الزهراء، ولا تبكي لبكاء الأنبياء والأوصياء، فابكِ لبكاء الشمس والقمر، ولا يكن قلبك أقسى من الحجر، ابكِ لبكاء عمر بن سعد أو عمرو بن الحجاج والأخنس بن زيد ويزيد بن معاوية أو خولي والسالب لحيّ فاطمة بنت الحسين، ابكِ لبكاء العسكر بأجمعه، فقد شهدت كتب السير ببكائهم مع خبث أمّهاتهم وآبائهم.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).



(٩)

الحركة الحسينية

في مواجهة الأطماع الأموية لمعاوية

ربّما يغفل غير النبيه الفطن عمّا في الحركة الحسينية من المرامات المحكّمة والحكم البالغة القيّمة، بل ربّما يخطر في خواطر البسطاء السُدّج أنّ هذه الحادثة مهما عظمت وجلّت لا تستأهل أن يحتفل بها هذا الاحتفال أو أن تجري على هذا المنوال، بل لعلّه جار وما أنصف وتكلّف في القول وتعسّف عندما وجد هياج العالم وحداد أهل الدين والغيارى وتفجّعهم لذلك الخطب الهائل، دفعه جهله قائلاً: ما هذا الهياج؟ ولماذا هذا الضجيج؟ وعلام هذا العجيج؟ وهل الحسين عليه السلام إلّا رجل خرج على خليفة عصره وإمام زمانه ثم لم ينجح؟ بل قد أسرف آخر وتسرع وتعدّى في الحكم ولم يتورّع، فقال: وهل الحسين عليه السلام إلّا رجل قُتل بسيف الدين وبشرع جدّه وبسيفه وحده؟ لكن الله تعالى يعلم وملائكته لا تنكر وأنبيائه تشهد وتعترف، بل وكلّ ذي دين يعلم أنّ حكماً جائراً وحاكماً حائداً عن طريق السداد كهذا الحكم والحاكم قلّ ما يتفق.

نعم قد يتصوّر السُدّج أنّ حركة الحسين عليه السلام ما كانت إلّا لطلب الملك لنفسه، وتحصيل السلطة والدوافع النفسية. غير أنّ هذه المقالة مقالة الجاهل بالعلم، وعديم الفهم بقواعده،

والذي لا خبرة له بشي مما كان عليه الحسين عليه السلام من المزايا الكاملة، وما لمناوئه من الأخلاق الرذيلة التي أثبتها التاريخ المسلم بين طوائف المسلمين عامة.

إنَّ الأستاذ الفاضل العلائلي في المجلد الأوّل من كتابه (سموّ المعنى في سموّ الذات) يُحدّثنا بقوله: (من حقّ التاريخ علينا أن نُسجّل على معاوية خطأين كبيرين: أحدهما إمعانه في مغالبة علي عليه السلام حتّى ارتكب ما لا يغتفره الإسلام من دفع الجزية إلى ملك الروم، ولو كان حقيقةً يطلب دم عثمان وهي حادثة قضائية بحتة لما سخرّ نفسه لإدامة الصراع. وثانيهما عهده بالأمر من بعده إلى يزيد، وهو يُنكر منه أكثر ممّا يعرف. ونحن في هذه الجملة الوجيزة لا نريد أن نُعطي رأياً في معاوية، فقد كفانا وكفى كلّ دارس حقيقة معاوية مؤنة الرأي قطع الحكم)^(١).

وقريب من هذا ما ذكره شارح النهج المعتزلي في المجلد الأوّل نقلاً عن الحسن البصري من أن: (أربع خصال كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقة: انتزائه على هذه الأمة بالسفهاء حتّى ابتزّها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه يزيد سكّيراً خميّراً يلبس الحرير ويضرب بالطناوير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حجر بن عدي وأصحابه، فيا ويله من حجر وأصحابه)^(٢).

ونحن كما قال الفاضل العلائلي لا نريد أن نُعطي في معاوية رأياً،

(١) سموّ المعنى: ٦١.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٢.

إذ يكفيننا مؤنة بدء الرأي فيه رأي أهل الإنصاف والدين من علماء السُّنة وغيرهم من المسلمين، فمن ذلك ما قاله المعتزلي في المجلد الأول (ص ١١٣) من شرح النهج: (ومعاوية مطعونٌ في دينه عند شيوخنا، يُرمى بالزندقة. وقد ذكرنا في نقض السفينانية على شيخنا أبي عثمان الجاحظ ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلامية من الإلحاد والتعرض لرسول الله ﷺ وما تظاهر به من الجبر، ولو لم يكن شيء من ذلك لكان في محاربتة الإمام ما يكفي في فساد حاله)^(١).

يُحدث أبو حامد الغزالي المتوفى في حدود (٥٥٠هـ) في كتابه (سرُّ العالمين) على ما نقله عنه السبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرته (ص ٣٧): (والعجب من منازعة معاوية لعلي عليه السلام الخلافة وقد قطع الرسول ﷺ طمع من طمع فيها بقوله: «إذا وُيِّ خليفَتان فاقتلوا الأخير منهما»^(٢))، والعجب من حقٍّ واحدٍ كيف ينقسم بين اثنين؟ والخلافة ليست بجسم ولا عرض فيتجزئ)، قال: (وقال أبو حازم: أوَّل حكومة تجري بين العباد في المعاد بين علي عليه السلام ومعاوية، فيحكم الله تعالى لعلي على معاوية، والباقون تحت المشيئة. وقال رسول الله ﷺ لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية»^(٣))، ولا ينبغي للإمام أن يكون باغياً، ولأنَّ الإمامة تضيق عن شخصين كما أنَّ الربوبية لا تليق بإلهين اثنين).

وقال الغزالي أيضاً: (وقد زعمت طائفة أنَّ يزيد بن معاوية لم

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٢٣ / باب وجوب الإنكار على الأمراء...، بلفظ: «إذا بويع لخليفَتين فاقتلوا الآخر منهما».

(٣) صحيح مسلم ٨: ١٨٦ / باب لا تقوم الساعة...

يرض بقتل الحسين، وادَّعوا أنَّ قتله كان غلطاً)، قال: (وكيف يكون هذا وحال الحسين لا يحتمل الغلط، لما جرى من قتاله، ومكاتبه يزيد إلى ابن زياد، وحثه على قتله، ومنعه من الماء وقتله عطشاناً، وحمل رأسه وأهله سبايا عرايا على أقتاب الجمال إليه، وقرع ثناياه بالقضيب، ولما دخل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام على يزيد قال له يزيد: أنت ابن الذي قتله الله؟ فقال: «أنا علي ابن من قتله أنت»، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾ الآية [النساء: ٩٣]، ثم استفاض لعن علي عليه السلام على المنابر ألف شهر، وكان ذلك بأمر معاوية، أتراهم أمرهم بذلك كتاب الله أو سنة أو إجماع؟).

هكذا قول أبي حامد الغزالي بنقل السبط ابن الجوزي عنه، والسبط ابن الجوزي ذكر ما هو أعجب منه، فراجعته تجد شيئاً عظيماً. ويكفي عن نقد كل ناقدٍ وتضليل كل مضللّ لهذا الرجل المنكوس قول رسول الله ﷺ فيه فيما ذكره الفاضل المعتزلي في المجلد الأول من شرح النهج (ص ٢٥٤)، أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية: «يا معاوية، كيف بك إذا وليت؟»، قال معاوية: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أنت رأس الحطّم، ومفتاح الظلم، حصباً وحقّباً، تتخذ الحسن قبيحاً، والسيئة حسنة، يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، أجلك يسير، وظلمك عظيم»^(١).

أجل هكذا كان معاوية كما أخبر الصادق الأمين، ولا بدّ أن يكون كما قال ﷺ، ونحن كما قدّمنا لسنا في صدد البيان لما انطوت عليه جوانب معاوية من النفسية السيئة، وإنّما نريد أن نكشف ستائر الأوهام

عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ يَزِيدُ وَأَسْلَافُهُ مِنَ الطَّغْيَانِ وَالتَّمَرُّدِ وَالْعَصْيَانِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ،
وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَحْمِلُونَ أَضْغَانِ الشَّرْكِ وَأَحْقَادِ الْإِلْحَادِ وَالْكَفْرِ، وَإِنَّ
الْأَمْرَ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ:

عَبْدُ شَمْسٍ قَدْ أَضْرَمَتْ لِبْنِي هَا شَمَّ حَرْبًا يَشِيبُ مِنْهَا الْوَلِيدُ
فَابِنْ حَرْبٍ لِلْمُصْطَفَى وَابِنْ هَنْدٍ لِعَلِيٍّ وَلِلْحُسَيْنِ يَزِيدُ^(١)

وَقَصَدْنَا أَيْضًا أَنْ نَبْرَهْنَ لِلْقَارِئِ أَنَّ حَرَكَةَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَكُنْ
حَرَكَةً تَنْشِئُ عَنْ رَغْبَاتٍ نَفْسِيَّةٍ، مِنْ تَوْسِيعَةِ مَلِكٍ أَوْ طَلَبِ سُلْطَةٍ
وَاسْتِظْهَارِ كَمَا زَعَمَ الْمَغْرُضُونَ الْمَنَاوِثُونَ. وَيُؤَيِّدُ قَوْلِي هَذَا مَا ذَكَرَهُ
الْأُسْتَاذُ الْعَلَائِلِيُّ فِي الْحَلَقَةِ الْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ (سَمُوُ الْمَعْنَى) إِذْ يَقُولُ:
(فَحَرَكَةُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَقِيقَتِهَا لَمْ تَكُنْ تَرْشِيحًا لِنَفْسِهِ، بَلْ لِلْإِنْكَارِ
عَلَى وَلايَةِ يَزِيدٍ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ الْحُسَيْنِ لِلْوَلِيدِ لَمَّا طَلَبَهُ
لِلْبَيْعَةِ: «إِنَّ يَزِيدَ فَاسَقٌ مَجَاهِرٌ لِلَّهِ بِالْفُسُوقِ»^(٢)...) ^(٣).

إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي (ص ٧٢): (فَخُرُوجُ الْحُسَيْنِ كَانَ رَغْبَةً الْمُسْلِمِينَ
عَامَّةً، وَمِنْ ثَمَّ تَرَكَ هَذَا الصَّدَى وَالرَّجْعُ الْبَالِغِينَ حَتَّى زَلَزَلَ عَرْشَ
الْأُمَوِيِّينَ وَسَاقَاهُ إِلَى الْإِنْهِيَارِ)^(٤).

وَاسْتَشْهَدَ لِقَوْلِهِ بِمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي (الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى)^(٥) فِي تَرْجُمَةِ عَبْدِ

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي: ٦٢.

(٢) راجع: اللهوف: ١٧، وفيه: «... ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس
المحرمة، ملعن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله...».

(٣) سموُ المعنى: ٦٢ و ٦٣.

(٤) سموُ المعنى: ٦٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٥: ٦٦.

الله بن حنظلة حيث بايعه أهل المدينة ليالي الحرّة على الموت قال لهم: (يا قوم اتّقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، إنّ رجلاً ينكح الأمّهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاءً حسناً)، إلى غير ذلك ممّا ذكره هو وذكره غيره.

وأرى من الخير قبل كلّ شيء أن نلّم بجملة وجيزة عن حياة هذا الناهض، ومن هو وما نسبه صلته بنبيّ الإسلام محمد ﷺ، ونذكر طرفاً من مبدأ نشوئه وتربيته، ونبذة سيرة من أخلاقه ونفسيته.

من صاحب هذه النهضة؟

صاحب هذه النهضة الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمّه فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله ﷺ.

وأُمّها خديجة الكبرى أمّ المؤمنين.

والحسين عليه السلام أحد السبطين والريحانيتين، وخامس أهل البيت

الذين خاطبهم الله سبحانه في قرآنه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وُلِدَ في المدينة المنورة عام الخندق في السنة الرابعة للهجرة، عاش مع جدّه

النبيّ ﷺ ستّ سنوات وأشهر، وكان مجموع عمره ستّة وخمسين سنة.

نبذة من تخليق النبيّ ﷺ للحسين عليه السلام وتربيته:

قال الأستاذ العلائي في الحلقة الأولى من كتابه (سموّ المعنى):

(فيما يقصّ أبو هريرة شكلاً من أشكال تخليق النبيّ ﷺ للحسين

تخليقاً مثالياً مدهشاً، حدّث أبو عمر بن عبد البر القرطبي في

الاستيعاب^(١) عن أبي هريرة أنه قال: أبصرت عينايا هاتان، وسمعت أذناي رسول الله ﷺ وهو آخذ بكفّي حسين، قدماه على قدمي رسول الله ﷺ، فرقى الغلام حتّى وضع قدميه على صدر رسول الله، ثم قال: قال رسول الله للصبي: «افتح فاك» فقبّله في فمه، ثم قال: «اللهم أجبه فإني أجبه». وطبعاً أنّ الحبّ الذي يشير إليه النبي لا يكون حبّاً إلّا إذا صاحبه الاصفاء والاستخلاص، وأمّا إذا جاء دونهما فإنّما هو شيء من طفع العاطفة، فلا يبالي أنّي وقعت، فالنبيّ يُحبّ حسيناً حقيقة الحبّ، لأنّه مصطفاه، والله تعالى يُجبه لأنّ النبوة تركت فيه شفقاً يعترض الأفق في مفترق الغروب^(٢).

وقال أيضاً: (ساق ابن الصبّاح في الفصول المهمّة^(٣) من طريق البراء بن عازب حديثاً بمعناه - أي بمعنى الحديث المتقدّم -، قال: رأيت رسول الله ﷺ حامل الحسين بن علي على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أجبه فأجبه»^(٤). أقول: ويقرب من ذلك ما ذكره عن أسامة بن زيد من أنّ النبيّ ﷺ كان ذات يوم حاملاً للحسن والحسين عليهما ويقول: «هذان ابناي وابنا بنتي، اللهم إني أجبهما وأحبّ من يُحبّهما»^(٥).

وذكر الأستاذ العلّائي أيضاً في الحلقة الأولى من كتابه حديث: «حسين منّي وأنا من حسين»^(٦)، ثم قال في التعليقة على هذا الحديث:

(١) راجع: الاستيعاب ١: ٣٩٧.

(٢) سمو المعنى: ٦٦ و ٦٧.

(٣) الفصول المهمّة ٢: ٧٥٨.

(٤) سمو المعنى: هامش ص ٦٦.

(٥) سنن الترمذي ٥: ٣٢٢/ ح (٣٨٥٨).

(٦) سنن الترمذي ٥: ٣٢٤/ ح (٣٨٦٤).

(هذه فقرة أخرجها ابن ماجة في السنن وابن عساكر في التاريخ وأبو الحسن الإربلي في كشف الغمّة^(١))، كلهم عن يعلا بن مرّة العامري أنّه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام، فإذا حسين في السكّة مع غلمان يلعب، فتقدّم رسول الله ﷺ أمام القوم وبسط يديه فجعل الغلام يفرّ هاهنا وهاهنا، وجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتّى أخذه، فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه وقبله وقال: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(٢).

أقول: وكيف لا يكون الحسين عليه السلام موضع عناية الرسول وهو موضع عناية الله سبحانه حتّى جعله بنصّ فرقانه آية من آياته ومظهراً من مظاهر قدسه وعظيم سلطانه في قوله تعالى عند مباهلة أعدائه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١)، فقد اتفق علماء الأئمة أنّها مقصورة عليه وعلى جدّه وأبيه وأمّه وأخيه لا سادس لهم، وهو وأخوه اللحمة الطاهرة التي تقرّ بها عينه، والمجموعة له في حظيرة القدس.

نبذة في أن الحسين عليه السلام وارث رسول الله ﷺ في كلّ مظهره:

قال الأستاذ العلّائي في الحلقة الأولى من كتابه (سمو المعنى):

(وأبو عبد الله سيّد الوارثين ما في ذلك ريب، فكان في كلّ عمل من أعمال الدنيا والآخرة مثالة بارعة، حتّى أجمع الحفاظ والرواة والإخباريون على أنّه أعاد سُنّة المصطفى في كلّ مظهره وأشكاله،

(١) سنن ابن ماجة ١: ٥١ / ح ١٤٤؛ تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٩؛ كشف الغمّة ٢: ٢٧٣.

(٢) سمو المعنى: ٦٨.

وساعد به أنه كان أشبه بجده ﷺ في لون الشاكلة ومسحة الخلق، وزادت الأسوة في إبراز الشبه وإظهار التماثل، فكان مجلسه مهوى الأفتدة ومتراوح الأملاك، يشعر الجالس بين يديه أنه ليس في حضرة إنسان من عمل الدنيا وصنيعتها...).

إلى أن قال: (قال معاوية لرجل من قريش: إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ، فأريت حلقة فيها قوم كأنّ على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد الله^(١)...).

إلى أن يقول: (وكان الحسين عليه السلام إذا برز للناس يتحلّقون بين يديه صفّاً بعد صفٍّ حتّى يذهب فيهم البصر، ويقعون عليه وقوع الطير في اليوم الحرور على ثمد يتبرّد به، وكأنّهم يهربون ولو ساعة من أسر الشهوات وعبودية أنفسهم ليقولوا كلمة الإيمان خالصةً بها قلوبهم كما كان يُعبرّ الصحابة حينما يعرجون إلى النبيّ: هيا بنا نؤمن برّبنا ساعة)^(٢).

وزبدة القول: إنّ الخلافة إمامة، والإمامة مرتبة من مراتب النبوة، يكون موصوفها مثلاً حاكياً عمّن هو قائم مقامه، ففاقد هذه المثالية فضلاً عمّن تزيّاً بالضدّ لا يجوز استخلافه، ولا تصحّ إمامته، والاقتداء به اقتداء بالباطل، والبيعة له بيعة في سبيل إحقاق الباطل ومحو الحقّ.

نبذة من نسب يزيد ونشأته وتربيته وأخلاقه:

أمّا مناوئ هذه الشخصية الفدّة وخصمه، فلنستعرض لك طرفاً

(١) راجع: تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٧٩؛ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام لابن عساكر:

٢١٢/ ح ١٩١.

(٢) سموّ المعنى: ٨٣ و ٨٤.

مما يتعلق بنسبه ونشأته وتربيته وأخلاقه ونفسيته، فإن الأشياء تُعرَف بأضدادها كما تُعرَف بالأمثال والنضائر، وليظهر الفارق بين الحصى والجواهر.

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي لم يتألف حرب للمشركين على الرسول ﷺ إلا وأبو سفيان سائقه وناعقه.

وأُمُّه ميسون بنت بجدل من بني كلب، وهم نصارى بادية الشام، وهي التي سئمت عيش المُدُن وملّت معاوية، فسمعها ذات يوم تنشد الأبيات المعروفة التي مطلعها:

ولبس عباءة وتقرُّ عيني أحبُّ إليَّ من لبس الشفوف
والتي آخرها:

وخرق^(١) من بني عمي فقير أحبُّ إليَّ من عالج^(٢) عنيف^(٣)

فغضب عليها وردّها إلى أهلها مطلّقة وهي حامل بيزيد^(٤)، فولدته هناك، فكان يضمُّ إلى وثنية آبائه الأصلية نصرانية أحواله المستهترّة الجافّة وجفوة البادية.

وكان قد وُلِدَ أيام عثمان سنة (٢٦) على قول و(٢٥) على قول آخر.

(١) أي أحمق، من خرق يخرق فهو أخرق، إذا حمق. (راجع: العين للفراهيدي ٤: ١٥٠ / مادة خرق).

(٢) رجل عالج - بكسر اللام -: أي شديد. (الصحاح للجوهري ١: ٣٣٠ / مادة عالج).

(٣) العنف: ضدُّ الرفق، تقول منه: عنف عليه - بالضم - وعنّف به أيضاً، والعنيف: الذي ليس له رفق بركوب الخليل. (الصحاح للجوهري ٤: ١٤٠٧ / مادة عنف).

(٤) الأعلام للزركلي ٧: ٣٣٩.

وكان كثير اللحم، ضخّم الجثّة، ترك الجدرى في وجهه أثراً بيناً،
وعلى أنفه قرحة شديدة السمرة، رفيع الصوت.

كان فاسقاً فاجراً لا يترك قبيحة إلا ارتكبها، ولا يُعرَف بأكثر من
كونه فاسقاً خليعاً ولعاً، يلعب القمار، مشغولاً بشرب الخمر، مرتكباً
لأنواع الفجور، يُؤثر معاشرته الكلاب والفهود.

وكان شاعراً ماجناً، ومن شعره الذي يكشف لك ستره، ويذيع
سرّه في الاستهتار، قوله وهو على مائدة الشراب:

أقول لصحبٍ ضمّت الكأس شملهم وداعي صبابات الهوى يترنّم
خذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذةٍ فكلُّ وإن طال المدى يتصرّم^(١)

وقوله وهو على مائدة شرابه أيضاً، وعن يمينه ابن زياد، وكان
ذلك بعد قتل الحسين عليه السلام:

اسقني شربةً تروّي مُشاشي ثم ملّ فاسق مثلها ابن زيادٍ
صاحب السرِّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي^(٢)

وكان متظاهراً بالفسق حتّى في سفر الحجّ، ومتجاهراً حتّى في
مدينة الرسول، وقد تغلّب على أصحابه وعمّاله ما كان يفعله من
الفسوق. وفي أيامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة، وأظهر الناس شرب
الخمر، وليس ذلك من يزيد موضع عجب واستغراب بعدما عرفت
طرفاً من نشأته وتربيته البعيدة عن قواعد الإسلام وتقاليده المسلمين.

قال الأستاذ العلائي في الحلقة الأولى من كتابه:

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٨٧.

(٢) الأعلام للزركلي ٧: ٣٣٩.

(إنَّ يزيد بن معاوية نشأ نشأةً مسيحيةً تبعد كثيراً عن عرف الإسلام، وتزيد بالقارئ الدهشة إلى حدِّ الإنكار، ولكن لا يبقى في الأمر ما يدعو إلى الدهشة إذا علمنا أنَّ يزيد يرجع بالأُمومة إلى بني كلب، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الإسلام، ومن بديهيات علم الاجتماع أنَّ انسلاخ شعب كبير عن عقائده يستغرق زمناً طويلاً بين معاودات نفسية ومرجعات ضميرية وذكريات وجدانية، وبالأخصَّ إذا كانت عقيدة سيطرت على النفس، فلذا كان يزيد يتزَيَّد في تقريب المسيحيين، ويستكثر منهم في بطانته، ولقد اطمأنَّ إليهم حتَّى عهد بترية ابنه إلى مسيحي على ما لا اختلاف فيه بين المؤرِّخين).

إلى أن قال: (وإذا كان يقينياً أو شبيهاً باليقين أنَّ تربية يزيد لم تكن إسلاميةً خالصة، بل كانت مسيحية خالصة، فلم يبقَ ما يُستغرب من أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفاً بما عليه جماعة المسلمين، لا يحسب لتقاليدهم واعتقاداتهم أيَّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي يُستغرب أن يكون على غير ذلك)^(١).

وقد طفحت مدوّنات التاريخ بمظالم يزيد، وهتكه حرّمات الدين والحرمين في أيامه القصيرة، ويشترك معه طبعاً في الإثم كلُّ من ساعده عليه أو ساعد على استخلافه.

فقد استمرَّت خلافته ثلاث سنين وأشهر، فكانت نتيجة سلطانه على المسلمين أنَّه في السنة الأولى قتل الحسين سيّد شباب أهل الجنّة، وريحانة الرسول الأمين، ومهجة فاطمة سيّدة نساء العالمين، وسبا ذراريه وعيالاته بأسوء ما يُسبى عليه المشركون.

واقعة الحرّة:

وفي السنة الثانية قام بالفاجعة الثانية التي تُسمّى بواقعة الحرّة، فأخاف المدينة، وأباح حرم الرسول لجيشه ثلاثة أيام، حتّى عبث جيشه بالمدينة سلباً ونهباً وقتلاً وبغياً، فقد قيل في سفك دماؤها ما تقشعرُّ منه الجلود، وترتعد له الفرائص، وحتّى لم يبقَ بعد تلك الفاجعة بدريّ، وقتل سبعمائة من المهاجرين والأنصار في ضمنهم جميع البدرين من قريش، وقتل بالإضافة إليهم عشرة آلاف من التابعين والعرب والموالي، ولم يكتفِ منهم بذلك دون أن أخذ منهم الإقرار على أنّ رجالهم عبيده ونسائهم إمائه، لا يملكون في جنب أوامره مالاً ولا عرضاً، وقتل كلّ من امتنع عن هذه البيعة عدى علي بن الحسين عليه السلام.

رمي الكعبة بالحجارة:

وفي السنة الثالثة حاصر الكعبة، ورمّاها بالحجارة من المنجنيق المنصوب على جبل أبي قبيس، حيث استجار بها عبد الله بن الزبير، وأباح القتل في البلد الحرام في الشهر الحرام، حيث إنّ الواقعة كانت في شهر محرّم سنة (٦٤) من الهجرة، وفي يوم السبت ثالث ربيع الأوّل رمى الكعبة بالنار، فأحرق أستارها وسقفها، وبقيت النار مضطربة أحد عشر يوماً، إلى أن فرّج الله عن الدين والمسلمين بهلاكه في أثناء تلك الواقعة، وكان موته في الرابع عشر من شهر ربيع الأوّل سنة (٦٥) من الهجرة. ومحلّ موته في حوران، فحُمِلَ إلى دمشق، وقبره الآن مزبلة على ما يذكره المتردّدون، قال بعضهم: رأيت الناس بعيني يرجونها بناءً على عقيدة راسخة في عاصمة الأمويين تقضي على كلّ مارٍّ من ذلك الزقاق

أن يرجم تلك المذبلة، وليس هذا مستغرب أو مستبعد بعد قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

فبعد هذه المقدمة الكاشفة عن نشأة يزيد ونفسيته، لا أرى أحداً إلاّ ويدين ويعتقد اعتقاداً لا يخالطه شكٌ بصدق تلك الكلمة التي أسلفناها في صدر المقال، وحقيناها عن الزعيم محمد زغلول باشا، من أن الحسين عليه السلام إنما قام بواجبه الديني والسياسي معاً.

ثم لا ينبغي لمن له أقلّ ممارسة بالحديث أو التاريخ الإسلامي أن يظنّ بأنّ الحركة الحسينية إنّما كانت وليدة وقتها، ولم تكن محسوبة قبل ذلك ولا معلومة، كلاً بل هي عهد معهود، وحادث ردّدت ذكره الأحاديث النبوية، وأذاعه الرسول الأمين بما لا يبقى معه مجال لمشكك وطريق لمستنكر، ونحن نستعرض شيئاً يسيراً ممّا يزيد القارئ إيماناً بما قلناه من أنّ هذه الحادثة ليست فجائية غير معلومة لأهل البيت وأتباعهم، وذلك لعدة أحاديث:

الحديث الأوّل: إخبار الرسول ﷺ فاطمة عليها السلام بقتل الحسين عليه السلام:

ما روي أنّ الحسين عليه السلام كان مع أمّه تحمله، فأخذه النبيّ ﷺ وقال: «لعن الله قاتلك، ولعن الله سالك، وحكم الله بيني وبين من أعان عليك»، قالت فاطمة: «يا أبه، أيّ شيء تقول؟»، قال: «يا بنتاه، ذكرت ما يصيبه بعدي وبعديك من الأذى والظلم والغدر، وهو يومئذٍ في عصبه كأنّهم نجوم السماء يتهدّون إلى القتل، وكأنّي أنظر إلى معسكرهم، وإلى موضع رحالهم»، قالت: «يا أبه، وأين هذا الموضع الذي تصف؟»،

قال ﷺ: «موضع يقال له: كربلاء، وهي دار كرب وبلاء علينا، يخرج عليهم شرار أمتي، لو أن أحد أولئك الأشرار شفع له من في السماوات والأرضين ما شُفّعوا فيه»، فقالت: «يا أبة، فيقتل؟»، قال ﷺ: «نعم يا بنتاه، وتبكيه السماوات والأرضون»، فبكت فاطمة فقالت: «إنا لله»، فقال لها: «يا بنتاه، إن أفضل أهل الجنة هم الشهداء في الدنيا بذلوا أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعُداً عليه حقاً» [التوبة: ١١١]، فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. يا فاطمة بنت محمد، أما تحبين أن تأمرني غداً فتطاعين في هذا الخلق؟ أما ترضين أن يكون أبوك يأتونه يسألونه الشفاعة؟ أما ترضين أن يكون بعلك قسيم الجنة والنار؟ أما ترضين أن يكون من أتى ولدك زائراً في ضمان الله، ويكون من أتاه زائراً بمنزلة من حجَّ إلى بيت الله أو اعتمر، وإذا مات مات شهيداً، وإن بقي لم تزل الحفظة تدعوله؟»، قالت: «يا أبة، سلّمت ورضيت»^(١).

الحديث الثاني: إخباره ﷺ أم سلمة بقتل الحسين عليه السلام:

الذي يلمسك بما قلناه لك من أن حادثة الحسين عليه السلام قد أخذت عليها العهود من الله تعالى شأنه على أربابها.

جاء عن الصدوق في الأمالي، قال: كان النبي ﷺ في بيت أم سلمة، فقال لها: «لا يدخل عليّ أحد»، فجاء الحسين عليه السلام وهو طفل، فما ملكت معه شيئاً حتّى دخل على النبي، فدخلت على إثره، فإذا

(١) تفسير فرات: ١٧١ و ١٧٢ / ح (١٨/٢١٩)؛ كامل الزيارات: ١٤٥ / باب ٢٢ / ح

الحسين عليه السلام على صدره والرسول يبكي، ويده شيء يُقَلَّبُه، فقال: «يا أُمّ سَلَمَة، هذا جبرئيل يُخبرني أنَّ ابني هذا مقتول، وهذه تربة من التربة التي يُقْتَل عليها، فضعيها عندك، فإذا صارت دماً عبيطاً فقد قُتِلَ حبيبي»، فقالت أُمّ سَلَمَة: يا رسول الله، سَلَّ الله أن يدفع ذلك عنه. قال عليه السلام: «قد فعلت، فأوحى الله تعالى إليَّ: أنَّ له درجة لا ينالها أحد»^(١).

الحديث الثالث: إخباره عليه السلام علياً عليه السلام بقتل الحسين عليه السلام:

الذي يوقفك على ما ذكرناه من العهد المعهود المأخوذ عليه الميثاق من الله تعالى.

يُحدِّث المجلسي رحمته الله عن عبد الله بن يحيى، قال: دخلنا مع علي عليه السلام إلى صفين، فلما حاذى نينوى نادى: «صبراً أبا عبد الله»، ثم قال عليه السلام: «دخلت على رسول الله وعيناه تفيضان دموعاً، فقلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما لعينيك تفيض دموعاً؟ أغضبك أحد؟ قال: لا، بل كان عندي جبرئيل، فأخبرني أنَّ الحسين يُقْتَل بشاطئ الفرات، وهذه قبضة من تربته أشمَّنيها، فلم أملك عينيَّ أن فاضتاً، واسم الأرض كربلاء، وكأني أنظر إليه وإلى مصرعه ومدفنه، وإلى السبايا على أقتاب المطايا، ويهدى رأسه إلى عدوّه. ثمَّ صعد المنبر كئيباً حزيناً باكياً، وأصعد معه الحسن والحسين، ووضع يده اليمنى على رأس الحسن واليسرى على رأس الحسين، وقال: اللَّهُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وهذان أطائب عترتي، وخيار أُمَّتِي، وأفضل ذرِّيَّتِي ومن أخلَّفهما في أُمَّتِي، وقد أخبرني جبرئيل أنَّ ولدي هذا مخذول ومقتول بالسُّمِّ، والآخر شهيد

مضرج بالدم، اللهم فبارك له في قتله، واجعله من سادات الشهداء، اللهم ولا تبارك في قاتله وخاذله واصله حرّاً نارك، واحشره في أسفل درك الجحيم، اللهم فكن أنت له ولياً وناصرأ، ثم قال: يا قوم، إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، لن يفرقا حتّى يردا عليّ الحوض، ألا وإني لا أسألكم في ذلك إلّا ما أمرني ربّي، أسألكم عن المودّة في القربى، واحذروا أن تلقوني على الحوض وقد آذيتم عترتي^(١).

الحديث الرابع: رواية كعب الأحبار بقتل الحسين عليه السلام:

الذي يجعل الأمر محسوساً، وأنه عهد من الله سبحانه قد عرفه أنبيائه السابقين، وذكره في كتبه المنزلة على أنبيائه.

جاء في البحار عن كعب الأحبار حين أسلم في أيام خلافة عمر بن الخطّاب، جعل الناس يسألونه عن الملاحم والفتن، حيث كان عنده علم بالكتب السماوية السابقة، قال كعب: (وأعظم الفتن فتنةً وأشدّها مصيبةً، لا تُنسى إلى أبد الأبد، مصيبة الحسين عليه السلام، وهي الفساد الذي ذكره الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أولاً تعلمون أنّه تُفتح يوم قتله أبواب السماوات ويؤذن للسماء بالبكاء فتبكي دماً؟ فإذا رأيتم الحمرة في السماء قد ارتفعت، فاعلموا أنّ السماء تبكي حسيناً)، فقل: يا كعب، لم تفعل السماء كذلك ولا تبكي دماً لقتل الأنبياء؟ فقال: (ويحكم إن قتل الحسين أمر عظيم، وإنّه ابن سيّد المرسلين، وإنّه يُقتل علانية مبارزة ظلماً وعدواناً، ولا تحفظ فيه وصيّة جدّه ﷺ)، إلى أن قال: (والذي

نفس كعب بيده لتبكيه زمرة من الملائكة في السماوات السبع، لا يقطعون بكاءهم إلى آخر الدهر، وإنَّ البقعة التي يُدفن فيها خير البقاع، وما نبىَّ إلاَّ ويأتي إليها يزورها ويبكي لمصابه، ولكربلاء في كلِّ يوم زيارة من الملائكة، وإنَّه يُسمَّى في السماء: حسين المذبوح، وفي الأرض: أبا عبد الله المقتول، وعند أهل البحار: الفرخ الأزهر^(١).

الحديث الخامس: رؤيا الحسين عليه السلام عند قبر جدّه عليه السلام:

الذي ينفي الريب، ولا يبقى لك مجالاً في الشكِّ فيما أفهمناك من أنَّ حادثة الحسين عليه السلام ليست حادثة وليدة الوقت.

وهو أنَّ الحسين عليه السلام لمَّا عزم على الخروج من المدينة إلى مكة جاء إلى قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «السلام عليك يا رسول الله، أنا الحسين بن فاطمة فرحك وابن فرختك، وسبطك الذي خلّفتني في أمّتك، فاشهد عليهم يا نبىَّ الله أنّهم خذلوني، وضيعوني، ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتّى ألقاك»، ثمَّ صفَّ قدميه، فلم يزل راکعاً ساجداً، ثمَّ عاد إلى منزله. ولمَّا كانت الليلة الثانية خرج الحسين عليه السلام إلى قبر جدّه أيضاً، وصلى ركعات عند القبر، فلمَّا فرغ من صلاته جعل يقول: «اللهم هذا قبر نبيِّك محمد صلى الله عليه وآله، وأنا ابن بنت نبيِّك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحبُّ المعروف، وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقَّ القبر ومن فيه إلاَّ اخترت لي ما هو لك رضا، ولرسولك رضا»، ثمَّ جعل يبكي عند القبر حتّى كان قريباً من الصبح وضع رأسه على القبر فغفى، فإذا هو برسول الله صلى الله عليه وآله

وقد أقبل في كتيبة من الملائكة، فضمَّ الحسين إلى صدره، وقَبَّل ما بين عينيه، وقال: «حبيبي يا حسين، كأني أراك عن قريب مرملاً بدمائك، مذبحاً بأرض كرب وبلاء، مع عصاة من أُمَّتِي، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تُروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة. حبيبي يا حسين، إنَّ أباك وأُمَّك قدموا عليَّ، وهم مشتاقون إليك، وإنَّ لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلَّا بالشهادة»، فجعل الحسين عليه السلام في منامه ينظر إلى جدِّه ويقول: «يا جدَّاه، لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا، خذني إليك وأدخلني معك في قبرك»، فقال له رسول الله ﷺ: «لا بدَّ لك من الرجوع إلى الدنيا حتَّى تُرزَق الشهادة وما قد كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنَّك وأباك وأُمَّك وأخاك وعمَّك وعمَّ أبيك تُحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة، حتَّى تدخلوا الجنة»^(١).



(١٠)

نسب الحسين عليه السلام

الحسين هو ابن رسول الله ﷺ، أبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأُمُّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ نساء العالمين.

نسبٌ أناف على الأنام به شرفاً فطال به على قصره
هو عقد فضل لم تزل أبداً تزيّن العلياء في درره^(١)

أجل الحسين ابن رسول الله ﷺ وريحانته غير مدافع، بدليل قوله تعالى في آية المباهلة من سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١)، فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً بإجماع المسلمين.

رؤيا أم الفضل:

وقال ﷺ فيما ذكره ابن الصبّاح المالكي في كتابه (الفصول المهمة) نقلاً عن أم الفضل بنت الحارث أنّها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، رأيت البارحة حلماً منكراً، قال: «وما هو؟»، قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قُطِعَتْ فوُضِعَتْ في حجري، فقال

رسول الله: «خيراً رأيته، تلد فاطمة عليها السلام غلاماً فيكون في حجرِك»، فولدت فاطمة عليها السلام الحسين، قالت: فكان في حجري كما قال رسول الله، فدخلت به عليه فوضعت في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله تدمعان، فقلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما يُبكيك؟ قال ﷺ: «أتاني جبرئيل فأخبرني أنَّ أُمِّي ستقتل ابني هذا، وأتاني بربة من تربته حمراء»^(١).

وعن ابن عساكر في التاريخ الكبير، ونقله السبط ابن الجوزي في التذكرة، ونقله السيّد علي جلال المصري الحسيني في حياة الحسين، قال: كان ابن عباس يأخذ بركاب الحسن والحسين عليهما السلام حتّى يركبهما، فعوتب في ذلك، وقيل له: أنت أسنُّ منهما، فقال: (إنَّ هذين ابنا رسول الله ﷺ أفليس من سعادتي أن آخذ بركابهما؟)^(٢).

وروى الشيخ المجلسي رحمه الله في البحار (مج ٩)، قال: إنَّ محمّداً بن الحنفية رحمه الله، وقد قيل له في يوم صفّين: أبوك يسمح بك في الحرب ويشحُّ بالحسن والحسين عليهما السلام، فقال: (هما عينا وأنا يده، والإنسان يقي عينيه بيده)، وقال مرّة أخرى وقد قيل له في ذلك: (أنا ولده وهما ولدا رسول الله ﷺ)^(٣).

ولقد بلغ من أعداء الحسين عليه السلام، وأعداء ذريته الطاهرة عليهم السلام، أنّهم كانوا يحاولون دفعهم عن هذه النسبة لرسول الله ﷺ، وجعلهم منه كغيرهم، حتّى أنّ محمّداً بن الأشعث فيما ذكره أرباب المقاتل نادى

(١) الفصول المهمّة ٢: ٧٦٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٧٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٩٦/ ح ٢٧.

الحسين يوم الطفّ، فقال: (يا حسين بن فاطمة، أيّ حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك؟).

مناظرة الحجاج مع يحيى بن يعمر:

يُحدّثنا الشيخ المجلسي أعلى الله مقامه في (مج ٤) من بحاره، عن كنز الكراجكي، عن الشعبي، أنّه قال: كنت بواسط وكان يوم أضحى، فحضرت صلاة العيد مع الحجاج، فخطب خطبة بليغة، فلمّا انصرفت جاءني رسوله، فأتيته فوجدته جالساً مستوفزاً^(١)، قال: يا شعبي، هذا يوم أضحى، وقد أردت أن أضحّي فيه برجل من أهل العراق، وأحببت أن تسمع قوله، فتعلم أنّي قد أصبت الرأي فيما أفعل به، فقلت: أيها الأمير أوترى أن تستنّ بسنة رسول الله ﷺ وتضحّي بما أمر أن يضحّي به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله به في هذا اليوم العظيم إلى غيره؟ فقال: يا شعبي، إنك إذا سمعت ما يقول صوّبت رأيي فيه، لكذبه على الله وعلى رسوله، وإدخال الشبهة في الإسلام، قلت: أفيرى الأمير أن يعفيني من ذلك؟ قال: لا بدّ منه. ثمّ أمر بنطع فبُسط، وبالسيف فأحضر، وقال: أحضروا الشيخ، فأتوا به، فإذا هو يحيى بن يعمر - كان شيعياً من الشيعة الأوّل القائلين بتفضيل أهل البيت -، فاغتممت غمّاً شديداً، وقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى ممّا يوجب قتله؟ فقال له الحجاج: أنت تزعم أنّك زعيم العراق؟ قال يحيى:

(١) الوفرة: أن ترى الإنسان مستوفزاً، قد استقلّ على رجليه ولمّا يستوقائماً، وقد تهيأ للأفز والوثوب [والمضيّ]، يقال: مالي أراك مستوفزاً لا تطمئنّ. (العين للفراهيدي ٣٩٠/٧ مادة وفز).

أنا فقيه من فقهاء العراق، قال: فمن أيّ فقهك زعمت أن الحسن والحسين عليهما السلام من ذرية رسول الله؟! قال: ما أنا زاعم ذلك، بل قائله بحق، قال: وبأيّ حقّ قلت؟ قال: بكتاب الله ﷻ، فنظر إليّ الحجاج وقال: اسمع ما يقول، فإنّ هذا ممّا لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله ﷻ أنّ الحسن والحسين عليهما السلام من ذرية محمّد رسول الله ﷺ؟ فجعلت أفكّر في ذلك، فلم أجد في القرآن شيئاً يدلّ على ذلك، وفكّر الحجاج مليّاً ثمّ قال ليحيى: لعلّك تريد قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وأنّ رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام؟

قال الشعبي: فكأنّها أهدى إلى قلبي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى، وكان الحجاج حافظاً للقرآن، فقال له يحيى: والله إنّها لحجة من ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتجّ لما قلت، فاصفرّ وجه الحجاج، وأطرق مليّاً ثمّ رفع رأسه إلى يحيى وقال له: إن أنت جئت من كتاب الله ﷻ بغيرها في ذلك فلك عشرة ألف درهم، وإن لم تأت بها فأنا حلّ من دمك، قال: نعم.

قال الشعبي: فغمّني قوله، وقلت: أمّا كان في الذي نزع به الحجاج ما يحتجّ به يحيى، ويرضيه بأنّه قد عرفه وسبقه إليه، ويتخلّص منه حتّى ردّ عليه وأفحمه؟ فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه فيه من القول ما يُبطل به حجّته، لئلاّ يقال: إنّّه قد علم ما قد جهله هو، فقال يحيى للحجاج: قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، من عنى بذلك؟ قال الحجاج: إبراهيم عليه السلام، قال: فداود وسليمان من

ذَرِيَّتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ يَحْيَى: وَمَنْ نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ مِنْ ذَرِيَّتِهِ؟ فَقَرَأَ الْحَجَّاجُ: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، قَالَ يَحْيَى: وَمَنْ؟ قَالَ: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٨٥]؟ قَالَ يَحْيَى: وَمَنْ أَيْنَ كَانَ عِيسَى مِنْ ذَرِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَلَا أَبَ لَهُ؟ قَالَ: مَنْ قَبْلَ أُمِّهِ مَرْيَمَ عليها السلام، قَالَ يَحْيَى: فَمَنْ أَقْرَبَ مَرْيَمَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ أُمُّ فَاطِمَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ وَعِيسَى مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما السلام مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

قَالَ الشَّعْبِيُّ: فَكَأَنَّا أَلْقَمَهُ حَجَرًا، فَقَالَ: أَطْلُقُوهُ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ، وَادْفَعُوا إِلَيْهِ عَشْرَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، لَا بَارِكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: قَدْ كَانَ رَأْيُكَ صَوَابًا وَلَكِنَّا أَبْنَاهُ، وَدَعَا بِجُزُورٍ فَنَحَرَهُ، وَقَامَ فَدَعَا بِالطَّعَامِ فَأَكَلَ وَأَكَلْنَا مَعَهُ، وَمَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ حَتَّى أَنْصَرَفْنَا، وَلَمْ يَزَلْ مِمَّا احْتَجَّ بِهِ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ وَاجِمًا.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قُلْتُ فِي نَفْسِي: قَدْ وَجِبَ عَلَيَّ أَنْ آتِيَ هَذَا الشَّيْخَ فَأَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ، لِأَنِّي كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَعْرِفُهَا فَإِذَا أَنَا لَا أَعْرِفُهَا، فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَتِلْكَ الدَّنَانِيرُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُفَرِّقُهَا عَشْرًا وَعَشْرًا وَيَتَصَدَّقُ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا كُلُّهُ بَرَكَاتُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام، لَئِنْ كُنَّا أَغْمَمْنَا وَاحِدًا لَقَدْ أَفْرَحْنَا أَلْفًا وَأَرْضَيْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ ^(١).

مناظرة الرضا عليه السلام مع المأمون:

وَيُحَدِّثُنَا الْمَجْلِسِيُّ أَيْضًا فِي (صفحة ٣٧٢ من مج ٤) من بحاره،

(١) بحار الأنوار ١٠: ١٤٧ - ١٤٩ / باب ١١ / ح ١، عن كنز الفوائد: ١٦٧ و ١٦٨، والفقرة الأخيرة في قصّة سعيد بن جبیر، فراجع في بحار الأنوار ٤٣: ٢٢٩.

عن السيّد المرتضى في فصوله، عن شيخه المفيد عليه السلام، أنّه قال: روي أنّه لما سار المأمون إلى خراسان، وكان معه الرضا علي بن موسى عليهما السلام، فبينما هما سيران إذ قال له المأمون: يا أبا الحسن، إنّني فكّرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه، فكّرت في أمرنا وأمركم ونسبنا ونسبكم، فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية، فقال له أبو الحسن الرضا عليه السلام: «إنّ لهذا الكلام جواباً إن شئت ذكرته لك وإن شئت أمسكت»، فقال له: إنّني لم أقله إلّا لأعلم ما عندك فيه، قال له الرضا عليه السلام: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين، لو أنّ الله بعث نبيّه محمداً ﷺ فخرج علينا من وراء أكمة من هذه الآكام يخطب إليك ابتك كنت مزوّجه إياها؟»، فقال: يا سبحان الله، وهل يرغب أحد عن رسول الله ﷺ؟! فقال له الرضا عليه السلام: «أفتراه كان يحلّ له أن يخطب إليّ؟»، قال: فسكت المأمون هنيهة، ثمّ قال: أنتم والله أمس برسول الله ﷺ رحماً^(١).

والمعنى لهذا الكلام أنّ ولد العباس يحلّون لرسول الله ﷺ كما يحلّ له البعداء في النسب منه، وأنّ ولد أمير المؤمنين عليه السلام من فاطمة عليها السلام ومن أمانة بنت زينب ابنة رسول الله ﷺ فيحرم من عليه، لأنّهنّ من ولده في الحقيقة، فالولد ألصق بالوالد وأقرب وأحرز للفضل من ولد العمّ بلا ارتياب بين أهل الدين، فكيف يصحّ مع ذلك أن يتساووا في الفضل بقرابة الرسول ﷺ؟ فنبتّه الرضا عليه السلام على هذا المعنى وأوضحه له.

ويعبد بنظري جهالة المأمون وهو من أهل العلم بذلك، على أنّه

من الواضحات، ولكن يريد منازعة أهل البيت في قربهم من رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون الهوى وحب الملك صرفه عن هذا الأمر الجلي، وكيف كان فإن الله تعالى جعل على كل حق نوراً يهدي إليه، وألسنة صدق تدل عليه، والله على الناس الحجة البالغة.

مناظرة الإمام الكاظم عليه السلام مع الرشيد:

ونظير هذه المحاوره جرت بين الرشيد العباسي والإمام الكاظم عليه السلام. ذكر الطبرسي في (الاحتجاج) من جملة حديث طويل الذيل: أنه سأل الرشيد الإمام في جملة ما سأل في هذا المجلس مخاطباً له عليه السلام: لِمَ جَوَزْتُمُ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ أَنْ يَنْسُبُوكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُوا لَكُمْ: يَا بَنِي رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ بَنُو عَلِيٍّ؟ وَإِنَّمَا يُنْسَبُ الْمَرْءُ إِلَى أَبِيهِ، وَفَاطِمَةُ إِنَّمَا هِيَ وَعَاءٌ، وَالنَّبِيُّ جَذُّكُمْ مِنْ قَبْلِ أُمَّكُمْ.

فقال عليه السلام: «يا أمير المؤمنين، لو أن رسول الله ﷺ نُشِرَ فخطب إليك كريمتك هل كنت تحجبه؟»، قال: سبحان الله! وَلِمَ لَا أُجِيبُهُ؟ بَلْ أَفْتَخِرُ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَقَرِيشٍ بِذَلِكَ. فقال عليه السلام: «لَكِنَّهُ ﷺ لَا يَخْطُبُ إِلَيَّ وَلَا أُزَوِّجُهُ»، قال الرشيد: وَلِمَ؟ قال عليه السلام: «لَأَنَّهُ وَلَدَنِي وَلَمْ يَلِدْكَ»، فقال: أحسنت يا موسى.

ثم قال: كيف قلتُم: إِنَّا ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّبِيُّ لَمْ يَعْقُبْ؟ وَإِنَّمَا الْعَقْبُ لِلذَّكَرِ لَا لِلْأُنْثَى، وَأَنْتُمْ وَلَدٌ لِلْبَنَاتِ وَلَا يَكُونُ لَهَا عَقْبٌ. فقال له الإمام عليه السلام: «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْقَرَابَةِ وَالْقَبْرِ وَمَنْ فِيهِ، إِلَّا أَغْفَيْتَنِي عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ». فقال: لَا أَوْ تَخْبِرْنِي بِحُجَّتِكُمْ فِيهِ يَا وَلَدَ عَلِيٍّ! وَأَنْتَ يَا مُوسَى يُعْسَوِبُهُمْ، وَإِمَامُ زَمَانِهِمْ، كَذَا أَنْهِيَ إِلَيَّ، وَلَسْتُ أَغْفِيكَ فِي كُلِّ مَا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، حَتَّى تَأْتِيَنِي فِيهِ بِحُجَّةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تَدَّعُونَ مَعْشَرَ وَلَدِ عَلِيٍّ

أنَّه لَا يَسْقُطُ عَنْكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ أَلْفَ وَلَا وَائِلًا تَأْوِيلُهُ عِنْدَكُمْ، وَاحْتِجَجْتُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّظْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَاسْتَغْنَيْتُمْ عَنْ رَأْيِ الْعُلَمَاءِ وَقِيَاسِهِمْ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تَأْذِنُ لِي فِي الْجَوَابِ؟»، قَالَ: هَات. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٨٥]، مَنْ أَبُو عِيسَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟»، فَقَالَ: لَيْسَ لِعِيسَى أَبٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا أَلْحَقْنَاهُ بِذُرَارِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ طَرِيقِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَكَذَلِكَ أَلْحَقْنَا بِذُرَارِي النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَبْلِ أُمِّنا فَاطِمَةَ، وَأَزِيدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟»، قَالَ: هَات. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا...﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٦١]، وَلَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ أَنَّهُ أَدْخَلَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْكِسَاءِ عِنْدَ مِبَاهِلَةِ النَّصَارَى إِلَّا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، أَبْنَاءَنَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَنَسَائِنَا فَاطِمَةَ، وَأَنْفُسَنَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ»^(١).

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً مَا فِي الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِبْنَايَ هَذَا إِمَامَانِ قَامَا أَمَّ قَعْدَا»^(٢)، وَقَوْلُهُ ﷺ لِلْحَسَنِ: «إِبْنِي هَذَا سَيِّدٌ»^(٣)، وَقَوْلُهُ أَيْضاً فِي الْحُسَيْنِ: «لَا تَزْرَمُوا ابْنِي»^(٤)، أَيْ لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ بَوْلَهُ لَمَّا بَالَ فِي حَجْرِهِ. وَقَوْلُهُ ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ

(١) الاحتجاج ٢: ١٦٣ - ١٦٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٣٠؛ بحار الأنوار ١٦: ٣٠٧.

(٣) الثاقب في المناقب: ٣٠٧ / باب ٥ / ح (١ / ٢٥٧).

(٤) معاني الأخبار: ٢١١ / باب معنى الإزرام / ح ١.

١٣٤ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

رامياً^(١)، وأنه كان يقال للصادق عليه السلام كثيراً: أنت ابن الصديق، لأن أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وزوجة القاسم كانت بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وكان عليه السلام يقول: «ولدي أبو بكر مرتين»^(٢).

وأما البيت المذكور المشهور على الألسن:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد
لم يعرف قائله حتى اليوم.

قال البغدادي في خزنة الأدب (ج ١ / ص ٣٠٠ / من الطبعة الثانية):

(هذا البيت لا يُعرف قائله مع شهرته في كتب النحاة وغيرهم. قال العيني: هذا البيت استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء في الميراث، وأن الانتساب إلى الآباء، والفقهاء كذلك في الوصية، وأهل المعاني والبيان في التشبيه، ولم أر أحداً منهم عزاه إلى قائله)، وقال: (ورأيت في شرح الكرماني في شواهد شرح الكافية للخبیصي شمس الدين أبو بكر أنه قال: هذا البيت قائله أبو فراس همام الفرزدق بن غالب)^(٣).

ونسبه صاحب جامع الشواهد إلى عمر في (ص ٩١) من كتابه، فقال: (هو من أبيات لعمر بن الخطاب).

وهذا أقرب إلى ما يشاهد فيه من الإمام بالسياسة.

سبحانك اللهم ما أجرهم على هذا الرأي السياسي في دين الله لإخراج آل الله عن نبوة رسول الله ﷺ، ما قيمة قول الشاعر تجاه قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ (آل

(١) صحيح البخاري ٣: ٢٢٧ / كتاب الجهاد والسير.

(٢) كشف الغمة ٢: ٣٧٤.

(٣) خزنة الأدب ١: ٤٢٤.

عمران: ٦١)، فهو نصٌ صريح على أنَّ الحسنين السبطين ابني النبي الأقدس، وقد سمى الله سبحانه أسباط نوح ذرية له، وليست الذرية إلا ولد الرجل كما في القاموس^(١)، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ (الأنعام: ٨٤ و ٨٥)، فعَدَّ عيسى من ذرية نوح عليه السلام وهو ابن بنته مريم.

قال الرازي في تفسيره: (هذه الآية - يعني آية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ - دالة على أنَّ الحسن والحسين عليهما كانا ابني رسول الله ﷺ، وعَدَّ أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين فوجب أن يكونا ابنيه، وما يؤكّد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾، ومعلوم أنَّ عيسى إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأُم لا الأب، فثبت أنَّ ابن البنت قد يُسمّى ابناً^(٢).

وقال القرطبي في تفسيره فيها - يعني آية: ﴿تَعَالَوْا﴾ -: (دليل على أنَّ أبناء البنات يُسمّون أبناءً)^(٣).

وقال في المجلد السابع (ص ٣١): (عَدَّ عيسى من ذرية إبراهيم وإنَّما هو ابن البنت، فأولاد فاطمة عليها ذرية النبي ﷺ. وبهذا تمسك من رأى أنَّ ولد البنات يدخلون في اسم الولد. قال أبو حنيفة والشافعي: من وقَّف وقفاً على ولده وولد ولده أنَّه يدخل فيه ولد ولده وولد بناته ما تناسلوا. وكذلك إذا أوصى لقربته يدخل فيه ولد البنت. والقراءة عند أبي حنيفة كل ذي رحم محرم...).

(١) راجع: القاموس المحيط ١: ١٥.

(٢) تفسير الرازي ٨: ٨٦.

(٣) تفسير القرطبي ٤: ١٠٤.

إلى أن قال: (وقال مالك: لا يدخل في ذلك ولد البنات، وكذا قول الشافعي، والحجة لهما قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، فلم يعقل المسلمون من ظاهر الآية إلّا ولد الصلب وولد الابن خاصة).

وهذه فريّة على المسلمين، وحاشاهم أن يعقلوا من الآية خلاف ظاهرها من دون دليل صارف.

إلى أن قال: (قال ابن القصار: وحجّة من أدخل أولاد البنات في الأقارب قوله عليه السلام للحسن بن علي: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»، ولا نعلم أحداً يمتنع أن يقول في ولد البنات: إنهم ولد لأبي أمهم. والمعنى يقتضي ذلك، لأنّ الولد مشتق من التولّد وهم متولّدون عن أبي أمهم لا محالة، والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب. وقد دلّ القرآن على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الصّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٨٥]، فجعل عيسى من ذرّيته وهو ابن بنته...^(١).

فبعد كون ذرية الرجل ولده على الإطلاق، ودخل فيهم أولاد البنات، لا ينبغي التفكيك في الأحكام عندئذ بين الذرية والأولاد، ولا يسع لأيّ أحد أن يرى أبناء البنات أبناء الرجال الأباعد، خارجين عن ولد الرجل على الحقيقة، ويصحّ له مع ذلك عدّهم من ذرّيته، وليست إلّا ولد الرجل.

تصريح رسول الله صلى الله عليه وآله بأن الحسين عليه السلام ابنه:

ويشهد على لغة القرآن المجيد، وأنّ ولد البنت ابن أبيها على

الحقيقة، قول رسول الله ﷺ: «أخبرني جبرئيل أن ابني هذا - يعني الحسين - يُقتل»^(١)، وفي لفظ: «أن أمتي ستقتل ابني هذا»^(٢).

وقوله: «ابني هذا يُقتل بأرض من العراق»^(٣).

وقوله للحسن السبط: «ابني هذا سيّد»^(٤).

وقوله لعلي: «أنت أخي وأبو ولدي»^(٥).

وقوله: «إن جبرئيل أخبرني أن الله ﷻ قتل بدم يحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وهو قاتل بدم ولدك الحسين سبعين ألفاً»^(٦).

وقوله: «المهدي من ولدي وجهه كالكوكب الدرّي»^(٧).

وقوله: «هذان ابناي من أحبهما فقد أحبني»^(٨)، الحسن والحسين.

وقوله لفاطمة الصديقة: «ادعي لي ابني»^(٩).

وقوله لأنس: «أدع لي ابني»^(١٠).

وقوله: «أدعوا ابني»، فأتى الحسن بن علي^(١١).

(١) الخرائج والجرائح ١: ٦٨ / ح ١٢٥.

(٢) دلائل الإمامة: ١٧٩؛ الإرشاد ٢: ١٢٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٢؛ بحار الأنوار ١٨: ١٤١ / ح ٤١.

(٤) الثاقب في المناقب: ٣٠٧ / باب ٥ / ح (١ / ٢٥٧).

(٥) العمدة: ١٦٨ / فصل ١٩ / ح ٢٥٩؛ بحار الأنوار ٣٨: ٣٤٣.

(٦) ذخائر العقبى: ١٥٠؛ إعلام الوري: ١: ٤٢٩، باختلاف يسير.

(٧) نوادر المعجزات: ١٩٦ / باب ١٣ / ح ٥.

(٨) ذخائر العقبى: ١٢٤.

(٩) ذخائر العقبى: ١٢٢؛ بحار الأنوار ٤٣: ٢٩٩ / ح ٦٢.

(١٠) البداية والنهاية ٨: ٢٢٣.

(١١) ذخائر العقبى: ١٢٢.

وقوله: «اللهم إن هذا ابني - الحسن -، وأنا أحبه فأحبه وأحب من يُحبه»^(١).

وقوله لعلي: «أي شيء سميت ابني»، قال: «ما كنت لأسبقك بذلك»، فقال: «وما أنا السابق ربّي»، فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: «يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبّي بعدك، فسمّ ابنك هذا باسم ولد هارون»^(٢).
وقوله: «أروني ابني ما سمّيته»، قاله لهما ولّد الحسن عليه السلام، وفي ولادة الحسين عليه السلام.

وقوله: «أطلبوا ابني» لهما ضلّ الحسن والحسين^(٣).

وقوله: «إنّ ابني هذين ریحانتی من الدنيا»^(٤)، يعني الحسنين.

وقوله: «ابني ارتحلني»^(٥).

وقوله: «هاتوا ابني أعوذهما بما عوذ به إبراهيم ابنيه»^(٦).

وقوله لأنس: «ويحك يا أنس، دع ابني وثمره فؤادي»^(٧)، يعني الحسن.

وقوله: «ابنای هذان الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»^(٨).

(١) كنز العمال ١٣: ٦٥٢ / ح ٣٧٦٥٣.

(٢) ذخائر العقبى: ١٢٠.

(٣) الغدير ٧: ١٢٥، نقلاً عن كنز العمال ٧: ١٠٨، ولم نجده فيه.

(٤) بحار الأنوار ٤٣: ٢٧٥؛ كنز العمال ١٣: ٦٦٧ / ح ٣٧٦٩٩.

(٥) علل الشرائع ١: ١٧٤ / باب ١٣٩ / ح ١.

(٦) كنز العمال ١٠: ٦٦ / ح ٢٨٣٩٠.

(٧) كنز العمال ١٢: ١٢٥ / ح ٣٤٣١٠.

(٨) كنز العمال ١٢: ١١٢ / ح ٣٤٢٤٧.

وقوله: «سَمَّيتُ ابْنِي هَٰذِينَ بِاسْمِ ابْنِي هَارُونَ شَبَّرَ وَشَبِير»^(١).

وقوله: «لو لم يبقَ من الدنيا إلَّا يوم واحد لطوَّلَ اللهُ ذلكَ اليومَ حتَّى يُبْعَثَ رجلٌ من ولدي اسمه كاسمي»، فقال سلمان: من أيِّ ولدك يا رسول الله؟ قال: «من ولدي هذا»، وضرب بيده على الحسين^(٢).

وقول الحسن السبط عليه السلام في خطبة له: «فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، والسراج المنير»^(٣).

وقوله عليه السلام لأبي بكر وهو في منبر جدّه الأقدس: «انزل عن مجلس أبي»، فقال أبو بكر: صدقت إنّه مجلس أبيك^(٤)، وفي لفظ: «انزل عن منبر أبي»، فقال أبو بكر: منبر أبيك لا منبر أبي^(٥).

وقوله في وصيّته: «ادفوني عند أبي»^(٦)، يعني المصطفى.

وقول الحسين السبط عليه السلام لعمر: «انزل عن منبر أبي»، فقال عمر: منبر أبيك لا منبر أبي، من أمرك بهذا^(٧)؟

وقول ابن عباس: هذان - الحسن والحسين - ابنا رسول

الله ﷺ^(٨).

(١) كنز العمال ١٢: ١١٨ / ح ٣٤٢٧٥.

(٢) ذخائر العقبى: ١٣٧؛ بحار الأنوار ٥١: ٨٠ / ح ٣٧.

(٣) مقاتل الطالبين: ٣٣، باختلاف يسير.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠١.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٤٢.

(٦) تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٨٨.

(٧) تاريخ مدينة دمشق ٣٠: ٣٠٧.

(٨) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٧٩.

١٤٠ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

وقول زهير بن القين مخاطباً الحسين عليه السلام: قد سمعنا يا بن رسول الله مقالتك^(١).

وقول الإمام السبط الحسن الزكي كما في (الإنحاف) للشبراوي^(٢):
خيرة الله من الخلق أبي بعد جدّي فأنا ابن الخيرتين
فضّة قد خلصت من ذهب فأنا الفضّة وابن الذهين

بنوة الحسين عليه السلام للنبي ﷺ في لسان الشعراء:

وقول الفرزدق في مدح الإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السلام:
هذا ابن خير عباد الله كلّهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا علي رسول الله والده أمست بنور هداه تهدي الأمم^(٣)
وقول ابن بشر في زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام:
يمدحه:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة نفى جذبها واخضرّ بالنبت عودها
وزيدٌ ربيع الناس في كلّ شتوة إذا أخلفت إبراقها وعودها^(٤)
وقول عاصم بن حمزة الأسلمي يمدح الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام:
ستأتي مدحتي الحسن بن زيد وتشهد لي بصفّين القبور

قبور لم تزل مذ غاب عنها أبو حسن تعاديهما الدهور

(١) اللهوف: ٤٨؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥.

(٢) الغدير ٧: ١٢٦، عن الإنحاف: ٤٩؛ وأنظر: مطالب السؤل: ٣٨٩.

(٣) الاختصاص: ١٩١.

(٤) الإرشاد ٢: ٢١.

قبور لو بأحمد أو علي يلوذ مجيرها حمي المجير
هما أبواك من وضعاً فضعه وأنت برفع من رفعا جدير^(١)
وقول إبراهيم بن علي بن هرمة لَمَّا نصحه الحسن بن زيد
المذكور:

نهاني ابن الرسول عن المدام وأدبني بآداب الكرام^(٢)
وقول أبي تمام الطائي:
فعلتم بأبناء النبي ورهطه أفاعيل أذناها الخيانة والغدر^(٣)
وقول دعبل الخزاعي:
فكيف ومن أتى بطالب زلفة إلى الله بعد الصوم والصلوات
سوى حبّ أبناء النبي ورهطه وبغض بني الزرقاء والعبلات^(٤)
وقوله:

ألم يحزنك أن بني زياد أصابوا بالترات بني النبي^(٥)
وقول الحماني:
قومٌ لماء المعالي في وجوههم عند التكرم تصويبٌ وتصعيدُ
يدعون أحمدَ إن عُدَّ الفخار أبا والعود ينبت في أفنائه العود^(٦)

(١) الوافي بالوفيات ٣: ٢٢، بتقديم وتأخير.

(٢) عيون الأخبار ٣: ٣٢٢.

(٣) راجع: الغدير ٧: ١٢٧.

(٤) ديوان دعبل: ٥٧.

(٥) ديوان دعبل: ١٨٦.

(٦) الفصول المختارة: ٤٠.

وقول التنوخي:

من ابن رسول الله وابن وصيّه

وقول الزاهي:

بنو المصطفى تُفَنّون بالسيف عنوةً

وقول الناشي:

بنو أحمد قلبي بكم يتقطّع

وقول صاحب بن عباد:

ما لعلّي العلي أشباه

مبناه مبنى النبيّ تعرفه

وقوله:

أُحْزُرُ رأس ابن النبيّ وفي الوريّ

وقوله:

بمحمّد ووصيّه وابنيهما

وقوله:

بمحمّد ووصيّه وابنيهما

إلى مدخل في عقبة الدين ناصب^(١)

ويُسَلِّمُنِي طيف الهجوع فأهجع^(٢)

بمثل مصابي فيكم ليس يُسَمَّعُ^(٣)

لا والذي لا إله إلا هو

وابناه عند التفاخر ابناه^(٤)

حيّ أمام ركابه لم يُقْتَلْ^(٥)

وبعابدٍ وبيقرين وكاظم^(٦)

الطاهرين وسيّد العباد^(٧)

(١) الغدير ٣: ٣٧٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٥٦.

(٣) معجم الأدباء ١٣: ٢٩٣.

(٤) المناقب للخوارزمي: ٣٣٤.

(٥) بحار الأنوار ٤٥: ٢٨٤.

(٦) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٨٠.

(٧) المصدر السابق.

وقول الصوري:

فلهذا أبناء أحمد أبناء علي طرائدُ الآفاق^(١)

وقول مهيار الديلمي:

بأيِّ حكم بنوه يتبعونكم وفخركم أنكم صحب له تبع^(٢)

وقوله:

فيومُ السقيفة يا ابن النبي طرق يومك في كربلا^(٣)

وقول ابن جابر:

جعلوا لأبناء الرسول علامةً إنَّ العلامة شأن من لم يشهر^(٤)

وقال الشبراوي:

يا ابن الرسول بأُمِّك الزهرا البتول

وجدك المأمول عند الناس

وغدوت في الأشراف يا بن المصطفى

كالعقل أو كالروح أو كالراس

وبعد، فما المبرر عندئذٍ لمن يروم دفع الحسن والحسين عليه السلام عن

بنوة الرسول ﷺ، وبين يديه الكتاب والسنة والأدب؟ وما قيمة قول

شاعر مجهول تجاه الكتاب والحديث؟

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح قول علي عليه السلام في بعض أيام

(١) أعيان الشيعة ٨: ٩٧.

(٢) مثير الأحزان: ٨٤؛ اللهوف: ١١٣.

(٣) الغدير ٤: ٢٤٩.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٨٥.

صفين حين رأى ابنه الحسن يتسرع إلى الحرب: «املكوا عني هذا الغلام لا يهذي، فإنني أنفس بهذين أعني الحسن والحسين، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ»: (فإن قلت: أيجوز أن يقال للحسين والحسين عليهما السلام ولدهما: أبناء رسول الله، وولد رسول الله، وذرية رسول الله، ونسل رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، لأن الله سماهم أبناءه في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...﴾ الآية [آل عمران: ٦١]، وإنما عنى الحسن والحسين، ولو أوصي لولد فلان بـمال دخل فيه أو ولد البنات، وسمى الله عيسى ذرية إبراهيم، ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل^(١).

قال عبد الله بن عمر فيما نقله ابن الصبّاح المالكي عن صحيح البخاري ومسلم بالإسناد إلى ابن عمر أنه سأله رجل عن دم البعوض، فقال: من أنت؟ فقال: من العراق، فقال: أنظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت نبي الله، وقد سمعت النبي ﷺ يقول: «هما ريحانتي من الدنيا»، وروي أنه سأله عن المحرم يقتل الذباب؟ فقال: يا أهل العراق تسألون عن قتل الذباب وقد قتلتم الحسين بن رسول الله ﷺ^(٢).

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦ / ح ٢٠٠.

(٢) الفصول المهمة ٢: ٧٥٩.

إمامة الحسين عليه السلام

نريد بالإمامة أولوية الإمام بالناس من أنفسهم، التي بها يجب عليهم طاعته والانقياد لأمره، أو كما قال المتكلمون: رئاسة عامّة في الدين والدنيا، لشخص خاص، نيابةً عن النبي ﷺ. ولنا على ثبوتها للحسين عليه السلام أدلة عامّة وخاصّة:

الأدلة العامّة:

الدليل الأوّل: قاعدة اللطف:

إنّ الإمام كالنبي ﷺ لطف في العباد، لا يجوز على الله تعالى تركه، ولم يكن في عصر الحسين أحد أهلاً للإمامة غيره، فتعيّن أن يكون هو.

أمّا أنّه لطف، فلائّه لا ريب أنّ الناس مع الإمام الجامع للشرائط أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وهو معنى اللطف.

وأمّا أنّه لا يجوز على الله تركه، فلائّه نقض للغرض المقصود من استصلاح العباد بالطاعة، ونقض للغرض قبيح، ويستحيل القبيح على الله.

وأمّا أنّه لم يكن في عصر الحسين عليه السلام أهلاً لها غيره، فذلك بديهي لا ينازعنا فيه أحد من أهل العلم والدين.

مناظرة هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد في البصرة: وهنا نادرة أقصّها:

روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في كتابه (أصول الكافي) في باب الاضطرار إلى الحجّة^(١): عن علي ابن إبراهيم، بإسناده إلى يونس بن يعقوب، قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم - وهو شابٌ -، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ألا تُخبرني كيف صنعتَ بعمرو بن عبيد وكيف سألتَه؟»، قال: فقال هشام: يا بن رسول الله، إني أجلك وأستحييك، ولا يعمل لساني بين يديك. فقال أبو عبد الله: «إذا أمرتكم بشيء فافعلوا».

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متّزر بها من صوف، وشملة مرتد بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتيّ.

ثمّ قلت: أيّها العالم، إني رجل غريب فأذن لي في مسألة، فقال لي: نعم، فقلت له: ألك عين؟ فقال لي: يا بنيّ، أيّ شيء هذا من السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يا بنيّ، سل وإن كانت مسألتك حمقاء، قلت: أجنبي فيها، قال لي: سل، قلت: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال:

أشْمُ الرائحة، قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك أذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أُمَيِّز به كلّما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني، إنّ الجوارح إذا شكّت في شيء شمّته أو رآته أو أذاقته أو سمعته، ردّته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشكّ.

قال هشام: فقلت له: فإنّما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لا بدّ من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يُصحّح لها الصحيح، وتتيقّن به ما شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟! قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً.

ثمّ التفت إليّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، فقال: أمن جلسائه؟ قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: فأنت إذن هو، ثمّ ضمّني إليه وأقعديني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتّى قمت. قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا هشام، من علّمك هذا؟»، قال: شيء أخذته منك وألّفته. فقال عليه السلام: «هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى»^(١).

(١) الغرض من هذا الحديث إثبات أنّ الله تعالى كما جعل لساائر الأعضاء الإدراكية إماماً قائماً وحكماً عدلاً يرجع إليه ويُمَيِّز حقّها من باطلها في إدراكات جزئية، فبأن يجعل في هذا العالم

أقول: وهذا الحديث مؤيد لما أقمنا عليه البرهان من أنه لا يجوز على الله أن يترك الناس بلا إمام يصلح به فاسدهم ويقربون معه إلى طاعة خالقهم ويرجعون إليه عند حيرتهم، فتدبر.

الدليل الثاني: عدم خلوّ الأرض من حجة:

لا ريب بأنّ الله سبحانه الحجة البالغة على الناس، والقرآن صدع به في موضعين منه، ففي آية (١٦٥) من سورة النساء: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ

→ العالم الكبير إماماً قائماً بالقسط حاكماً بالعدل بين الناس يرجعون إليه في شكوكهم وجهالاتهم ووقائعهم واعتقاداتهم الكلية خلافة من الله، لكان أولى وأوجب. وقد علم أنّ كلّما يعلمه سبحانه من خير وصلاح في نظام العالم يجب منه تعالى صدوره، لأنّ علمه بوجوه الخير والنظام سبب للإيجاد، فإذا يجب من الله نصب الإمام في كلّ زمان، وهذا من الأحكام العقلية التي لا تختلف باختلاف الشرائع والأديان، فهو مكتوب في الكتب الإلهية والزبر السماوية والصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. واعلم أنّ هاهنا مقامين:

أحدهما: أنّه هل يجب من الله أن لا يخلى الأرض من حجة وإمام أم لا يجب؟
وثانيهما: أنّه هل يجب في إثباته أن يقع نص من الله ورسوله في تعيين الإمام أم لا يجب، بل يثبت ذلك بيعة أو إجماع؟

وقد وقع الاختلاف من الأمة في كلّ منهما، فالذي ذكر في هذا الحديث إنّما يثبت ما هو المطلب الحقّ في المقام الأوّل دون الثاني، لكن فيما ينفع ويعين معونة شديدة فيما هو المطلب في الثاني. فإنّ النبي ﷺ لم يقصّر في التبليغ من الله والإخبار منه في جزئيات الأحكام التي ليس فيها من الحاجة ما لم يميز إهماله من الآداب والمستحبات، فكيف أهمل التبليغ في هذا الأمر العظيم والخطر الجسيم؟

ومما يُنبّه على ذلك، ويُؤيد ما ذكره هشام، أنّ الله خلق النخاع خليفة للدماغ في كونه يثبت منه أعصاب الحسّ والحركة، فينبت من النخاع وهو الجرم اللين الشبيه بالدماغ النافذ في جوف عظام العنق وفقرات الظهر تتمّة الأعصاب، فإذا قضى الله بحسن عنايته وتقديره للدماغ خليفة ينوب عنه في حاجة قوى البدن وأعضائه، فكيف لم يقض لحاجة الأمة بعد الرسول ﷺ بوجود خليفة يقوم بأمرهم بعده؟ (المؤلّف رحمته).

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ»، وفي آية (١٤٩) من سورة الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، فلو خلا عصر من إمام تقوم به الحجة لله على الناس لانعكس الأمر وكان للناس الحجة على الله، وهو خلاف ما قضى به العقل وصدع به القرآن، فإذا لا بدَّ من إمام، وليس هو في عصر الحسين عليه السلام غير الحسين، لعصمته وأفضليته.

فإن قلت: كتاب الله حجة بالغة كافٍ في بيان ما تريد الناس ويريده الله منهم.

قلت: أمّا فيما هو نصٌّ فيه أو ظاهر نعم حجة بالغة كافية، وأمّا فيما هو مجمل - وكثير منه مجمل - أو متشابه فلا. فمن المؤتمن على كشف مراد الله تعالى من مجمله ومتشابهه؟ وعلى من تعتمد البشر في ذلك؟ وها هو ينازع فيه الشيعي والسني، والأشعري والمعتزلي، والجبري والقدري، وغيرهم من فرق المسلمين. ومثله السنة، فمن المرجع عند التنازع؟ ومن الحجة لله في بيان الحق؟ ولماذا لم يكتف الله من العباد بطاعته وطاعة رسوله ﷺ الحاصلين بالعمل على طبق الكتاب والسنة حتّى أضاف إليهما طاعة أولي الأمر؟ ولماذا قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفّي فيه: «هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده»، كما في صحيح البخاري ومسلم في باب قول المريض^(١)، والكتاب والسنة موجودان بين أيدي الأمة؟ ولماذا قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتما بهما لن تضلّوا أبداً»^(٢)؟ ولماذا ذكر العترة؟ وما

(١) صحيح البخاري ٧: ٩ / كتاب المرضى والطب؛ صحيح مسلم ٥: ٧٦ / باب الأمر بقضاء النذر.

(٢) رواه الخاصة والعامة بألفاظ مختلفة، راجع: بصائر الدرجات: ٤٣٢ / ج ٨ / باب في قول

بأنه لم يكتب بالكتاب والسنة؟ أكان يهجر رسول الله حينما دعا ليكتب للمسلمين كتاباً لا يضلّون بعده؟ أو كان محايياً حيث أمر بالتمسك بعترته، وأخبر الأمة بأن الأمن من الضلال منوط بالتمسك بها، وأنها لن يفترقا - الكتاب والعتره - حتّى يردا عليه الحوض؟ نبّوني بعلم إن كنتم صادقين.

لا مناص عن القول بأن الله تعالى لم يترك عباده بعد نبّيه ﷺ سدى، ولم يترك كتابه بلا قيم معصوم يؤمن منه الخطأ وتقوم لله به الحجّة، وليس هو في عصر الحسين عليه السلام غير الحسين، لما بينا.

مناظرة هشام بن الحكم مع رجل شامي في محضر الإمام الصادق عليه السلام:

وهنا حديث فاستمع له:

روى ثقة الإسلام الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن يونس بن يعقوب، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فورد عليه رجل من الشام، فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «كلامك من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك؟»، فقال: من كلام رسول الله ﷺ ومن عندي، فقال أبو عبد الله: «فأنت إذا شريك رسول الله؟»، قال: لا، قال: «فسمعت

رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين...»؛ أمالي الصدوق: ٥٠٠/ ح (١٥/٦٨٦)؛ صحيح مسلم ٤: ٤١/ باب حجة النبي ﷺ...؛ مسند أحمد ٣: ١٤؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: ٩٣؛ تفسير الثعلبي ٣: ١٦٣؛ سنن البيهقي ٨: ٥، ٩: ٢٠٦، ١٠: ١١٤؛ المعجم الأوسط ٣: ٣٧٤، ٤: ٣٣؛ المعجم الصغير ١٣١: ١، ١٣٥؛ المعجم الكبير ٣: ٦٥، ٥: ١٥٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦؛ كنز العمال ١: ١٧٢ و ١٧٣/ ح ٨٧٢ و ٨٧٣؛ وغيرها من المصادر.

الوحي عن الله ﷻ يُخبرك؟»، قال: لا، قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟»، قال: لا، قال: فالتفت أبو عبد الله إليّ فقال: «يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلّم»، ثم قال: «يا يونس لو كنت تُحسّن الكلام كلّمته»، قال يونس: فيا لها من حسرة، فقلت: جُعلت فداك، إنّي سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: «ويل لأصحاب الكلام يقولون: هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله»، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّما قلت: فويل لهم إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون».

ثم قال لي: «أخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلّمين فأدخله»، قال: فأدخلت حمرا بن أعين وكان يُحسّن الكلام، وأدخلت الأحول - وهو مؤمن الطاق - وكان يُحسّن الكلام، وأدخلت هشام بن سالم وكان يُحسّن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر وكان يُحسّن الكلام - وكان عندي أحسنهم كلاماً -، وكان قد تعلّم الكلام من علي بن الحسين عليه السلام، فلما استقرّ بنا المجلس - وكان أبو عبد الله قبل الحجّ يستقرّ أياً ما في جبل في طرف الحرم في فازه^(١) له مضروبة -.

قال: فأخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من فازته، فإذا هو ببعير يخب، فقال عليه السلام: «هشام وربّ الكعبة»، قال: فظنّنا أنّ هشاماً رجل من بني عقيل كان شديد المحبة له. قال: فورد هشام بن الحكم، وهو أوّل ما اختطّ لحيته، وليس فينا إلّا من هو أكبر سنّاً منه. قال: فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: «مرحباً، ناصرنا بقلبه ولسانه ويده»، ثم قال عليه السلام: «يا حمرا، كلّم الرجل»، فكلّمه فظهر عليه حمرا. ثم قال: «يا طاق،

كَلَّمَهُ، فكَلَّمَهُ فظهر عليه الأحول، ثم قال: «يا هشام بن سالم، كَلَّمَهُ» فتعارفا. ثم قال أبو عبد الله لقيس الماصر: «كَلَّمَهُ»، فكَلَّمَهُ، فأقبل أبو عبد الله عليه السلام يضحك من كلامهما ثمّ قد أصاب الشامي، فقال عليه السلام للشامي: «كَلَّمْ هذا الغلام» - يعني هشام بن الحكم -، فقال: نعم.

فقال لهشام: يا غلام سَلْنِي في إمامة هذا، فغضب هشام حتّى ارتعد - لسوء أدب الشامي مع الإمام -.

ثمّ قال للشامي - هنا محلّ الشاهد فلا تغفل -: يا هذا، أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربّي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال: أقام لهم حجّةً ودليلاً، كيلا يتشتّتوا أو يختلفوا، يتألّفهم ويطيّرهم أو يجرّهم بغرض ربّهم. قال: فمن هو؟ قال: رسول الله ﷺ. قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ؟ قال: الكتاب والسنة. قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟ قال الشامي: نعم. قال: فلمّ اختلفت أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟ فسكت الشامي، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: «مالك لا تتكلّم؟»، قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إنّ الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنّهما يحتملان الوجوه، وإن قلت: قد اختلفنا وكلّ واحد منا يدّعي الحقّ، فلم ينفعنا إذا الكتاب والسنة. إلّا أنّ لي عليه هذه الحجّة.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «سلّه تجده مليّاً»، فقال الشامي: يا هذا من أنظر للخلق: أربهم أو أنفسهم؟ فقال هشام: ربّهم أنظر لهم منهم لأنفسهم، فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع لهم كلمتهم ويطيّرهم أو يجرّهم بحقّهم من باطلهم؟ قال هشام: في وقت رسول

الله ﷻ أو الساعة؟ قال الشامي: في وقت رسول الله ﷺ، قال هشام: رسول الله، قال الشامي: والساعة مَنْ؟ فقال هشام: هذا القاعد الذي تشدُّ إليه الرحال، ونُجبرنا بأخبار السماء والأرض ورائةً عن أبي وجدِّ. قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟ قال هشام: سلّه عما بدا لك. قال الشامي: قطعت عذري فعليَّ السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا شامي، أُخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا»، فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت لله الساعة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «بل قل: آمنت بالله الساعة، إنَّ الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يُثابون». فقال الشامي: صدقت، وأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وأنَّك وصيُّ الأوصياء^(١).

الدليل الثالث: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (النساء: ٥٩):

كثيراً ما تكشف الجملة الواحدة من الكلام عن معاني متعدّدة من جهات مختلفة، كلُّ واحدٍ منها يكون مقصوداً من اللفظ، مراداً من الكلم.

فالآية الشريفة كما دلّت على عصمة أولي الأمر من جهة أنَّ الله تعالى لا يأمر بطاعة غير المعصوم، كذلك دلّت على إمامة أولي الأمر، من جهة أنَّ الله تعالى لم يأمر بطاعتهم إلا وقد جعلهم حجّة على خلقه، وأوليائه في عبادته، قرن طاعتهم بطاعة رسوله، وقرن طاعة رسوله وطاعتهم بطاعته، وليس ذلك إلاَّ لأنَّ طاعتهم طاعته، ومعصيتهم

معصيته، وهذا هو معنى الإمامة. وقد أقمنا الدليل سابقاً على أن المراد بأولي الأمر الأئمة من آل محمد، والحسين عليه السلام أحدهم.

قال الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في كتابه (ينابيع المودة): وفي المناقب: بالسند عن عيسى بن السري، قال: قلت لجعفر الصادق عليه السلام: حدثني عما ثبت عليه دعائم الإسلام إذا أخذت بها زكاً عملي ولم يضرني جهل ما جهلت، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحقُّ في الأموال من الزكاة، والإقرار بالولاية التي أمر الله بها، ولاية آل محمد ﷺ»، قال رسول الله ﷺ: من مات ولا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فكان علي صلوات الله عليه، ثم صار من بعده حسن، ثم حسين، ثم من بعده علي بن الحسين، ثم من بعده محمد بن علي، وهكذا يكون الأمر، إنَّ الأرض لا تصلح إلا بإمام، ومن مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية، وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هاهنا - وأهوى بيده إلى صدره - «^(١)».

قال: وفي المناقب: عن ابن معاوية، قال: تلا محمد الباقر عليه السلام: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن خفتم تنازعاً في الأمر فارجعوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، ثم قال: «هكذا أنزلت، وكيف يأمر بطاعتهم ويُرخّص في منازعتهم؟ وقال ﷺ: ﴿لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾».

مِنْهُمْ» [النساء: ٨٣]، فردَّ أمر الناس إلى أُولي الأمر منهم الذين أمر الناس بطاعتهم وبالردِّ عليهم»^(١).

الدليل الرابع: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩):

ودلالته على إمامته عليه السلام واضح، وذلك أن ليس الغرض من الكون معهم إلَّا الأخذ بأوامرهم والسير على سبيلهم والتعبد بأقوالهم وأفعالهم، وذلك آية أنهم حججه في خلقه والأدلاء عليه من عباده. وقد برهنا في مبحث العصمة على أن المراد بالصادقين إنما هم آل محمد، والحسين أحدهم عليه السلام. ونزيد هنا على ما ذكرناه ما ذكره الشيخ سليمان الحنفي في كتابه الينابيع.

قال: أخرج موفق بن أحمد الخوارزمي، عن أبي صالح، عن ابن عباس عليه السلام، قال: الصادقون في هذه الآية محمد ﷺ وأهل بيته. قال أيضاً: أبو نعيم الحافظ والحموي أخرجاه عن ابن عباس بلفظه. أيضاً أبو نعيم أخرجاه عن جعفر الصادق عليه السلام. وأخرجه أيضاً عن الباقر والرضا، قالوا: «الصادقون هم الأئمة من أهل البيت»^(٢).

الدليل الخامس: حديث الثقلين:

حديث الثقلين المتواتر المتفق على صحته عند عموم المسلمين، وقد ذكرناه في عداد الأدلة على عصمته عليه السلام، ودلالته على إمامته واضحة جليّة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حان ارتحاله من الدنيا واقترب انتقاله إلى الدار الآخرة، وكان يعلم ﷺ أن الأمة تحتاج من

(١) ينابيع المودة ١: ٣٥١ / باب ٣٨ / ح ٦.

(٢) ينابيع المودة ١: ٣٥٨ / باب ٣٩ / ح ١٥.

بعده إلى من يقوم مقامه ويعمل عمله إلى من يرشدها إلى هداها ويُبصِّرُها مزالق رداها بحيث تكون مأمونة بعده من الضلالة والانقلاب على الأعقاب، قام عليه السلام خطيباً في مواضع متعددة يُعرِّف الأمة بأنّه لم يتركها من بعده فوضى، ولم يدعها لمن يخشى عليها مع التمسك به الضلالة والردى، قائلاً: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا أبداً، وإنّ اللطيف الخبير قد نبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض...»^(١)، مبيّناً أنّ مراده من عترته أهل بيته، والحسين عليه السلام أحدهم لا يختلف في ذلك أحد، فأبغى لفظ أبلغ في الدلالة على الإمامة من هذا اللفظ؟ وأيُّ كلام أدلُّ على المقصود من هذا الكلام؟ فتدبّروا يا أولي الألباب.

قال الشيخ المفيد رحمته الله: (لا يكون شيء أبلغ من قول القائل: قد تركت فيكم فلاناً، كما يقول الأمير إذا خرج من بلده واستخلف من يقوم مقامه لأهل البلد: قد تركت فيكم فلاناً يرعاكم ويقوم فيكم مقامي. وكما يقول من أراد الخروج عن أهله وأراد أن يؤكّل عليهم وكيلاً يقوم بأمرهم: قد تركت فيكم فلاناً، فاسمعوا له وأطيعوا. فإذا كان ذلك كذلك فهو النصّ الجليّ الذي لا يحتمل غيره إذ خلف في جميع

(١) رواه الخاصّة والعامة بالفاظ مختلفة، راجع: بصائر الدرجات: ٤٣٢/ ج ٨/ باب في قول رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين...»؛ أمالي الصدوق: ٥٠٠/ ح (١٥/ ٦٨٦)؛ صحيح مسلم ٤: ٤١/ باب حجّة النبي ﷺ...؛ مسند أحمد ٣: ١٤؛ مستدرک الحاکم ٣: ١٠٩؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: ٩٣؛ تفسير الثعلبي ٣: ١٦٣؛ سنن البيهقي ٥: ٨، و٩: ٢٠٦، و١٠: ١١٤؛ المعجم الأوسط ٣: ٣٧٤، و٤: ٣٣؛ المعجم الصغير ١: ١٣١ و١٣٥؛ المعجم الكبير ٣: ٦٥، و٥: ١٥٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦؛ كنز العمال ١: ١٧٢ و١٧٣/ ح ٨٧٢ و٨٧٣؛ وغيرها من المصادر.

الخلق أهل بيته وأمرهم بطاعتهم والانقياد لهم بما أخبر به عنهم من العصمة، وأنهم لا يفارقون الكتاب، ولا يتعدّون الحكم بالصواب^(١).

وقال السيّد المرتضى عليه السلام من جملة كلام له في كتابه (الشافى) في بيان الاستدلال بهذا الحديث على إمامة أهل البيت عليه السلام: (إنّا نعلم أنّ الرسول ﷺ إنّما خاطبنا بهذا القول على جهة إزاحة العلّة لنا، والاحتجاج في الدين علينا، والإرشاد إلى ما يكون فيه نجاتنا من الشكوك والريب، والذي يوضح ذلك أنّ في رواية زيد بن ثابت لهذا الخبر: «وهما الخليفان من بعدي»، وإنّما أراد: المرجع إليهما بعدي فيما كان يرجع إليّ فيه في حياتي...)^(٢) الخ.

الدليل السادس: حديث خلفاء أمّتي اثنا عشر:

قول النبي ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش»^(٣)، وقال: «لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»^(٤).

أخرج مسلم في صحيحه من كتاب الإمارة في باب (الناس تبع لقريش)، بالإسناد إلى عبد الله بن عمر بن الخطّاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»^(٥)، وأخرج في الباب نفسه، عن جابر بن سمرة، قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ

(١) راجع: الطرائف: ١٢٠؛ بحار الأنوار: ٢٣: ١١٢ / باب ٧ / ح ١٩.

(٢) الشافى في الإمامة ٣: ١٢٧ و ١٢٨.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٥٥ / باب المناقب.

(٤) صحيح مسلم ٦: ٤ / باب الاستخلاف وتركه.

(٥) صحيح مسلم ٦: ٣ / باب الناس تبع لقريش...

فسمعتة يقول: «إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتَّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»، قال: ثمَّ تكلم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلَّهم من قريش^(١).

هذا الخبر أخرجه الشيخ صاحب الينايع من عشرين طريقاً^(٢)، في أنَّ الخلفاء بعد النبي ﷺ اثنا عشر خليفة كلَّهم من قريش، وأخرجه البخاري من ثلاثة طرق^(٣)، وفي مسلم من تسعة^(٤)، وفي أبي داود من ثلاثة^(٥)، فترى الكلَّ متفقين في هذه الرواية على العدد، وأنَّهم من قريش. فما مقصود رسول الله ﷺ من هذا القول؟ أليس من الجلي الواضح الذي لا يحتمل غيره أنَّه إخبار منه ﷺ بعدد خلفائه، وأنَّهم اثنا عشر، وأنَّهم من قريش، وأنَّه لا يزال الدين بهم عزيزاً، وأنَّهم لا ينقضون إلى أن تقوم الساعة؟ وهل ينطبق هذا إلَّا على ما هو الحقُّ ممَّا عليه الشيعة من التصديق بإمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام؟

وهنا كلام لبعض المحقِّقين ذكره الشيخ سليمان الحنفي في يناييعه لا بأس بذكره هنا زيادةً في الإفادة، قال:

(قال بعض المحقِّقين: إنَّ الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده ﷺ اثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فشرح الزمان وتعريف الكون والمكان، علِّم أنَّ مراد رسول الله ﷺ من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يُحمَّل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلَّتْهم

(١) المصدر السابق.

(٢) ينايع المؤدَّة ٣: ٢٨٩ - ٢٩٤ / باب ٧٧.

(٣) صحيح البخاري ٨: ١٢٧.

(٤) صحيح مسلم ٦: ٣ و ٤ / باب الناس تبع لقريش...

(٥) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / كتاب المهدي.

عن اثنا عشر، ولا يمكن أن يُحمَل على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، وظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم، لأن النبي ﷺ قال: «كلهم من بني هاشم» في رواية عبد الملك عن جابر، وإخفاء صوته ﷺ في هذا القول يُرجَّح هذه الرواية، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم، ولا يمكن أن نحمله على الملوك العباسية، لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلة رعايتهم للآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وحديث الكساء، فلا بدَّ من أن يُحمَل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته ﷺ، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم ﷺ وبالوراثة واللدنية، كذا عرّفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى - أي أن مراد النبي ﷺ الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته - ويشهد له ويُرجّحه حديث الثقلين والأحاديث المتكثرة المذكورة في سائر الكتب. وأما قوله ﷺ: «كلهم تجتمع عليه الأئمة» في رواية عن جابر بن سمرة، فمراده ﷺ أن الأئمة تجتمع على الإقرار بإمامة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي عليه السلام^(١).

ثم ذكر الحنفي بعد ذكر هذا الكلام ما قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه في النهج: «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ، بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى...»^(٢)، «وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر

(١) ينابيع المودة ٣: ٢٩٢ و٢٩٣ / باب ٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢٠١ / الخطبة ١٤٤.

مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُبِلَى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ...، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تُنْسِكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ، فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْنُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ، هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنَظِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ، وَلَا يُخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»^{(١)(٢)}.

الأدلة الخاصة:

النص عليه صريحاً بالإمامة من المعصوم، وهو على قسمين:

الأول: نصوص جده عليه السلام عليه.

الثاني: نص أخيه الحسن، المنصوص عليه من أبيه، المنصوص

عليه من جده عليه السلام.

أما الأول: نصوص رسول الله ﷺ عليه السلام بالإمامة:

فإليك ما رواه المحدثون منه عن الشيخ إبراهيم الجويني في كتابه (فرائد السمطين) بالإسناد إلى رسول الله ﷺ من حديث طويل قال فيه: «الحسن والحسين إماما أمتي بعد أبيهما، وسيّدا شباب أهل الجنة، أمّهما سيّدة نساء العالمين، وأبوهما سيّد الوصيّين، ومن ولد الحسين عليه السلام

(١) نهج البلاغة: ٢٠٤ - ٢٠٦ / الخطبة ١٤٤.

(٢) ينابيع المودة ٣: ٢٩٣ و ٢٩٤ / باب ٧٧.

تسعة أئمة، تاسعهم القائم من ولدي، طاعتهم طاعتي، ومعصيتهم معصيتي...»^(١).

والشيخ إبراهيم هذا من أعيان إخواننا السُّنة.

وعنه أيضاً بالإسناد إلى سليم بن قيس الهلالي، قال: رأيت عليّاً عليه السلام في مسجد رسول الله ﷺ في خلافة عثمان، وجماعة يتحدّثون ويتذكرون في العلم والفقه، وذكر منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وعمار، والمقداد، وأبو ذر، وهاشم بن عتبة، وابن عمر، وجماعة آخرين من المهاجرين والأنصار، وذكر ما كانوا فيه من التحدّث بفضل قریش والأنصار. ثم ذكر طلبهم من أمير المؤمنين عليه السلام أن يتكلّم وكان ساكناً، فتكلّم، فكان فيما ذكر من كلامه أن قال: «أُنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ قام خطيباً لم يخطب بعد ذلك فقال: أيّها الناس إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فتمسّكوا بهما لن تضلّوا، فإنّ اللطيف أخبرني وعهد إليّ أنّهما لن يفرقا حتّى يردا عليّ الحوض، فقام عمر بن الخطّاب شبه المغضب، فقال: يا رسول الله، أكلّ أهل بيتك؟ فقال: لا، ولكن أوصيائي منهم، أوّلهم أخي ووزير ووارثي وخليفتي في أمّتي، ووليّ كلّ مؤمن بعدي، هو أوّلهم، ثمّ ابني الحسن، ثمّ ابني الحسين عليه السلام، ثمّ تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد، حتّى يردوا عليّ الحوض، شهداء الله في أرضه، وحبّته على خلقه، وخزّان علمه، ومعادن حكمته، من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله»، فقالوا كلّهم: نشهد أنّ رسول الله قال ذلك^(٢).

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ٤: ٨٢ عنه.

(٢) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ٥: ٣٢ - ٣٨ عنه.

وقال الشيخ سليمان الحنفي في الينابيع، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: دخلت على النبي ﷺ فإذا الحسين عليه السلام على فخذه، وهو يُقبل خديه ويلثم فاه ويقول: «أنت سيّد ابن سيّد أخو سيّد، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام، وأنت حجّة ابن حجّة أخو حجّة، وأنت أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم»^(١).

وعن الحموي، عن ابن عباس، قال: قدم يهودي على رسول الله ﷺ يقال له: نعثل، فقال له: يا محمد، إني أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبتني عنها أسلمت على يدك. قال: «سَلْ يا أبا عمارة».

قال: يا محمد، صف لي ربك.

فقال ﷺ: «إِنَّ الخالق لا يُوصَف إِلَّا بما وصف به نفسه، وكيف يُوصَف الخالق الذي تعجز الأوصاف أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار أن تحيط به؟ جَلَّ عما يصفه الواصفون، ناءٍ في قربه وقريب في نأيه، كيف الكيف فلا يقال له: كيف، وأين الأين فلا يقال له: أين، هو منقطع الكيفية والأينونية، فهو الواحد والصمد كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

قال: صدقت يا محمد، فأخبرني عن قولك: إنّه واحد لا شبيه له، أليس الله تعالى واحد والإنسان واحد؟ قد أشبهت وحدانيّة الإنسان.

فقال ﷺ: «الله تعالى واحد أحديّ المعنى، والإنسان واحد ثنائيّ المعنى، جسم وعرض، وبدن وروح، وإنّما التشبيه في المعاني لا غير».

قال: صدقت يا محمد، فأخبرني عن وصيِّك من هو؟ فما من نبيٍّ إلا وله وصيٌّ، وإنَّ نبيِّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون.
فقال: «نعم، إنَّ وصيِّي والخليفة بعدي علي ابن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، يتلوهُ تسعة من صلب الحسين أئمة أبرار».
قال: يا محمد، فسّمهم لي.

قال: «نعم، فإذا مضى الحسين عليه السلام فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، ثم ابنه علي، ثم ابنه الحسن، ثم الحجة ابن الحسن، فهذه اثنا عشر أئمة عدد نقباء بني إسرائيل».

قال: فأين مكانهم في الجنة؟

قال: «معي في درجتي».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأتّك رسول الله، وأشهد أنّهم الأوصياء بعدك، ولقد وجدت هذا في الكتب المتقدمة، وفيما عهد إلينا موسى بن عمران، أنّه إذا كان آخر الزمان يخرج نبيٌّ يقال له: أحمد، خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعده، فيخرج من صلبه أئمة أبرار عدد الأسباط....، إلى آخر الحديث عن غاية المرام، ونقله صاحب النبايع بزيادة يسيرة^(١).

ونقل عن (المناقب) لابن المغازلي الشافعي، عن وائلة بن الأصقع بن قرحاب، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: دخل جندل بن جنادة بن جبير اليهودي على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أخبرني عمّا ليس لله، وعمّا ليس عند الله، وعمّا ليس يعلمه الله.

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ٤: ٨٢ و ٨٣ عنه؛ غاية المرام ١: ١٤٢ و ١٤٣ / باب ١٢ / ح

فقال عليه السلام: «أما ما ليس لله فليس لله شريك، وأما ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعباد، وأما ما ليس يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود: إنَّ عزير ابن الله، والله لا يعلم أنَّ له ولد، بل يعلم أنَّه مخلوقه وعبده».

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأَنَّك رسول الله حقاً وصدقاً.
ثم قال: إنِّي رأيت البارحة في النوم موسى بن عمران عليه السلام، فقال:
يا جندل أسلم عليّ يد محمد خاتم الأنبياء، واستمسك أوصيائه من بعده، فقلت: أسلم، فلله الحمد أسلمت وهداني بك.

ثم قال: أخبرني يا رسول الله عن أوصيائك من بعدك لأتمسك بهم.
قال: «أوصيائي الاثنا عشر». قال جندل: هكذا وجدناهم في التوراة، وقال: يا رسول الله سمَّهم لي، فقال: «أولهم سيّد الأوصياء أبو الأئمة علي، ثم ابنه الحسن والحسين، فاستمسك بهم ولا يغرنك جهل الجاهلين، فإذا وُلِدَ علي بن الحسين زين العابدين يقضي الله عليك، ويكون آخر زادك من الدنيا شربة لبن تشربه...»^(١) الخ.

عن الشيخ إبراهيم الحموي الشافعي من كتابه (فرائد السمطين) بالإسناد إلى أبي نضرة، قال: لَمَّا احتضر أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام عند الوفاة دعا ابنه الصادق عليه السلام ليعهد إليه عهداً، وقال له أخوه زيد بن علي: لو امتثلت في تمثال الحسن والحسين عليهما السلام لرجوت أن لا يكون أتيت منكراً. فقال له: «يا أبا الحسن، إنَّ الأمانات ليس بالمثال، ولا العهود بالسوم، وإنَّما هي أمور سابقة عن حجج الله تبارك وتعالى»، ثم دعا بجابر بن عبد الله، فقال له: «يا جابر، حدِّثنا بما عاينت من

الصحيفة». فقال له جابر: نعم يا أبا جعفر، دخلت إلى مولاتي فاطمة بنت رسول الله ﷺ لأهنتها بمولد الحسين عليه السلام، فإذا بيدها صحيفة من درّة بيضاء، فقلت: يا سيّدة البتول، ما هذه الصحيفة التي أراها معكِ؟ قالت: «يا جابر، لولا النهي لكنت أفعل، لكنّه نُهي أن يمسه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ أو أهل بيت نبيّ، ولكنّه مأذون ذلك أن تنظر إلى بطنها من ظاهرها». قال جابر: فقرأت فإذا أبو القاسم محمد بن عبد الله المصطفى وأُمّه آمنة، وأبو الحسن علي بن أبي طالب المرتضى وأُمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أبو محمد الحسن بن علي وأبو عبد الله الحسين بن علي التقي أمّهما فاطمة بنت محمد... الخ، وذكر الأئمّة الاثني عشر عليه السلام^(١).

وروى الشيخ إبراهيم هذا حديث الصحيفة هذه في كتابه من طرق ثلاثة أخرى.

والأحاديث المصرّح فيها بالنصّ على الأئمّة الاثني عشر من طرق السُنّة كثيرة ذكر صاحب غاية المرام منها نحواً من ستين حديثاً^(٢)، وإنّما ذكرت هنا بعضها، والغرض منها النصّ على الحسين عليه السلام، وهو ما أردنا من القسم الأوّل.

وأما القسم الثاني: وهو نصّ الحسن على أخيه الحسين عليه السلام:

فقد رواه ابن الصّبّاغ المالكي في كتابه (الفصول المهمّة) من حديث طويل ذكر فيه أنّ الحسن عليه السلام قال للحسين عليه السلام وقد أخذ منه السّم مأخذه: «يا أخي قد حضرت وفاتي، وحان فراقِي لك، إنّي لاحق

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ١٣: ٥٤ و ٥٥ عنه.

(٢) راجع: غاية المرام ١: ١١٨ / باب ١٢.

بري، وأجد كبدي يتقطّع، وإني لعارف من أين ذهبت، وأنا أخاصمه إلى الله، فبحقّي عليك إن تكلمت في ذلك بشيء، فإذا أنا قضيت فغمضني وغسّلي وكفّني واحملني إلى سريري إلى قبر جدّي رسول الله ﷺ لأجّد به عهداً، ثم ردّني إلى قبر جدّي فاطمة بنت أسد فادفني هناك، وبالله أقسم عليك أن لا تهرق في أمري محجمة دم...»، ثم وصّى إليه بأهله وولده وتركته وجميع ما كان وصّى به إليه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام ^(١).

روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في كتابه (أصول الكافي) في باب الإشارة والنصّ إلى الحسين بن علي عليه السلام، عن محمد بن الحسن بالإسناد إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «لما حضرت الحسن بن علي عليه السلام الوفاة، قال: يا قنبر، أنظر هل ترى وراء بابك مؤمناً من غير آل محمد عليهم السلام؟ فقال: الله ورسوله وابن رسوله أعلم به منّي، قال: أدع لي محمد بن علي، فأتيته، فلما دخلت عليه قال: هل حدث إلا خير؟ قلت: أجب أبا محمد، فعجّل عن شسع نعله، فلم يسوّه، وخرج معي يعدو، فلما قام بين يديه سلّم، فقال له الحسن بن علي عليه السلام: أجلس فإنّه ليس مثلك يغيب عن سماع كلام تُحيى به الأموات وتموت به الأحياء، كونوا أوعية العلم، ومصاييح الهدى، فإنّ ضوء النهار بعضه من بعض. أمّا علمت أنّ الله تبارك وتعالى جعل ولد إبراهيم أئمة، وفضّل بعضهم على بعض، وآتى داود عليه السلام زبوراً، وقد علمت بما استأثر الله به محمداً ﷺ.

يا محمد بن علي، إني لا أخاف عليك الحسد، وإنما وصف الله به الكافرين، فقال الله ﷻ: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ولم يجعل الله ﷻ للشيطان عليك سلطاناً. يا محمد بن علي، ألا أخبرك بما سمعت من أبيك فيك؟ قال: بلى، قال: سمعت أباك عليه السلام يقول يوم البصرة: من أحب أن يبرني في الدنيا والآخرة فليبر محمدًا ولدي. يا محمد بن علي، لو شئت أن أخبرك وأنت نطفة في ظهر أبيك لأخبرتكَ. يا محمد بن علي، أما علمت أن الحسين بن علي بعد وفاة نفسي ومفارقة روحي جسمي إمام من بعدي وعند الله جلَّ اسمه في الكتاب، وراثته من النبي ﷺ أضافها الله ﷻ له في وراثته أبيه وأمه، فعلم الله أنكم خيرة خلقه، فاصطفى منكم محمدًا ﷺ واختار محمد علياً عليه السلام، واختارني علي بالإمامة، واخترت أنا الحسين عليه السلام...»^(١)، يريد عليه السلام أن الحسين إمام باختيار الله جلَّ اسمه له واختيارنا.

ننقل هنا كلاماً ليعرف أهل الفضل والعلم إلى أيِّ درجة بلغ انحطاط عقلية المسلمين، وإلى أيِّ حدٍّ سقطوا حتَّى أصبحوا محلاً لاستماع مثل هذه الأباطيل والإصغاء إلى هذا اللغو، وحتَّى طمع أن يتكلَّم به في أندية العلم وعلى رؤوس رجاله بعض الساقطين.

يُدَوِّنون في تواريخهم إمامة يزيد بن معاوية ثابتة بالنص عليه من أبيه، وإمامة أبيه ثابتة بصلح الحسن الإمام بنص أبيه عليه. ومَّا زاد في الطنبور نعمة أن السيّد علي جلال الحسيني المصري ينقل عن ابن حزم

من كتابه قوله: (إذا كانت الخلافة انتقلت من علي إلى ابنه الحسن عليه السلام بالوصية، فكيف يُسلمها الحسن إلى معاوية؟).

أفلا تعجب من ذلك؟ وتعرف من هذا أن القوم قد أخذ منهم الجهل مأخذه، وأصبحوا لا ينظرون إلى الخلافة والإمامة إلا نظرهم إلى الملك والسلطان تذهب بذهابه وتبقى ببقائه، ولم يعلموا أن الإمامة والخلافة منصب إلهي كالنبوة، والملك والسلطان أثر من آثارها، قد يترتب عليها كما كان لداود وسليمان، وقد ينفك عنها ويترك لمغتصبيه كما كان مع إبراهيم عليه السلام حينما ترك نمرود وسلطانه في العراق وجاء إلى فلسطين، وكما كان مع موسى عليه السلام حينما ترك فرعون وسلطانه في مصر وجاء إلى الأرض المقدسة، وكما كان مع محمد ﷺ حينما ترك قريشاً وسلطانهم وخرج إلى المدينة، أيرون أن هؤلاء خرجوا عن كونهم أنبياء إذا اغتصبهم فراعنة عصرهم ما جعل الله لهم من السلطان، وزالت عنهم إمامتهم إذ تركوهم وما هم فيه من الملك؟

النبي نبي غلب أو غلب، والإمام إمام قام أو قعد، وخرج أم لم يخرج.
قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١).

كأنهم لا يعلمون أن الله تعالى نفى عن معاوية وأمثاله من الظالمين الإمامة بقوله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، ومعاوية رجل ظلم الحسن عليه السلام، وجاء إليه يحاربه، وهو إمامه باعتراف المخالف. ولما رأى الحسن عليه السلام أن القوم خاذلوه ومسلموه حفظ حُشاشة نفسه ونفوس خاصته بما صنع من الصلح.

يُحَدِّثُنَا الْبِيضَاوِي وَهُوَ مِنْ أَجَلَاءِ مَفْسَّرِي السُّنَّةِ يَقُولُ، وَهَذَا نَصُّهُ
 بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، مَفْسَّرًا لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ
 بِأَنَّهَا: (إِجَابَةٌ إِلَى مُلْتَمَسِهِ - أَيِ مُلْتَمَسِ إِبْرَاهِيمَ -، وَتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ قَدْ
 يَكُونُ مِنْ ذَرِيَّتِهِ ظَلَمَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَا يَنَالُونَ الْإِمَامَةَ، لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى
 وَعَهْدٌ وَالظَّالِمُ لَا يَصْلَحُ لَهَا، وَإِنَّمَا يَنَالُهَا الْبَرَّةُ الْأَتَقِيَاءُ مِنْهُمْ. وَفِيهِ دَلِيلٌ
 عَلَى عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَأَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَصْلَحُ
 لِلْإِمَامَةِ)^(١).

إِلَى هُنَا تَمَّ مَا أَرَدْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ إِمَامَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 وَالْكَشْفُ عَنْهَا بِالْأَدَلَّةِ مِنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ كِتَابًا وَسُنَّةً عَمُومًا وَخُصُوصًا
 بِالنَّصِّ عَلَيْهِ مِنْ جَدِّهِ ﷺ وَمِنْ أَخِيهِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ الْمَنْصُوصِ
 عَلَيْهِ مِنْ جَدِّهِ. وَلَمْ نَذْكُرْ مِنَ النُّصُوصِ إِلَّا مَا رَوَاهُ إِخْوَانُنَا السُّنَّةُ
 الْمُخَالَفُونَ لَنَا فِي ذَلِكَ. وَلَمْ نَنْقُلْ إِلَّا مَا دَوَّنُوهُ فِي كُتُبِهِمْ وَأَثْبَتُوهُ فِي
 مَجَامِعِهِمْ، وَالْحَقُّ مَا اعْتَرَفَ بِهِ الْخَصْمُ، وَأَثْبَتَهُ الْمَوَافِقُ وَالْمُخَالَفُ.

* * *

عصمة الحسين عليه السلام

العصمة لغة المنع والحفظ، واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية، والمعصوم الممتنع من جميع محارم الله كما جاءت به الرواية^(١).

وهي في اصطلاح المتكلمين: لطف يفعل الله بصاحبها، لا يكون معه داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية، مع وجود القدرة عليها، فهي قوّة في النفس كالعدالة، إلّا أنّ العدالة لا ينافيها ارتكاب الصغائر مع عدم الإصرار عليها، والعصمة ينافيها ذلك.

وهي واجبة للأنبياء وأوصيائهم بضرورة في العقل والنقل، وخلاف من خالف في ذلك لا يلتفت إليه.

فما يُحدّث به الكتاب المسمّى بالتوراة، وكذلك المسمّى بالإنجيل، ممّا بأيدي اليهود والنصارى من نسبة بعض المعاصي إلى الأنبياء وحاشاهم، افتراء عليهم واضح. وما تذهب إليه المعتزلة من تجويز الصغائر على الأنبياء إمّا على سبيل السهو كما ذهب إليه بعضهم، أو على سبيل التأويل كما ذهب إليه قوم منهم، أو لأنّها تقع محبّطة بكثرة ثوابهم، مردود عليهم. وكذلك ما تذهب إليه الأشاعرة والحشوية من تجويز الصغائر والكبائر إلّا الكفر والكذب، وإلّا لكان ذلك إخلالاً ببيعائهم،

(١) راجع: معاني الأخبار: ١٣٢ / باب معنى عصمة الإمام / ح ٢.

قبيحاً على من جعلهم أنبياءً ورسلاً، وذلك أنَّ الغرض المقصود من بعثهم للعباد وإرسالهم إلى الخلق إرشادهم للطاعة، والأخذ بأيديهم للحق والعدل، ومنعهم من الخطأ في القول والفعل، ولو جاز عليهم الخطأ لانتفى ذلك الغرض.

أليس الواجب على الخلق اتباع الأنبياء؟ وإلا لما بعثوا، وقال في القرآن: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (آل عمران: ٣١)، فلو جاز عليهم المعصية لارتفعت الثقة بهم، ولو ارتكبوها لجاز لأتباعهم ارتكاب ما ارتكبه، فإذا الأمر باتباعهم يستلزم الأمر بالمعصية، وكلاهما نقض للغرض يقبح صدروه من أحد، واستحالة صدور القبيح من الله لا يحتاج إلى تجشم الاستدلال، ومن هنا قالت الإمامية الشيعة بوجوب عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر عمداً وسهواً.

قال الإمام العالم نصير الدين الطوسي في (تجريد الاعتقاد): (ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض، ولوجوب متابعتة)^(١).

وهو جارٍ في وجوب عصمة الإمام، ولأنَّ الغرض من نصبه حفظه للشرع، ولو جاز عليه الخطأ لارتفعت الثقة به فيمتنع حفظه له، ولأنَّ المقتضي لنصبه تجويز الخطأ على الرعية، ولو جاز عليه ذلك لاحتاج إلى إمام آخر، ويتسلسل أو ينتهي إلى إمام لا يجوز عليه الخطأ.

ومن هنا قلنا بوجوب النص عليه، فإن من شرط الإمام العصمة، وهي أمر نفسي لا يُعرف إلا من قبل الله أو من قبل سفراء المعصومين. فمدعي العصمة في شخص يلزمه إثباتها من أحد الطريقين: كتاب الله تعالى أو نصوص أحد المعصومين.

ولنا على ثبوتها للحسين عليه السلام كما كانت لجده وأبيه وأمّه وأخيه أدلة من الكتاب والسنة، فاستمع لما يُتلى عليك منها:

الدليل الأول: [آية التطهير]:

قول الله تعالى في آية التطهير من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

ووجه الاستدلال بها على عصمة أهل البيت عليه السلام أن المقصود بالرجس هنا الأعمال القبيحة والمآثم، وإرادة ذهابها عنهم تكوينية لا تشريعية، وإلا لذهب معنى الآية، والمقصود من إزالتها إيجاد السبب المانع منها، وهو العصمة، ودالته على عصمة الحسين عليه السلام اتفاق المسلمين إلا من شذ منهم، على أن المقصود بأهل البيت الذين نزلت الآية فيهم إنما هم الخمسة أصحاب الكساء: رسول الله ﷺ، وأخوه المرتضى، وابنته الزهراء، وسبطاه سيّد شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليه السلام.

وقد أورد الإمام جلال الدين السيوطي في تفسير هذه الآية من كتابه (الدرّ المنثور) عشرين رواية من طرق مختلفة في أن المراد من أهل البيت إنما هم الخمسة لا غير^(١).

وذكر ابن جرير في تفسيره خمس عشرة رواية بأسانيد مختلفة في قصر الآية عليهم بالخصوص^(٢).

وأثبت السيّد هاشم البحراني في كتابه (غاية المرام) إحدى

(١) راجع: الدرّ المنثور ٥: ١٧٩ - ١٩٩.

(٢) راجع: تفسير الطبري ٢٢: ٩ - ١٣ / ح ٢١٧٢٧ - ٢١٧٣٩.

وأربعين رواية بطرق مختلفة في بيان نزول الآية فيهم دون من سواهم، ذكرها بأسانيداً عن أحمد بن حنبل في مسنده، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، والثعلبي في تفسيره، والحميدي في الجمع بين الصحيحين، والشيخ أبي الحسن رزين بن معاوية العبدري السرقطي في الجمع بين الصحاح الستة، وأبي داود السجستاني في صحيحه، وموفق بن أحمد الخوارزمي في كتابه (فضائل أمير المؤمنين)، والشيخ إبراهيم الحموي في كتابه (فرائد السمطين)، وابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج، والمالكي في كتابه (الفصول المهمة)، وعبد الكريم بن روح في كتابه (المناقب الفاخرة)^(١).

ومما رواه عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وفي حسن وحسين وفاطمة عليها السلام»: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢).

ومما رواه عن صحيح البخاري ومسلم في باب فضائل أهل البيت: من ذلك ما عن عائشة، قالت: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مُحَرَّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣).

(١) راجع: غاية المرام ٣: ١٤١ - ١٩٢.

(٢) أنظر: تفسير الثعلبي ٨: ٤١؛ غاية المرام ٣: ١٨١.

(٣) صحيح مسلم ٧: ١٣٠؛ غاية المرام ٣: ١٨٠ و ١٨١.

ومما رواه عن الثعلبي أيضاً ما عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان في بيته، فأنته فاطمة بئمة^(١) فيها حريرة، فدخلت بها إليه، فقال لها: «ادعي زوجك وابنيك»، فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الحريرة، وهو وهم على منامة له على دكان تحته كساء خيري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده وأومى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فأدخلت رأسي في البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ»^(٢).

وأخرج هذا الحديث الإمام الواحدي في تفسير الآية من كتابه (أسباب النزول)^(٣)، فراجع.

وأخرجه ابن جرير في تفسير الآية من تفسيره الكبير^(٤).

وأخرجه الترمذي والحاكم وصحّاه^(٥).

وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عديدة، عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: في بيتي نزلت هذه الآية، وفي البيت علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فجلّاهم رسول الله ﷺ بكساء

(١) أي قدر. (راجع: الصحاح للجوهري ٥: ١٨٧٠ / مادة برم).

(٢) تفسير الثعلبي ٨: ٤٢؛ غاية المرام ٣: ١٨٢.

(٣) أسباب النزول: ٢٣٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢: ١٢ و١٣ / ح ٢١٧٣٩ بتفاوت.

(٥) سنن الترمذي ٥: ٣٠ و٣١ / ح ٣٢٥٨؛ مستدرک الحاكم ٢: ٤١٦.

كان عليه ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(١).

وغير خفي على ذي فهم ما في دلالة هذا الحديث من قصر الآية عليهم واختصاصها بهم، فإنه عليه السلام لم يكتف بالإشارة إليهم حتى جلّلهم بكسائه، قطعاً لطمع من يطمع بالاشتراك معهم، وردعاً لمن يريد أن يتقول عدم اختصاصها فيهم، فكان بذلك عليه السلام خير مبلغ وأفضل مبيّن.

ولا عبرة بعد هذا بلقلقة ألسنة المتحاملين على أهل البيت من صنائع بني أمية، ودعاة الخوارج الذاهبين إلى اختصاص الآية بنساء النبي عليه السلام، محتجّين على ذلك بالسياق، وهو أوهن من الخيال، وأضعف من الوهم.

شبهة حجية السياق في الآية:

وذلك أن السياق إنّما يكون حجة بشرطين:
الأوّل: أن يكون نزول الآيات على حسب ترتيبها.
الثاني: أن لا تقوم حجة على خلافه.

والأوّل ممنوع، والأدلة قائمة على ترتيب آيات القرآن في التدوين على خلاف ترتيبها في النزول. والشرط الثاني لا يمكن التفوّه بدعوى حصوله، وقد سمعت الأحاديث الصحاح المعلنة باختصاص الآية في أصحاب الكساء على خلاف ما يظهر من السياق.
ومع الغصّ عن هذا، كيف يخفى ظهور الآيات بالدلالة على أنّ

المقصود بأهل البيت غير نساء النبي ﷺ؟ ألا يرون كيف أن الله تعالى حيث كان يخاطب النساء يلقي إليهن الخطاب بنون النسوة كما تقتضيه القاعدة، مقروناً بالتهديد تارةً كما في قوله تعالى شأنه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وبالترغيب تارةً أخرى في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، وكما في قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، ثم أخذ في تعليمهن فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٠ - ٣٣).

ولمّا عدل عن الخطاب معهنّ إلى الخطاب مع أهل البيت عليه السلام جاء بميم الجمع، مقروناً بالتعظيم لهم، نافياً للرجس عنهم، مثبتاً طهارتهم، قائلاً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وكيف يجتمع ما في مدلول هذه الآية من معنى العصمة مع ما تقدّم من التهديد الصريح بجواز صدور الفاحشة من النساء؟ وهل يجوز صدور الفاحشة من معصوم؟ فتدبروا يا أولي الألباب.

ثم ما تروون في حديث الكساء من أمّ سلمة رضي الله عنها حينما أرادت الدخول معهم، أليس فيه دلالة بيّنة وآية واضحة على صرف الآية عن النساء؟

روى النبهاني في (ص ٧) من كتابه (الشرف المؤبد)، ما هذا لفظه: وقد ثبت من طرق عديدة صحيحة أن رسول الله ﷺ جاء ومعه

علي وفاطمة وحسن وحسين، قد أخذ كل واحدٍ منها بيده، حتّى دخل، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحدٍ على فخذه، ثم لفّ عليهم كساءً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ الخ.

قال النبهاني: قالت أمّ سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم، ف جذبته من يدي، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَى خَيْرٍ»^(١).

ثم ما كان من رسول الله ﷺ بعد نزول الآية قمع لكل مكابر، فقد ثبت أنّه ﷺ لازم المرور على بيت فاطمة بعد ذلك كلّما خرج إلى الفجر، مواظباً عليه ستّة أشهر فيقول: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ الخ»^(٢).

والبصير إذا عرف الصارفين آية التطهير عن أهلها هان عليه الخطب، وخفّ عنه ما يلقي من وطأة الخلاف لما هو للحقّ المبين.

قال بعض الأعلام: لكن حثالة من أعداء أهل البيت، وصنائع بني أميّة، ودعاة الخوارج، ذهبوا في صرف الآية عن أهلها كلّ مذهب، فقال بعضهم: إنّها خاصّة بنساء النبي ﷺ، وتشبّثوا في ذلك بسياق الآية، وبالنّكاح ومقاتل بن سليمان في الانتصار لهذا الرأى، والاستدلال بالسّياق عليه، وكان عكرمة ينادي به في الأسواق، تحاملاً على أصحاب الكساء.

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ٢: ٥٣٠، عن الشرف المؤبّد: ٧/ ط مصر.

(٢) راجع: مسند أحمد ٣: ٢٥٩؛ سنن الترمذي ٥: ٣١/ ح ٣٢٥٩؛ مستدرک الحاكم ٣:

١٥٨؛ مسند أبي داود: ٢٧٤؛ مسند أبي يعلى ٧: ٥٩/ ح ٣٩٧٨؛ وغيرها من المصادر.

قال: ولا عجب، فإنَّ عكرمة من الدعاة إلى عداوة علي، والسعاة في التضليل عنه بكلِّ طريق، وكان يرى تكفير أهل القبلة عدا الخوارج، وكان يقف على باب المسجد فيقول: ما فيه إلَّا كافر، وكان يرى رأي نجدة الحروري، ونجدة من أشدَّ الخوارج عداوةً لأمير المؤمنين عليه السلام، والذي نقله ياقوت الرومي في ترجمة عكرمة من معجمه أكثر ممَّا ذكرنا^(١)، وهذا القدر كفاية لمن أراد أن يقف على حال عكرمة. وأما مقاتل فقد كان عدوًّا لأمير المؤمنين عليه السلام أيضاً، وكان رأيه صرف الفضائل عنه، حتَّى افترض بذلك.

قال إبراهيم الحربي - كما في ترجمة مقاتل من وفيات ابن خلّكان - : قعد مقاتل بن سليمان فقال إطفاءً لنور أمير المؤمنين: سلوني عمًّا دون العرش، فقال له رجل: أخبرني من خلق رأس آدم حين حجَّ؟ فبهت^(٢). وقال الجوزجاني - كما في ترجمة مقاتل من ميزان الذهبى -: كان مقاتل كذاباً جسوراً، سمعت أبا اليمان يقول: قدم هاهنا فأسند ظهره إلى القبلة وقال: سلوني عمًّا دون العرش...، فقام إليه رجل فقال: أخبرني عن النملة أين أعاؤها؟ فسكت^(٣).

وذكر ابن خلّكان في الوفيات من هذا في ترجمة مقاتل شيئاً كثيراً إليك بعضه:

قال أبو عبد الرحمن النسائي: الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة: ابن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد،

(١) راجع: معجم الأدباء ١٢: ١٨١ / الرقم ٤٦.

(٢) وفيات الأعيان ٥: ٢٥٥ / الرقم ٧٣٣.

(٣) ميزان الاعتدال ٤: ١٧٤.

ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد ويُعرف بالمصلوب بالشام. وقال أبو حاتم محمد بن حيّان البستي: مقاتل بن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذي يوافق كتبهم، كان مشبهاً يشبه الربّ بالملخوقين... إلى آخر ما ذكره ابن خلكان في هذا المقام^(١).

وأقلّ من هذا كفاية، ولكن أوردنا ذلك تنبيهاً وتحذيراً لمن أراد الحقّ أن يتباعد عن آراء مثل هؤلاء، ويتثبت في الأمور، لئلا يقع في مزلقهم.

الدليل الثاني: [آية أولي الأمر]:

قوله تعالى في آية أولي الأمر من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

دلّت الآية على عصمة أولي الأمر، لاقتران طاعتهم بطاعة رسوله، فلو لم يكونوا معصومين لكان الأمر بطاعتهم أمراً بالمعصية، وذلك من الله محال، وللمفسّرين في بيان أولي الأمر من هذه الآية أقوال ثلاثة:

الأقوال في معنى أولي الأمر:

الأول: إنهم الأمراء، الثاني: إنهم العلماء، الثالث: إنهم خصوص الأئمة المعصومين من العلماء والأمراء من آل محمد ﷺ.

وروي الأوّل عن أبي هريرة، وابن عباس في إحدى الروايتين، وميمون بن مهران، والسدي، واختاره الجبائي والبلخي والطبري.

وروي الثاني عن جابر بن عبد الله، وابن عباس في الرواية الأخرى، ومجاهد، والحسن، وعطاء، وجماعة.

وروي الثالث عن الباقر والصادق عليهما السلام.

ورواه الشيخ إبراهيم الحموي بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

واستدّل للقول الأوّل بأنّ الولاية هم المخاطبون بقوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل، تنبيهاً على أنّ وجوب طاعتهم ما داموا على الحقّ؛ عن البيضاوي^(١).

وقال في الكشف عند تفسير الآية: (لَمَّا أمر الولاية بأداء الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم. والمراد بـ ﴿أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أمراء الحقّ، لأنّ أمراء الجور الله ورسوله بريئان منهم، فلا يُعْطَفُونَ على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم)^(٢).

واستدّل للقول الثاني بأنّ العلماء هم الذين يُرجع إليهم في الأحكام، ويجب الرجوع إليهم عند التنازع؛ عن مجمع البيان^(٣).

(١) تفسير البيضاوي ٢: ٢٠٥ و ٢٠٦.

(٢) تفسير الكشف ١: ٥٣٥.

(٣) تفسير مجمع البيان ٣: ١١٤.

أو لأنهم هم الذين يُعلّمون الناس الدين، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر؛ عن الكشاف^(١).

أو لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ عن البيضاوي^(٢).

أدلة القول الثالث:

واستدلّ للقول الثالث من وجوه ثلاثة:

الأوّل: بما روي عن رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين، والباقر، والصادق عليهم السلام^(٣).

الثاني: بأنّ الله أوجب طاعة أُولي الأمر بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلّا من ثبتت عصمته وعلم باطنه كظاهره وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل في الأمراء والعلماء سواهم.

ويُوضّح ذلك أنّ غير المعصومين تصدر منهم المعصية، ويختلفون في القول والفعل، ولا يجوز على الله أن يأمر بطاعة من يعصيه، ولا بالانقياد للمختلفين في القول والفعل، وذلك لأنّ الأمر بطاعة من يعصيه يتضمّن الأمر بمعصيته، وتكليف العباد بالانقياد للمختلفين في القول والفعل تكليف بما لا يُطيقون، وكلاهما مستحيل على الله تعالى.

(١) تفسير الكشاف ١: ٥٣٥.

(٢) تفسير البيضاوي ٢: ٢٠٦.

(٣) راجع: الكافي ٢: ٢١ / باب دعائم الإسلام / ح ٩، و٢: ١٤ و٤١٥ / باب أدنى ما يكون العبد به مؤمناً... / ح ١؛ الإمامة والتبصرة: ١٣٣ و١٣٤ / ح ١٤٥؛ الاعتقادات: ١٢١ و١٢٢.

الثالث: أن الله لم يقرن طاعة أولي الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته إلا وأولي الأمر فوق الخلق جميعاً، كما أن الرسول فوق أولي الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتَّفقت الأمة على علو رتبهم وعدالتهم.

تحقيق الموضوع:

قال المجاهد الأكبر الشيخ حبيب آل إبراهيم المهاجر (حفظه الله) في هذا الموضوع:

أقول: نسبة القول الثالث إلى القولين الأولين نسبة الخاص إلى العام، ومن المعلوم البين اجتماع العام والخاص في الخاص، فالأقوال الثلاثة مجتمعة في علي والحسن والحسين عليهم السلام، فإنهم علماء وأمراء، إلا أن أصحاب القولين الأولين يقولون: إنهم مقصودون في الآية باعتبار أنهم بعض مصاديق العام، لأنه يشملهم وغيرهم، وأصحاب القول الثالث يقولون: إنهم هم المقصودون لا غيرهم، فأصبح الكل متفقين على إرادتهم، وهم القدر المتيقن من إطلاق الآية، وغيرهم مشكوك فيه، واللفظ ليس فيه دلالة على أحدهما بخصوصه، والأصل يقضي بعدم إرادة الزائد على القدر المتيقن.

وآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] نزلت في علي عليه السلام حينما أخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة، فأمره الله بردها إليه بالاتفاق.

فالقول بأن المراد بأولي الأمر الولاية والأمراء كما في القول الأول، أو العلماء كما في القول الثاني، قول بغير حجة، وحكم بغير دليل، وكلما استدلوا عليه من ذلك إنما يعضد القول الثالث.

وبعد إقامة البرهان الجليّ على عدم جواز إرادة غير المعصوم لم يبق موضع للشبهة، ولا مجال للريب بأنّ المقصود من أولى الأمر إنّما هم الأئمة المعصومون من آل محمد سلام الله عليهم.

فإن قلت: أنت بصدد الاستدلال بالآية على عصمة الحسين عليه السلام، فما الوجه في دلالتها على ذلك؟

قلت: الآية دلّت على وجود المعصومين في الأئمة، وذلك أنّ الله تعالى أمر في الآية بطاعتهم، ولا يأمر الله بطاعة من هو غير موجود، وليس هم إلاّ الأئمة من آل محمد، والحسين سلام الله عليه أحدهم بلا ريب.

فإن قلت: لعلّ المعصومين في الأئمة غيرهم.
قلت: لم يدّعها أحد غيرهم، ولا ادّعت لأحد سواهم.

الدليل الثالث: آية الكون مع الصادقين:

قال الله تعالى شأنه في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

والمراد بالصادقين الأئمة المعصومين من آل محمد عليه السلام، والدليل

على ذلك من وجهين:

الأول: أنّه لا يجوز على الله تعالى شأنه أن يأمر بالكون مع أحد على وجه الإطلاق إلاّ أن يكون معصوماً من الخطأ، مأموناً عليه من المعصية، كما برهنّا عليه في الآية السابقة، والمعصومون إنّما هم الأئمة من آل محمد عليه السلام، وإذ أمر الله بالكون مع الصادقين في الآية عرفنا أنّهم هم المعنيون بها.

الثاني: ما عن ابن شهر آشوب من تفسير أبي يوسف يعقوب بن سفيان، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني محمداً وأهل بيته.

ومن كتاب (شرف المصطفى)، عن الحرکوشي، والكشف عن الثعلبي، قالاً: روى الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام في هذه الآية قال: «محمد وآله»^(١).

وما عن محمد بن الحسن الشيباني في (نهج البيان) في معنى الآية، قال: روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن الصادقين هاهنا هم الأئمة الطاهرون من آل محمد عليه السلام. قال: وروي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله سئل عن الصادقين هاهنا فقال: «هم علي وفاطمة وحسن حسين وذريتهم الطاهرون إلى يوم القيامة»^(٢).

وما عن ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني بإسناده إلى أبي نصر، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، قال: «الصادقون هم الأئمة عليهم السلام، الصديقون بطاعتهم»^(٣).

والأخبار في هذا أكثر من ذلك، وبهذا القدر كفاية.

والوجه من الاستدلال بهذه الآية على عصمة الحسين عليه السلام كالوجه الذي قدّمناه في الآية السابقة، وهو أن الآية دلّت على وجود المعصومين، وليس هم إلا الأئمة، والحسين أحدهم سلام الله عليهم أجمعين.

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨٨.

(٢) أنظر: غاية المرام ٣: ٥٢ و٥٣ / ح ٥ عنه.

(٣) الكافي ١: ٢٠٨ / باب ما فرض الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله من الكون مع الأئمة عليهم السلام / ح ٢.

الدليل الرابع: آية الاعتصام:

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ^(١٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا (آل عمران: ١٠٢ و ١٠٣).

عن الثعلبي في تفسيره بإسناده إلى أبان بن تغلب، وذكره في مجمع البيان، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: «نحن حبل الله الذي قال الله تعالى شأنه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾» ^(١).

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره، قال: في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَّمَ أَنَّهُمْ سَيَفْرَقُونَ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ وَيَخْتَلِفُونَ، فَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ كَمَا نَهَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَأَمْرُهُمْ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى وَلَايَةِ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا يَتَفَرَّقُوا» ^(٢).

وعن ابن شهر آشوب، عن محمد بن علي العنبري بإسناده عن النبي ﷺ أَنَّهُ سَأَلَهُ أَعْرَابِيٌّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ: «يَا أَعْرَابِي، هَذَا حَبْلُ اللَّهِ فَاعْتَصِمْ بِهِ»، فَدَارَ الْأَعْرَابِيُّ مِنْ خَلْفِ عَلِيٍّ عليه السلام وَاحْتَضَنَهُ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي قَدْ اعْتَصَمْتُ بِحَبْلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، قَالَ ابْنُ شَهْرٍ أَشُوبَ: وَرَوَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام ^(٣).

(١) تفسير الثعلبي ٣: ١٦٣؛ تفسير مجمع البيان ٢: ٣٥٦.

(٢) تفسير القمي ١: ١٠٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٧٣.

والغرض من الاعتصام التمسك بأوامر المعتصم به ونواهيه والسير على منهاجه، وما فعله الأعرابي لطيفة أراد بها سرور النبي ﷺ فسرَّ به وبشَّره، وتشبيهه بالحبل لأمان التمسك به من التردّي في مهاوي العذاب، كأمان التمسك بالحبل من التردّي.

وعن صاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة، عن أبي المبارك بإسناده إلى عبد الله بن العباس، قال: كنّا عند رسول الله ﷺ إذا جاء أعرابي، فقال: يا رسول الله، سمعتك تقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، فما حبل الله الذي نعتصم به؟ فضرب النبي ﷺ في يد علي عليه السلام، وقال: «تَمَسَّكُوا بهذا، فهذا هو الحبل المتين»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنّه قال: «أيّها الناس، إنّي قد تركت فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَيَّ الْخَوْضُ»^(٢).

والروايات في ذلك كثيرة.

والاستدلال بهذه الآية على عصمة الحسين عليه السلام مبنيٌّ على

مقدّمتين:

الأولى: أنّ الحسين عليه السلام أحد أهل البيت الذين أمر الله بالاعتصام بهم في الآية، وهذا ما أثبتته الرواية.

الثانية: أنّ كلّ من أمر الله بالاعتصام به فهو معصوم، وهذا ما ثبت بالبرهان العقلي الأنف الذكر، فنتج من هذين المقدّمتين أنّ الحسين

(١) أنظر: غاية المرام ٣: ٣٢ و٣٣ / ح ٣ عنه.

(٢) تفسير مجمع البيان ٢: ٣٥٦؛ بحار الأنوار ٢٤: ٨٣.

عليه السلام معصوم، وهذا من الأقيسة المنطقية على هيئة الشكل الأول الصحيح الإنتاج.

الدليل الخامس: حديث الثقلين:

ذكرنا سابقاً نصّ الحديث وأهميته وتواتره بين المسلمين، واستفدنا منه سابقاً على إمامة الحسين عليه السلام، وهنا نستدلّ به على عصمته، فنقول: دلّ هذا الحديث على عصمة أهل البيت، ومنهم الحسين عليه السلام من وجوه:

الأول: أن الله تعالى أوضح للناس على لسان رسوله ﷺ أن بالتمسك بالعترة أهل البيت علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام أمناً لهم من الضلال، وليس معنى التمسك بهم إلا الامتثال لما أمروا به والانتفاء عما نهوا عنه، والامتناع عما امتنعوا والجري على ما مضوا، فمن أخذ بأقوالهم وجرى على منوالهم فهو في أمن من الضلال، وهذا لا يكون إلا لمعصومين من الخطأ، ممتنعين بلطف الله من الزلل.

الثاني: أنه أنبأ ﷺ، ونبأه الصدق الذي لا ريب فيه، أن الله تعالى أنبأه أن العترة والقرآن لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، ومعنى هذا أن العترة لا تفارق القرآن بقول ولا عمل، والقرآن لا يفارق العترة بأمر ولا نهي، وهذا معنى العصمة، فتذكر.

فائدتان في الحديث:

ويستفاد منه فائدتان:

الأولى: أنه ليس لقائل أن يقول: حسبنا كتاب الله فإن بالتمسك به أمناً من الضلال كالتمسك بالعترة، فإنه يقال: ليس الأمر كما توهمت،

القرآن والعتره لن يفترقا، فالتمسك بحقائق القرآن مجمله ومفصلة تمسك بالعتره، وذلك أن القرآن لا يفارق العتره، والتمسك بأوامر العتره ونواهيها تمسك بالقرآن، وذلك أن العتره لا تفارق القرآن، والقرآن يهدي لطاعة العتره، والعتره ترشد لطاعة القرآن، والأمن من الضلال مترتب على التمسك بهما معاً.

الثانية: أن العتره باقية في الناس ببقاء القرآن، وذلك أن نفي الافتراق بينهما بـ (لن) التي معناها التأييد المصرح به بقوله: «حتّى يردا على الخوض»، يعطي الدلالة على بقاء العتره، وهذا هو الذي يذهب إليه أصحابنا الإمامية من عدم جواز خلوّ الأرض من حجة، وأنه الإمام المهدي، وهو حيّ منتظر، حسبما أوضحت الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

الثالث: أنه عليه السلام رتب الهلكة على المسابقة لهم والتقصير عنهم، ولو كانوا غير معصومين لم يكن في ذلك شيء من الهلكة، ألا ترى أن المتقدم على المخطئ بالطاعة سابق، والمقصر عمّا سبق إليه العاصي من المعصية ناجي؟ فلم يرتب الهلكة على المسابقة لهم، والتقصير عن الالتحاق بهم، إلا لكونهم معصومين، فلا جرم كانت المسابقة لهم والتقصير عنهم معصية، وفي المعصية الهلكة.

الرابع: لقد شهد عليه السلام في هذا الحديث بأعلمية أهل البيت عليهم السلام، والعلم أحد أدلة العصمة في الأنبياء، فإن من علم بالحكم وعلم بالعقوبة على مخالفته امتنع من المخالفة بلا ريب، وليس ارتكاب المحرمات إلا نتيجة من نتائج الجهل بآثارها، فمن علم وعمل والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، ورسول الله يقول: «ولا تعلّموهم

فإنَّهم أعلم منكم»، فهو الاستدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم، فإنَّ الامتناع عن معصية الله الذي هو معنى العصمة لازم من لوازم العلم بالعقوبة عليها، والحديث دلَّ على أعلمية أهل البيت بالمطابقة، فدلَّ على عصمتهم بالالتزام، والحسين عليه السلام أحدهم سلام الله عليهم جميعاً.

فإن قلت: ما شهد به رسول الله ﷺ لأهل البيت في الحديث إنما هو أعلميتهم على الأمة لا مطلقاً، ومن الجائز أن يكون هناك أحكام تجهلها الأمة ويجهلها أهل البيت، فتحصل المخالفة، وتبطل العصمة.

قلت: الحكم الذي تجهله الأمة هو ممَّا بيَّنه الله للأمة أم لم يبيَّنه؟ فإن كان ممَّا لم يبيَّنه فلا يُعذَّب عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تسعة أشياء: الخطأ والنسيان، وما لا يعلمون...» الحديث^(١)، وإن كان قد بيَّنه فقد علمته الأمة، وما علمته الأمة فقد علموه وزيادة.

الدليل السادس: حديث تشبيه أهل البيت بسفينة نوح:

قال رسول الله ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تأخر عنها هلك»^(٢)، وفي رواية أخرى: «إننا مثل أهل بيتي فيكم كمثـل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف غرق»^(٣).

(١) التوحيد للصدوق: ٣٥٣/ ح ٢٤.

(٢) العمدة لابن البطريق: ٣٥٩/ ح ٦٩٣.

(٣) غاية المرام ٣: ١٣ و ١٤.

وهذا من الأحاديث الصحاح المتفق على روايتها عند جميع المسلمين، رواه السيّد هاشم البحراني في الباب الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين من كتابه (غاية المرام)، عن أبي الحسن الفقيه المعروف بابن المغازلي الشافعي في كتابه المناقب، بأسانيد مختلفة من طرق متعدّدة، عن ابن عباس، وعن سلّمة بن الأكوع، عن أبيه، وعن أبي ذر، وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أيضاً، وعن سعيد بن المسيّب، عن أبي ذر كذلك.

ورواه عن الشيخ إبراهيم الحموي في كتابه (فرائد السمطين) عن أبي سعيد الخدري، وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي ذر، وعن الواحدي، عن الحاكم في صحيحه.

ورواه عن علي بن الصّبّاح المالكي في كتابه (الفصول المهمّة)، ورواه عن أبي الحسن بن شاذان عن ابن عباس، ورواه عن ابن بابويه في كتاب النصوص على الأئمّة الاثني عشر بالإسناد عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي ذر، وعن ابن عباس، ورواه عن الشيخ الطوسي في أماليه بالإسناد عن أبي ذر، وعن الشيخ المفيد في أماليه عن عبّاد بن عبد الله، وعن ابن الفثال في روضة الواعظين، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وعن سليم بن قيس الهلالي في كتابه، وعن الشيخ في أماليه بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه، وعن رافع مولى أبي ذر^(١).

قال الواحدي وهو من أعلام السّنة فيما رواه غاية المرام عن الشيخ إبراهيم الحموي في معنى الحديث: (أنظر كيف دعا الخلق إلى النسب إلى ولاتهم، والسير تحت لوائهم، بضرب مثلهم بسفينة نوح،

جعل ما في الآخرة من مخاوف الأخطار وأهوال النار كالبحر الذي لجَّ براكبه، فيورده مشارع المنيّة، ويفيض عليه سجال البليّة، وجعل أهل البيت عليه وعليهم السلام سبب الخلاص من مخاوفه، والنجاة من متافه، وكما يُعبّر البحر الهياج عند تلاطم الأمواج إلّا بالسفينة كذلك لا يأمن لفح الجحيم ولا يفوز بدار النعيم إلّا من توتّى أهل بيت الرسول صلوات الله عليه وعليهم، ونحل لهم ودّه ونصيحتا، وأكّد في موالاتهم عقيدته، فإنّ الذين تخلّفوا عن تلك السفينة آلوا شرّ مآل، وخرجوا من الدنيا إلى أنكال وجحيم ذات أغلال، وكما ضرب مثلهم سفينة نوح قرّنها بكتاب الله تعالى، فجعلهم ثاني الكتاب، وشفع التنزيل^(١).

أقول: معنى الحديث واضح، ولقد أجاد الواحدي فيما أفاد، والوجه في الاستدلال بالحديث على عصمة أهل البيت عليه السلام هو أنّ رسول الله ﷺ لم يُشبّههم بسفينة نوح المنجية، والمتمسّكين بهم بالراكين فيها الناجين، إلّا لأنّهم بلغوا من العلم درجة لا يخطئون بها الصواب، ومن التقوى مكانة لا يزيحون معها عن صراط العدل، وهذا معنى العصمة، ومن هنا كان في أمان من تمسّك بأقوالهم، وبمفازة نجاة من جرى على سبيلهم، وهذا المعنى يفهم من الحديث بأقل تأمل، ولا يحتاج إلى مزيد من هذا الإيضاح بعدما قدّمناه في الاستدلال على عصمة أهل البيت، ومنهم الحسين عليه السلام بالأدلة السابقة، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١٣)

فضل الحسين عليه السلام

قال في القاموس: (الفضل ضدُّ النقص)^(١)، وهو كذلك عرفاً، فهو كلّما يمتاز به الإنسان من كمال ويبرز به من حسن، ويشمل ذلك العلم والعدل والفقه والفهم والشجاعة والإباء والجود والسخاء والزهادة والعبادة والورع والتقوى، إلى غير ذلك ممّا يمتاز به الرجال، ويتفاضلون به بعضهم على بعض.

وعلى هذا فإنّي ذاكّر تحت هذا العنوان ما بلغه علمي، ودخل تحت قدرتي، ممّا ظهر به الحسين عليه السلام من فضل، وبرز به من كمال، والله الهادي إلى سواء السبيل.

فضله عليه السلام في علمه:

قال علي بن الصبّاح المالكي في كتابه (الفصول المهمّة) في باب علم الحسين عليه السلام وشجاعته:

(قال بعض أهل العلم: علوم أهل البيت لا تتوقّف على التكرار والدرس، ولا يزيد يومهم فيها على ما كان في الأمس.

أولاً: لأنّهم المخاطبون في أسرارهم، والمحدّثون في النفس، فسمي معارفهم وعلومهم بعيدة عن الإدراك واللمس، ومن أراد سترها كان

(١) القاموس المحيط ٤: ٣١ / مادّة (الفضل).

كمن أراد ستر وجه الشمس، وهذا ممَّا يجب أن يكون ثابتاً مقرَّراً في النفس، فهم يرون عالم الغيب في عالم الشهادة، ويقفون على حقائق المعارف في خلوات العبادة، وتناجيهم ثواب أفكارهم في وقت أذكَّارهم بما تسنَّموا به غارب الشرف والسيادة، وحصلوا بصدق توجَّههم إلى جناب القدس فبلغوا به منتهى السؤال والإرادة، فهم كما في نفوس أوليائهم ومحبيهم وزيادة، فما تزيد معارفهم في زمان الشيخوخة على معارفهم في زمن الولادة.

وثانياً: لهم مناقب واضحة الحجول بادية الغرر، ومزايا تشرق إشراق الشمس والقمر، وسجايا تُزيّن عيون التواريخ وعناوين الأثر، فما سألهم مستفيد أو ممتحن فوقفوا، ولا أنكر منكر أمراً من الأمور إلا علموا وعرفوا، ولا جرى معهم غيرهم في مضمار شرف إلا سبقوا وقصر محاورهم وتحلَّقوا، سُنَّة جرى عليها الذين تقدَّموا منهم وأحسن أتباعهم الذين خلفوا، وكم عانوا في الجدل والجلاد أموراً فبلغوها بالرأي الأصل والصبر الجميل فما استكانوا ولا ضعفوا، فبهذا وأمثاله سموا على الأمثال وشرفوا، تقرُّ الشقاشق إذا هدرت شقاشقهم، وتُصغي الأسماع إذا قال قائلهم أو نطق ناطقهم (...).

إلى أن قال: (وقد حلَّ الحسين عليه السلام من هذا البيت الشريف في أوجهِ وارتفاعه، وعلا محلُّه فيه علواً تطامنَّت النجوم عن ارتفاعه، واطَّلَعَ بصفاء سرِّه على غوامض المعارف فانكشفت له الحقائق عند اطلاعه، وصار صيته بالفضائل والفواضل فاستوى الصديق والعدو في استماعه...) (١) الخ.

وعن النهاية لابن الأثير في مادة (غرر)، قال: (غرَّ الطائر فرخه إذا زقه...، ومنه حديث ابن عمر وذكر الحسن والحسين عليهما السلام فقال: إننا كنا يغرّان العلم غرّاً)^(١).

وفي (مدينة المعاجز): عن حذيفة يقول: سمعت الحسين بن علي عليه السلام يقول: «والله ليجتمعنَّ علي قتلي طغاة بني أمية يقدمهم عمر بن سعد»، وذلك في حياة النبي ﷺ، فقلت له: أنباك بهذا رسول الله ﷺ؟ فقال: «لا»، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «علمه علمي، وإنه لأعلم بالكائن قبل كينونته»^(٢).

وعنه، بالإسناد إلى حمزة بن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: ذكرنا خروج الحسين عليه السلام وتخلّف ابن الحنفية عنه، فقال: «يا حمزة، إنّي سأحدثك من هذا الحديث بما لا تشكُّ فيه بعد مجلسنا هذا، إنّ الحسين عليه السلام لمّا فصل متوجّهاً إلى العراق دعا بقرطاس وكتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أمّا بعد فإنّه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلّف عني فإنّه لم يبلغ الفتح، والسلام»^(٣)، ومعناه أنّ من تخلّف طمعاً بنيل الملك بعد فتح بني أمية بعدي فإنّه لم يبلغه.

وعن ثقة الإسلام الكليني، بالإسناد إلى حبابة الوالبيّة، قالت: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام في شرطة الخميس، فقلت له: ما دلالة الإمامة يرحمك الله؟ قالت: فقال: «أئتيني بتلك الحصاة» وأشار بيده إلى حصاة،

(١) النهاية في غريب الحديث ٣: ٣٥٧/ مادة (غرر).

(٢) مدينة المعاجز ٣: ٤٥٣/ ح (٢٥/٩٧٢).

(٣) مدينة المعاجز ٣: ٤٦١/ ح (٣١/٩٧٨).

فأتيته بها فطبع لي فيها بخاتمه، ثم قال لي: «يا حبابة، إذا ادّعى مدّع الإمامة فقدّر أن يطبع كما رأيت فاعلمي أنّه إمام مفترض الطاعة، والإمام لا يعزب عنه شيء يريد...»، إلى أن قالت: ثم أتيت الحسين عليه السلام وهو في مسجد رسول الله ﷺ فقرب ورحب، ثم قال لي: «إنّ في الدلالة دليلاً على ما تريد، أفتريدين دلالة الإمامة؟»، فقلت: نعم يا سيّدي، فقال: «هاقي ما معك» فناولته الحصة فطبع لي فيها... الخ^(١).

وعن محمد بن الحسن الصفّار في (بصائر الدرجات)، وسعد بن عبد الله القمّي، والمفيد في (الاختصاص)، واللفظ للمفيد، كلّهم روى عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال الحسن عليه السلام: إنّ الله مدينتين أحدهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سور من حديد، وعلى كلّ مدينة ألف ألف باب مصراعين من ذهب، وفيها ألف ألف لغة تتكلّم كلّ لغة بخلاف لغة صاحبها، وأنا أعرف جميع اللغات، وما فيها، وما عليهما حجة غيري، وغير أخي الحسين عليه السلام»، وكذلك ذكر الطريحي أيضاً في مادة (لغا) من مجمعه، وجاءت أيضاً هذه الرواية في أصول الكافي في باب مولد الحسن عليه السلام^(٢).

ولعلّ قارئاً يقول هنا: كيف ذلك والدول في هذا العصر لم تترك مغلقاً إلّا فتحته، ولا مكاناً إلّا اكتشفته، حتّى حاولت الصعود إلى القمر.

(١) الكافي ١: ٣٤٦ و ٣٤٧ / باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل... / ح ٣.

(٢) راجع: بصائر الدرجات: ٣٥٩ / ج ٧ / باب ١٢ / ح ٤؛ الاختصاص: ٢٩١؛ مجمع البحرين

٤: ١٢٨ / مادة (لغا)؛ الكافي ١: ٤٦٢ / باب مولد الحسن بن علي عليه السلام / ح ٥.

فنقول: بالأمس ذكرت بعض الجرائد دخول طيارتين إفرنسييتين إلى اليمن، فتوغّلت فيها حتّى انتهت إلى مدينة سبأ التي ذكرتها الكتب الإلهية، وكانت معجبة بذلك، لأنّه شيء لم يكن اكتُشف قبل هذا، ولا أحاطت الدول العصرية به علماً، فمن كان جاهلاً بهذا وأمثاله ممّا هو في وسط المعمورة، فهو بغيره ممّا في أطرافها أجهل^(١).

(١) إنّ أوّل من فكّر في كشف آثار آبائنا العرب مثل ثمود وسبأ وحير ومعين ولحيان وأمثالها إنّما هو الألمان في أواسط القرن الثاني عشر، وما دعاهم إلى ذلك إلّا ما كان يسمعه علماء الغرب في أسفارهم إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ومصر، وما تتناقله السنة أهل شواطئ اليمن وحضرموت، إذ يقولون: عندنا آثار مدفونة عليها كتابات لا نعرفها.

وأوّل من فكّر في ذلك العالم (ميخايلس)، وهو عالم ألماني توفّي سنة (١٧٩١م)، وهو الذي اقترح على (فردريك الخامس) ملك الدنمارك سنة (١٧٥٦م) تأليف لجنة للبحث عن تلك المدائن لذكرها في التوراة تحقيقاً للعلم، وكان الرجل فيلسوفاً عالماً عظيماً، فأرسل الملك المذكور جماعة، فماتوا إلّا رجلاً يُسمّى (نيبوه)، كتب كتاباً عن بلاد اليمن التي هي المقصود بالذات، وانتشر في أوروبا.

ثمّ سافر (رتسن) الألماني سنة (١٨١٠م) إلى اليمن، فعثر على مدينة ظفار، وبعد ذلك تنبّه الإنكليز، فأوّل الباحثين الألمان، فالإنكليز، فالفرنسيون، وهم أوسع مجالاً، ومنهم العلامة (هاليني) سنة (١٨٦٩م) بلغ مأرب، ورجع معه (٦٨) نقشاً، وقد مرّ ببلاد الجوف التي هي قرب صنعاء، وأهل صنعاء لا يعلمون بها.

ثمّ ذهب (إدوارد غلازر) إلى اليمن، وهو عالم ألماني، فوصل إلى مأرب، ونقل معه ألف نقش، وفيها كيفية بناء سدّ مأرب وإصلاحه.

ولقد أصبحت متاحف أوروبا الآن ملاء بآثار اليمن، بعضها منقوش على الحجر، وبعضها على البرونز، وبعضها منقول بالرسم أو بالطبع، يزيد عددها على ألفين.

هذا ملخّص ما وصل لنا الآن من الكشف، واهتمام أوروبا بالبحث في علوم العرب آبائنا وآثارهم، لأنّه ورد ذكر هذه الآثار في التوراة وفي القرآن.

ثم نعود إلى ذكر ما روي في علم الحسين عليه السلام، فنقول:

وروى صاحب مدينة المعاجز بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت علي بن الحسين سيّد العابدين عليه السلام يقول: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي اسْتَشْهَد فِيهِ أَبِي جَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ فِي لَيْلَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَهْلِي وَشِيعَتِي، اتَّخِذُوا هَذَا اللَّيْلَ جَمَلًا لَكُمْ، فَانْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ، فَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ غَيْرِي، وَلَوْ قَتَلُونِي مَا فَكَّرُوا فِيكُمْ، فَانْجُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَأَنْتُمْ فِي حُلٍّ وَسَعَةٍ مِنْ بَيْعَتِي وَعَهْدِي الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي عَلَيْهِ. فَقَالَ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُهُ وَأَنْصَارُهُ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ: وَاللَّهِ يَا سَيِّدَنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَا خَذْلَنَّاكَ أَبَدًا، وَاللَّهِ لَا قَالَ النَّاسُ: تَرَكُوا إِمَامَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ وَسَيِّدَهُمْ وَحَدَّهُ حَتَّى قُتِلَ، وَنَبَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ عِذْرًا، لَا نَخْلِيكَ أَوْ نُقَتِّلَ دُونَكَ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْم، فَإِنِّي

عَجَبًا كُنَّا نَقْرَأُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَارَ عَادٍ وَثُمُودَ، فَنَمُرُّ عَلَيْهَا مَرًّا الْكَرَامَ، كَأَنَّ عَادًا لَيْسُوا مِنْ أَسْلَافِنَا، وَكَأَنَّ ثُمُودًا لَيْسَتْ مَسَاكِنُهَا فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ. وَيَا لَيْتَ شَعْرِي، كَيْفَ بَحِثَ الْغَرِيبُونَ عَنْهَا وَنَحْنُ نَائِمُونَ، وَيَدْرُسُونَ أَثَارَنَا وَنَحْنُ غَافِلُونَ، بَلْ يَبْحِثُونَ عَنْ مَعَانِي كِتَابِنَا الْمَقْدَسِ وَنَحْنُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ سَاهُونَ لَاهُونَ؟

عن هذا وأمثاله نامت أمة الإسلام، فعلى مجدهم فليكسوا، وعلى بلادهم فليحزنوا، للجهالة العمياء والبلاهة الغبراء، والنومة الشوهاء السوداء، ولعلّه قد آن أوان استيقاظهم، والله بكلّ شيء محيط.

نام المسلمون واستيقظ الغريبون، وأخذوا يحلّون الرموز، ويكشفون الكنوز، وقرأوا التوراة، قرأوا فيها آثار اليمين، فهاموا بالآثار، والمسلمون قرأوها في القرآن، قرأوها في سورة سبأ، فلم يلقوا لها بالاً.

وبالجملة فإنّ في متاحف أوروبا اليوم عدداً كبيراً من آثار بلاد الإسلام تزيد على ألفين، قد نُشِرَ منها كثير في المجلّات الألمانية والفرنسية والإنكليزية.

هذه صورة ما كشفه الأوروبيون من آثار الإسلام، ذكرتها ليتفطن المسلمون، وتقوم فيهم النخوة والحمية، وليكونوا أمة عالية الشأن، وليغاروا على مجدهم ودينهم. (المؤلف رحمه الله).

في غد أُقْتَل وتُقتلون كلَّكم معي، حتَّى لا يبقَى منكم أحد. فقالوا: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرَّفنا بالقتل معك...».

إلى أن قال: «فقال له القاسم بن الحسن عليه السلام: وأنا فيمن يُقتل؟ فأشفق عليه. فقال له: يا بني، كيف الموت عندك؟! قال: يا عم، أحلى من العسل. فقال: إي والله فذاك عمك، إنَّك لأحد من يُقتل من الرجال معي، بعد أن تبلو ببلاء عظيم، وابني عبد الله. فقال: يا عم، ويصلون إلى النساء حتَّى يُقتل عبد الله وهو رضيع؟ فقال: فذاك عمك، يُقتل عبد الله إذا جفَّت روعي عطشاً، وصرت إلى خيمتنا، فطلبت ماءً ولبناً، فلا أجد، فأقول: ناولوني ابني...»^(١).

ومثل هذا كثير، وليس الغرض من نقل هذه الأحاديث إلا الدلالة على غزارة علم الحسين عليه السلام وامتيازه بما امتازت به الأنبياء وأوصياء الأنبياء عليهم السلام من الأخبار بما هو كائن، وليس هو من علم الغيب في شيء، وإنَّما هو علم علَّمه الله آل محمَّد عليهم السلام، ولقد ذكر الله لنا من قصَّة وصيِّ سليمان وجلبه عرش بلقيس ما يصغر عنده ما ذكرناه للحسن والحسين عليهما السلام أفضل منه.

في تلقّيه بالإرث علم النبيين:

ورث الحسين عليه السلام علم الأنبياء وأوصيائهم، تلقّاه عن الله، وعن جدّه رسول الله، وعن أبيه أمير المؤمنين، وعن أمّه فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين عليها السلام.

وما رواه الكردي في مناقب أبي حنيفة من أنَّ علياً عليه السلام أمر عبد

الرحمن السلمي أن يُعَلِّمَ الحسين عليه السلام القرآن لا صحّة له، ولم يُعَلِّمَ من هو عبد الرحمن، ولقد أجمع أهل العلم على أنّه لم يكن لهما معلّم، والحديث في ذلك كثير وإليك بعضه.

قال في (غاية المرام): أسند ابن مردويه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، إلى علي عليه السلام أنّه قال: «هم نحن»^(١).

وروي عن محمد بن الحسن الصفّار بالإسناد إلى سورة بن كليب، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: «السابق بالخيرات الإمام، فهي في ولد علي وفاطمة عليهما السلام»^(٢).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام فيما نقله ابن أبي الحديد في شرح النهج (مج ١ / ص ٤٥): «لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يُسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يُلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة».

قيل: هي وراثة العلم، قال ابن أبي الحديد: (فالإماميّة يحملونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم)^(٣).

وعنه في شرح النهج، قال: (سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي

(١) غاية المرام ٣٦: ٤ / الباب ٥١.

(٢) بصائر الدرجات: ٦٥ / ج ١ / باب ٢١ / ح ٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١: ١٣٨ و ١٣٩.

(٤) شرح نهج البلاغة ١: ١٤٠.

زيد، فقلت له: من أي طريق عرف بنو أمية أن الأمر سينتقل عنهم، وأنه سيليهم بنو هاشم، وأول من يلي يكون اسمه عبد الله؟ ولم منعوهم عن مناكحة الحرث بن كعب لعلمهم أن أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمه جارية؟ وبأي طريق عرف بنو هاشم أن الأمر سيصير إليهم، ويملكه عبيد أولادهم، حتى عرفوا صاحب الأمر منهم، كما جاء في هذا الخبر؟ فقال: أصل هذا كله محمد بن الحنفية، ثم ابنه عبد الله المكنى أبا هاشم. قلت له: أفكان محمد بن الحنفية مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام؟ قال: لا، ولكنهما كتما وأذاع. ثم قال: قد صحت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث، أن علياً عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام، فقال لهما: اعطيانى ميراثي من أبي، فقالا له: قد علمت أن أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء، فقال: قد علمت ذلك، وليس ميراث المال أطلب، إنما أطلب ميراث العلم. قال: قال أبو جعفر: فروى أبان بن عثمان عمن روى له ذلك، عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: «فدفعاً إليه صحيفة، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك، فيها ذكر دولة بني العباس...»^(١).

وروى ثقة الإسلام الكليني في باب أن الأئمة ورثوا علم النبي ﷺ وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم: روى علي بن إبراهيم بإسناده إلى عبد الله بن جندب أنه كتب إليه الرضا عليه السلام: «أمّا بعد، فإنّ محمداً كان أمين الله في خلقه، فلما قبض ﷺ كُنّا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه...»^(٢) الخ.

وروي فيه أيضاً عن أحمد بن إدريس بالإسناد إلى ضريس

(١) راجع: شرح نهج البلاغة ٧: ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) الكافي ١: ٢٢٣ / باب أن الأئمة ورثوا علم النبي... / ح ١.

الكناسي، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده أبو بصير، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنَّ داود ورث علم الأنبياء، وإنَّ سليمان ورث داود، وإنَّ محمداً ورث سليمان، وإنَّا ورثنا محمداً ﷺ، وإنَّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى...»^(١) الخ.

والبصير يعرف من مجموع ما نقلناه في هذا الباب جلاله الحسين عليه السلام في علمه، ويكتفي بهذا القدر عمّا سواه، ولقد ذكر بعض المؤلفين في هذا المقام أموراً كثيرة، منها: الجفر الجامع، ومصحف فاطمة عليها السلام، وغير ذلك ممّا يدلُّ على سعة علوم أهل البيت عليه السلام. ولا ريب أنَّ المتتبّع يرى ويبصر أكثر من ذلك، إلّا أنَّ لكلِّ واحدٍ من هذه العناوين مقاماً يناسبه، وموضعاً هو أملك به من هذا المقام.

جاء في كتاب (العوالم) عن أبي سلمة، قال: حججت مع الثاني، فلما صرنا بالأبطح فإذا بأعرابي قد أقبل علينا، فقال: يا أمير المؤمنين، إني خرجت وأنا حاجٌّ محرم، فأصبت بيض النعام، فاجتنيت وشويت وأكلت، فما يجب عليّ؟ قال: ما يحضرني في ذلك شيء، فاجلس لعلَّ الله يُفَرِّجَ عنك ببعض أصحاب محمّد ﷺ، فإذا أمير المؤمنين علي قد أقبل والحسين عليه السلام يتلوّه. فقال الثاني: يا أعرابي هذا علي بن أبي طالب، فدونك ومسألتك، فقام الأعرابي وسأله، فقال علي عليه السلام: «يا أعرابي، سَلْ هذا الغلام عمّاً عندك» يعني الحسين عليه السلام. فقال الأعرابي: إنّما يحيلني كلُّ واحدٍ منكم على الآخر! فأشار الناس إليه: ويحك هذا ابن رسول الله فسأله، فقال الأعرابي: يا بن رسول الله، إني خرجت من بيتي

حاجاً محرماً، وقصَّ عليه القصة. فقال له الحسين عليه السلام: «ألك إبل؟»، قال: نعم، قال: «خذ بعدد البيض الذي أصبت نوقاً، فاضربها بالفحولة، فما فُصِلَتْ فاهدها إلى بيت الله الحرام»، قال الثاني: يا حسين، النوق يزلقن، فقال الحسين عليه السلام: «يا عمر، إنَّ البيض يمرقن»، فقال: صدقت وبررت، فقام علي عليه السلام فضمَّه إلى صدره وقال: «﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]»^(١).

وجاء في المجلد (٦١) من البحار (ص ٢٧ / ط الحديثه)^(٢):

روي أنَّ الحسين عليه السلام سُئِلَ في حال صغره عن أصوات الحيوانات، لأنَّ من شروط الإمام أن يكون عالماً بجميع اللغات حتَّى أصوات الحيوانات، فقال على ما روى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن الحسين عليه السلام أَنَّهُ قال:

«إذا صاح النسر فأنَّه يقول: يا ابن آدم عش ما شئت فأخره الموت. وإذا صاح البازي يقول: يا عالم الخفيات ويا كاشف البليات. وإذا صاح الطاووس يقول: مولاي ظلمت نفسي، واغتررت بزينتتي، فاغفر لي. وإذا صاح الدراج يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وإذا صاح الديك يقول: من عرف الله لم ينسَ ذكره. وإذا قرقرت الدجاجة تقول: يا إله الحقِّ، أنت الحقُّ، وقولك الحقُّ، يا الله يا حقُّ. وإذا صاح الباشق يقول: آمنت بالله واليوم الآخر. وإذا صاحت الحداة تقول: توكلَّ على الله تُرزق. وإذا صاح العقاب يقول: من أطاع الله لم

(١) العوالم، الإمام الحسين عليه السلام: ٦٠ / باب علمه عليه السلام / ح ٢.

(٢) عن الخرائج والجرائح ١: ٢٤٨ - ٢٥٢ / ح ٥.

يشق. وإذا صاح الشاهين يقول: سبحان الله حقاً حقاً. وإذا صاحت البومة تقول: البعد من الناس أنس. وإذا صاح الغراب يقول: يا رازق، ابعث الرزق الحلال. وإذا صاح الكركي يقول: اللهم احفظني من عدوي. وإذا صاح اللقلق يقول: من تحلى عن الناس نجا من أذاهم. وإذا صاح البطّة تقول: غفرانك يا الله. وإذا صاح الهدهد يقول: ما أشقى من عصي الله. وإذا صاح القمري يقول: يا عالم السرّ والنجوى، يا الله. وإذا صاح الدبسي يقول: أنت الله لا إله سواك، يا الله. وإذا صاح العقق يقول: سبحان من لا يخفى عليه خافية. وإذا صاح الببغاء يقول: من ذكر ربّه غفر ذنبه. وإذا صاح العصفور يقول: أستغفر الله ممّا يُسخط الله. وإذا صاح البلبل يقول: لا إله إلا الله حقاً حقاً. وإذا صاحت القبجة تقول: قرب الحقّ قرب. وإذا صاحت السمّانات تقول: يا ابن آدم، ما أغفلك عن الموت. وإذا صاح السوذيقي يقول: لا إله إلا الله، محمّد وآله خيرة الله. وإذا صاحت الفاخنة تقول: يا واحدياً واحدياً فرد يا صمد. وإذا صاح الشقراق يقول: مولاي أعتقني من النار. وإذا صاحت القنبرة تقول: مولاي تب على كلّ مذب من المذنبين. وإذا صاح الورشان يقول: إن لم تغفر ذنبي شقيت. وإذا صاح الشفنين يقول: لا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وإذا صاحت النعامة تقول: لا معبود سوى الله. وإذا صاحت الخطافة فإنّها تقرأ سورة الحمد وتقول: يا قابل توبة التوّابين، يا الله لك الحمد. وإذا صاحت الزرّافة تقول: لا إله إلا الله وحده. وإذا صاح الحمل يقول: كفى بالموت واعظاً. وإذا صاح الجدي يقول: عاجلني الموت، ثقل ذنبي وازداد. وإذا صاح الأسد يقول: أمر

الله مهمّ مهمّ. وإذا صاح الثور يقول: مهلاً مهلاً يا ابن آدم أنت بين يدي من يرى ولا يرى وهو الله. وإذا صاح الفيل يقول: لا يغني عن الموت قوّة ولا حيلة. وإذا صاح الفهد يقول: يا عزيز يا جبار يا متكبر يا الله. وإذا صاح الجمل يقول: سبحان ربّنا سبحانه. وإذا صاح الذئب يقول: ما حفظ الله لن يضيع أبداً. وإذا صاح ابن آوى يقول: الويل الويل للمذنب المصّرّ. وإذا صاح الكلب يقول: كفى بالمعاصي ذلاً. وإذا صاح الأرنب يقول: لا تهلكني يا الله لك الحمد. وإذا صاح الثعلب يقول: الدنيا دار غرور. وإذا صاح الغزال يقول: نجّني من الأذى. وإذا صاح الكركدن يقول: أغثني ولا هلكت يا مولاي. وإذا صاح الإبل يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله. وإذا صاح النمر يقول: سبحان من تعزّز بالقدرة سبحانه. وإذا سبّحت الحيّة تقول: ما أشقى من عصاك يا رحمن. وإذا سبّحت العقرب تقول: الشرّ شيء وحش».

فضله في شيء من كلامه عليه السلام:

الفصاحة خاصّة العرب، وميزتهم التي امتازوا بها، وأفصح العرب محمّد ﷺ، ثمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسين فرع من تلك الشجرة، والغصن النضير من ذلك الدوح.

فعن أبي هلال العسكري في كتاب (الصناعتين)^(١)، قال: (يجوز أن يسمّى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيّد السبك، غير مستكره فجّ، ولا متكلّف وخم، ولا يمنعه من أحد

الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف، وشهدت قوماً يذهبون إلى أنَّ الكلام لا يُسمَّى فصيحاً حتَّى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة، فيكون مثل قول النبي ﷺ: «ألا إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، ومثل كلام الحسين عليه السلام: «إنَّ الناس عبيد الأموال، والدين لغو على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت به معاشتهم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قلَّ الديَّانُونَ».

فانظر كيف يجعلون كلام الحسين عليه السلام المثل الأعلى لما يقصدون، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ هذه صفة لا يُنازع فيها أهل البيت أحد، ولا يجاريهم فيها عربي، وقد منح الله الحسين عليه السلام أعنة الحكمة وفصل الخطاب، فكانت تتدفَّق على لسانه سيول من الحكمة والموعظة والآداب والأمثال السائرة، وإليك القصار من كلماته عليه السلام المليئة حكمةً وفصاحةً.

من دعائه عليه السلام في يوم عرفة:

«إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَعْرِفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ»^(١).

ومنه: «إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِّلُنِي إِلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وَجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُونَ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ، مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بُعِدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً، وَخَسِرْتَ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً»^(٢).

(١) بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق.

ومن دعائه أيضاً في يوم عرفة: «أَنَا ذَا يَا إِلَهِي بَيْنَ يَدَيْكَ يَا سَيِّدِي خَاضِعٌ ذَلِيلٌ حَصِيرٌ حَقِيرٌ لَا دُوَّ بَرَاءَةٍ فَأَعْتَذِرُ، وَلَا دُوَّ قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرُ، وَلَا حُجَّةٍ فَأُحْتَجَّ بِهَا، وَلَا قَائِلٌ لَمْ أَجْتَرِحْ وَلَمْ أَعْمَلْ سُوءاً...، وَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا تَجُورُ، وَعَدْلُكَ مُهْلِكِي، وَمَنْ كُلُّ عَدْلِكَ مَهْرَبِي، فَإِنْ تُعَذِّبْنِي يَا إِلَهِي فِدُنُّوْبِي بَعْدَ حُجَّتِكَ عَلَيَّ، وَإِنْ تَعْفُ عَنِّي فِحِلْمِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْخَائِفِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْوَجِلِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الرَّاجِينَ»^(١).

هذه حروف و كلمات، أو وحي وعبارات، أو صلاة واستغفار ودعاء واعتذار، إنها نشوة غاب معها الحسين عليه السلام عن كل شيء حتى عن نفسه، وما رأى إلا الواحد الأحد الذي هو أقرب إليه من جبل الوريد، وإذن كيف وبماذا يعتذر وقد نسي العلم والعمل؟ وبأي شيء يحتج وحجة الله أقوى وأعظم؟ وبأي قوة يذب ويدافع ولا حول ولا قوة إلا بالله؟ فلم يبق إلا الهرب من العدل إلى الرحمة، وأي شيء أحسن وأجل من أن يفر العبد من غضب سيده إلى لطفه وحلمه؟ بخاصة إذا كان السيد يذكّر عباده دائماً برحمته وتجاوزه لينالوا منها ما يشاؤون، ولنفترض أن الحسين عليه السلام تذكّر وذكر العلم والعمل والقتال والقتل في سبيل الله، وجرى الحساب وقضى العدل بالأجر والتعويض، فهل

تكون النتيجة أكثر من عملية حسابية تجارية تقوم على أساس المعاوضة والمبادلة، أو عملية امتحان ووضع علامات؟ وهيهات أن يرضى الحسين بمعاملة التاجر والتلميذ، وتأبى عظمته إلا وسام الشرف والتقدير ممن بيده الضر والنفع والخفض والرفع، وهنا مكان العزة والجلال.

ومن دعائه وقد التزم الركن الأسود: «إلهي نَعَمْتَنِي فلم تجدني شاكرًا، وابتليتني فلم تجدني صابرًا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم»^(١).

ومنه لَمَّا صَبَّحَتْهُ الْخَيْلُ يَوْمَ الْطُفِّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ ثَقَيْتَ فِي كُلِّ كَرْبٍ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ نَزْلُ ثِقَةٍ وَعِدَّةٍ، كَمْ مِنْهُمْ يَضْعَفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقَلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيُخْذَلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْتُمُ فِيهِ الْعَدُوُّ، وَأَنْزَلْتَهُ بِكَ، وَشَكْوَتُهُ إِلَيْكَ، رَغْبَةً مِنِّْي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ وَكَفَيْتَنِيهِ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ»^(٢).

ومنه لَمَّا سَقَطَ يَوْمَ الْطُفِّ رَمَقَ السَّمَاءُ بِطَرْفِهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ مَتَّعَالِ الْمَكَانِ، عَظِيمِ الْجَبُرُوتِ، شَدِيدِ الْمَحَالِ، غَنِيٌّ عَنِ الْخَلَائِقِ، عَرِضُ الْكِبَرِيَاءِ، قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ، قَرِيبُ الرَّحْمَةِ، صَادِقُ الْوَعْدِ، سَابِغُ النِّعْمَةِ، حَسَنُ الْبَلَاءِ، قَرِيبٌ إِذَا دُعِيتَ، مُحِيطٌ بِمَا خُلِقْتَ، قَابِلُ التَّوْبَةِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْكَ، قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَدْتَ، تَدْرِكُ مَا طَلَبْتَ، شَكُورٌ إِذَا شُكِرْتَ، ذَكُورٌ إِذَا ذُكِرْتَ، أَدْعُوكَ مُحْتَاجًا، وَأَرْغَبُ إِلَيْكَ فَقِيرًا، وَأَفْزَعُ إِلَيْكَ خَائِفًا، وَأُبْكِي

(١) بحار الأنوار ٩٦: ١٩٧ و ١٩٨ / ح ١٣.

(٢) الإرشاد ٩٦: ٢.

مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً، اللهم احكم بيننا وبين قومنا، فإِنَّهم غرونا، وخذلونا، وغدروا بنا، وقتلونا، ونحن عترة نبيك، وولد حبيبك محمد الذي اصطفيته بالرسالة، واثمته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، يا أرحم الراحمين»^(١).

ومن كلامه عليه السلام مع نافع الأزرق وقد قال له نافع وكان خارجياً: صف لي إلهك الذي تعبد. فقال عليه السلام: «يا نافع، إنَّ من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس، سائلاً إذا كبا عن المنهاج، ظاعناً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه، وأعرِّفه بما عرَّف به نفسه، لا يُدرَك بالحواس ولا يُقاس بالناس، فهو قريب غير ملتصق وبعيد غير منتقص، يُوحَّد ولا يُعْبَض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال».

فبكى ابن الأزرق وقال: ما أحسن كلامك. قال له الحسين: «بلغني أنَّك تشهد على علي أبي وعلى أخي بالكفر وعلي»، قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام. فقال له الحسين: «إني أسألك عن مسألة»، قال: سل. فسأله عن هذه الآية: ﴿أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، فقال عليه السلام: «يا ابن الأزرق، من حَفِظَ في الغلامين؟»، قال: أبوهما. قال الحسين: «أبوهما خير أم رسول الله ﷺ؟»، يعني عليه السلام أنَّ الرجل يُحَفِظ في غلاميه ولا يُحَفِظ رسول الله في ذريته؟ فقال ابن الأزرق - تأمل في هذا الجواب ما أجفاه وأغلظه وأعظمه كذباً على الله -

، قال: قد أنبأنا الله تعالى عنكم أنكم قوم خصمون^(١)، يشير بذلك إلى ما افتراه هو وقومه على الله من أنه أنزل في أمير المؤمنين علي عليه السلام: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤).

ومن كلامه عليه السلام في الرضا:

قال عليه السلام وقد مات ابن له، فلم يرَ عليه كآبة، فعوتب في ذلك، فقال: «إنا أهل بيت نسال الله ﷻ فيُعطينا، فإذا أراد ما نكره فيما يُحِبُّ رضىنا»^(٢).

ومن كلامه عليه السلام في النصيحة:

قال عليه السلام: «إذا سمعت أحداً يتناول أعراض الناس فاجتهد أن لا يعرفك، فإن أشقى الأعراض به معارفه»^(٣).

وقال عليه السلام: «لا تتكلف ما لا تطيق، ولا تتعرض لما لا تدرك، ولا تعد بما لا تقدر عليه، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت، ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً»^(٤).

ومن كلامه عليه السلام في الحكمة:

«شُرَّ خصال الملوك ثلاث: الجبن عن الأعداء، والقسوة على الضعفاء، والبخل عند الإعطاء»^(٥).

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٨٣ و ١٨٤.

(٢) شرح إحقاق الحق ١١: ٤٢٩، عن مقتل الحسين للخوارزمي: ١٤٧ / ط الغري.

(٣) شرح إحقاق الحق ٣٣: ٦٠٠، عن أحسن القصص ٤: ٢٣٤ / ط دار الكتب العلمية.

(٤) المصدر السابق.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١.

٢١٠ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

وقيل له عليه السلام: ما أعظم خوفك من ربك؟ فقال عليه السلام: «لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا»^(١).

وكتب إليه رجل يقول: يا سيدي، أخبرني بخير الدنيا والآخرة، فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فإنّ من طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله إلى الناس»^(٢).

وكتب إليه رجل آخر: عظمي بحرفين، فكتب إليه: «من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر»^(٣).

وجاء إليه رجل، قال: أنا رجل عاص، ولا أصبر عن المعصية، فعظمي بموعظة، فقال عليه السلام: «افعل خمسة أشياء واذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله واذنب ما شئت، والثاني: أخرج من ولاية الله واذنب ما شئت، والثالث: أطلب موضعاً لا يراك الله واذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك واذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل النار واذنب ما شئت»^(٤).

وقال عليه السلام: «الوفاء مروءة، والاستكبار صلف»^(٥).

المروءة كمال الرجولة، والصلف وقاحة وافتراء، وللوفاء أبلغ

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٦٨/ ح (٢٩٣/١٤).

(٣) الكافي ٢: ٣٧٣/ باب في عقوبات المعاصي العاجلة/ ح ٣.

(٤) بحار الأنوار ٧٥: ١٢٦/ ح ٧.

(٥) راجع: بحار الأنوار ٧٥: ١٢٢/ ح ٥.

الآثار وأنفعها في حياة الفرد والجماعة، ولولا الوفاء بالعهود والمعاملات لا اختلَّ نظام الحياة، وأيضاً لولا الوفاء للوطن لكان نهياً لكل طامع، أمّا الوفاء للمبدأ والعقيدة فيجمع الفضائل بكاملها، ومن هنا قيل: (من لا وفاء له لا دين له ولا ضمير). والاستكبار ضدُّ التواضع.

وقال عليه السلام: «لولا ثلاثة ما وضع ابن آدم رأسه لشيء: الفقر، والمرض، والموت»^(١).

الموت محطّم الآمال وهادم اللذات، والفقر نزع بلا موت، والمرض يحيل الحياة إلى جحيم، وإذا كان لكل شيء جهة سلب وإيجاب وخير وشرّ فجبهة الخير في كلّ واحد من هذه الأدواء الثلاثة أنّه يكبح من شموخ الإنسان وغروره وكبريائه، ولولا ذلك لأخذته العزّة بالإثم. وإذا لم يكن من الموت بدٌّ لأنّه من السماء لا من الأرض، فإنّ مشكلة الفقر وأكثر الأمراض أو الكثير منها هي من صنع الإنسان لا من إرادة الرحمن تماماً كالجهل، والحلُّ مجانية الطبّ والتعليم والعدالة الاجتماعية بشراكة الفقير للغنيّ في أمواله، قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما افتقر الناس ولا جاعوا ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء»^(٢)، وذلك أنّ الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يكتفون به، ولو علم أنّ الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم. وإنّما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة، أي من الأغنياء لا من الله ودينه وشرعه.

وفي نهج البلاغة: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتَّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ

(١) نزّهة الناظر وتنبيه الخاطر للحلواني: ٨٠/ ح ٤.

(٢) راجع: من لا يحضره الفقيه ٢: ٧/ ح ١٥٧٩.

ذَلِكَ»^(١)، أي كلما ازداد الأغنياء غنى ازداد الفقراء فقراً، وكلّما مات غنيٌّ من التخمّة مات الألوف من الجائعين، وما من عاقل منصف يجادل في هذه الحقيقة.

وقال عليه السلام: «العاقل لا يُحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يثق بمن يخاف غدره، [ولا يتقدّم على ما يخاف العذر منه]، ولا يرجو من لا يوثق برجائه»^(٢).

وقال عليه السلام لابنه علي بن الحسين عليه السلام: «أي بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلا الله تعالى»^(٣).

وقال عليه السلام: «ما أخذ الله طاقة أحدٍ إلا وضع عنه طاعته، ولا أخذ قدرته إلا وضع عنه كلفته»^(٤).

وقال عليه السلام: «إياك وما تعتذر منه، فإنّ المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كلّ يوم يسيء ويعتذر»^(٥).

وقال عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الكذب ريبة، والصدق طمأنينة»^(٦).

وقال عليه السلام: «خمس من لم تكن فيه لم يكن فيه كثير مستمتع: العقل، والدين، والأدب، والحياء، وحسن الخلق»^(٧).

(١) نهج البلاغة: ٥٣٣/ ح ٣٢٨.

(٢) المحاسن ١: ١٩٥/ ح ١٩ بتفاوت.

(٣) الكافي ٢: ٣٣١/ باب الظلم/ ح ٥.

(٤) تحف العقول: ٢٤٦.

(٥) تحف العقول: ٢٤٨.

(٦) راجع: بحار الأنوار ٧١: ٢١٤.

(٧) المحاسن ١: ١٩١/ باب العقل/ ح ١، والرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام.

وقال عليه السلام: «من دلائل علامات القبول: الجلوس إلى أهل العقول، ومن علامات أسباب الجهل المماراة لغير أهل الكفر^(١)، ومن دلائل العالم انتقاده لحديثه وعلمه بحقائق فنون النظر»^(٢).

وقال عليه السلام: «إنَّ المؤمن اتَّخذ الله عصمته، وقوله مرآته، فمرّة ينظر في نعت المؤمنين، وتارة ينظر في وصف المتجبرين، فهو منه في لطائف ومن نفسه في تعارف، ومن فطنته في يقين، ومن قدسه على تمكين»^(٣).

وقال عليه السلام لرجل اغتاب عنده رجلاً: «يا هذا، كف عن الغيبة فإنَّها إدام كلاب النار»^(٤).

وتكلَّم رجل عنده فقال: إنَّ المعروف إذا أُسدي إلى غير أهله ضاع، فقال عليه السلام: «ليس كذلك، ولكن تكون الصنيعة، مثل وابل المطر تصيب البرّ والفاجر»^(٥).

وقال عليه السلام: «البكاء من خشية الله نجاة من النار»^(٦).

وقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أيُّها الناس، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلاَّ أهل المعروف»^(٧).

ومن كلامه عليه السلام مع معاوية:

عن علي بن عيسى الإربلي في (كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام)

(١) كذا في المصدر، وفي بعض المصادر: (لغير أهل الفكر).

(٢) تحف العقول: ٢٤٧ و ٢٤٨.

(٣) تحف العقول: ٢٤٨.

(٤) تحف العقول: ٢٤٥.

(٥) تحف العقول: ٢٤٦.

(٦) مستدرک الوسائل ١١: ٢٤٥ / باب استحباب كثرة البكاء... ح (١٢٨٨١ / ٣٥).

(٧) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١: ١٨٢، نقلاً عن تحف العقول ولم نجده فيه.

أنَّه لَمَّا قَتَلَ معاوية حَجْرَ بَنِ عَدِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابَهُ، لَقِيَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَلْ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتُ بِحَجْرٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ شِيعَةِ أَبِيكَ؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: إِنَّا قَتَلْنَاهُمْ وَكَفَّنَاهُمْ وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ، فَضَحِكَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ: «خَصَمَكَ الْقَوْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مُعَاوِيَةَ - يَرِيدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّكَ قَتَلْتَ قَوْمًا مُسْلِمِينَ بِاعْتِرَافِكَ -، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَيْنَا مِثْلَهَا مِنْ شِيعَتِكَ مَا كَفَّنَاهُمْ وَلَا صَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي وَقُوعُكَ بِأَبِي حَسَنٍ وَقِيَامُكَ بِهِ وَاعْتِرَاضُكَ بَنِي هَاشِمٍ بِالْعُيُوبِ، وَأَيْمَ اللَّهِ لَقَدْ أُوتِرْتَ غَيْرَ قَوْسِكَ، وَرَمِيتَ غَيْرَ غَرَضِكَ، وَتَنَاوَلْتَهَا بِالْعَدَاوَةِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، وَلَقَدْ أَطْعَمْتَ امْرَأًا مَا قَدَّمَ إِيْمَانَهُ، وَلَا حَدَّثَ نَفَاقَهُ، وَمَا نَظَرَ لَكَ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ أَوْ دَع - يَرِيدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ -»^(١).

ومن كلامه عليه السلام مع عمرو بن العاص:

عن محاسن البرقي: قال عمرو بن العاص للحسين عليه السلام: يا ابن علي، ما بال أولادنا أكثر من أولادكم؟ فقال عليه السلام: بغاث الطير أكثرها فراخاً وأُمُّ الصقر مقلادة نزور

فقال: ما بال الشيب إلى شواربنا أسرع منه إلى شواربكم؟ فقال عليه السلام: «إِنَّ نِسَائَكُمْ نِسَاءَ بَخْرَةٍ، فَإِذَا دَنَا أَحَدُكُمْ مِنْ امْرَأَتِهِ نَكِهَتْهُ فِي وَجْهِهِ فَشَابَ مِنْهُ شَارِبُهُ». فقال: ما بال لحاكم أوفر من لحانا؟ فقال عليه السلام: «﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَأَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]». فقال معاوية: بحقِّي عليك إلا سكنت، فإنه ابن أبي طالب، فقال عليه السلام:

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضره
 قد علم العقرب واستيقنت أن لا لها دنيا ولا آخرة^(١)
 ومن كلامه عليه السلام في الموعظة:

«حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملّوا النعم فتعود
 نقماً»^(٢).

وقال: «صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك، فأكرم
 وجهك عن ردّه»^(٣).

وقال: «إنّ الحلم زينة، والوفاء مروءة، والصلة نعمة، والاستكبار
 صلف، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغلو ورطة، ومجالسة أهل
 الدناءة شرٌّ، ومجالسة أهل الفسوق ريبة»^(٤).

ومن كلامه عليه السلام في وداع أبي ذرٍّ عليه السلام:

قال عليه السلام في وداع أبي ذرٍّ حينما نفاه عثمان إلى الربذة: «يا عبّاه، إنّ
 الله قادر أن يُغيّر ما قد ترى، والله كلّ يوم في شأن، وقد منعك القوم
 دنياهم ومنعتهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم،
 فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإنّ الصبر من
 الدين والكرم، وإنّ الجشع لا يُقدّم رزقاً، والجزع لا يؤخّر أجلاً»^(٥).

ومن كلامه عليه السلام في تأبين أخيه الحسن عليه السلام وقد وقف على قبره:

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٣، نقلاً عن محاسن البرقي ولم نجده فيه.

(٢) راجع: كشف الغمّة ٢: ٢٣٩؛ بحار الأنوار ٧٥: ١٢١ / ح ٤.

(٣) كشف الغمّة ٢: ٢٤٢؛ بحار الأنوار ٤٤: ١٩٦ / ح ٩.

(٤) كشف الغمّة ٢: ٢٤٠؛ بحار الأنوار ٧٥: ١٢٢ / ح ٥.

(٥) راجع: بحار الأنوار ٢٢: ٤١٣ / ح ٣٠.

«رحمك الله أبا محمد، إذ كنت لناصر الحقّ مظانّه، تؤثر الله عند مداحض الباطل في مواطن التقيّة بحسن الرويّة، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها بيد طاهرة، وتردع ما يريده أعداؤك بأيسر المؤنة عليك، وأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة نعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الأسى عليه»^(١).

ومن كلامه عليه السلام في الإباء وقد قيل له يوم الطفّ: انزل على حكم بني عمّك، قال: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ قرار العبيد»، ثمّ نادى: «يا عباد الله، إني عدت برّبي وربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»^(٢).

وقال عليه السلام: «موت في عزّ خير من حياة في ذلّ»^(٣).

وعن الحلية روى محمد بن الحسن أنّه لما نزل عمر بن سعد بالحسين عليه السلام وأيقن أنّهم قاتلوه قال لأصحابه: «قد نزل ما ترون من الأمر، وأنّ الدنيا قد تغيّرت وتنگّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلّا صُبابة كصُبابة الإناء، وإلّا خسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحقّ لا يُعمل به والباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»^(٤).

(١) راجع: عيون الأخبار للدينوري ٢: ٣٣٨ و ٣٣٩؛ تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤؛ بحار الأنوار ٤٤: ١٩١ و ١٩٢ / ح ٤ بتفاوت يسير.

(٣) المصدر السابق.

(٤) شرح إحقاق الحقّ ١١: ٦٠٦، عن حلية الأولياء ٢: ٣٩ / ط السعادة بمصر.

فضل الحسين عليه السلام في آية المباهلة:

يجهل أو يتجاهل كثير من الناس، وبعضهم لا يفهمون أو لا يُجِبُّون أن يفهموا، فتراهم يمرّون بالآية من القرآن تصدع بالأمر الجليّ، ثم يغضّون عنها وعمّا اشتملت عليه من الحقائق وهم معرضون يتلون قول الله تعالى في آية المباهلة من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ (آل عمران: ٥٩ - ٦١).

ثم يجاوزونه كأثمّ لا يعقلون، فهل فهموا مَنْ أولئك الأبناء؟ وهل عرفوا لهم ذلك الفضل، وقدّروا لهم تلك المنزلة؟ إذ يأمر الله تعالى رسوله أن يندبهم للاشتراك معه في مباهلة النصارى، ويستعين بهم في إظهار التوحيد الذي بُعث به، والحقّ الذي أجهد نفسه ﷺ بإعلانه، حتّى انتهى الأمر فيه مع نصارى نجران إذ ادّعوا إلهيّة عيسى، إلى الفصل بالمباهلة، وقطع ريب المرتابين فيه بالتضرّع إلى الله تعالى بلعن الكاذب وخزي المفترى، وهل علموا كيف وقع اختيار الله تعالى على الحسين عليه السلام دون أبناء المسلمين جميعاً؟ وكيف كلّفوا هذا الأمر العظيم وهما طفلان صغيران لم يبلغا الخامسة من عمريهما؟ وكيف أن الله تعالى أنزلها منزلة أبناء الأُمّة كافّة؟

وهل دروا أنّه لو كان في المسلمين شيوخ وشبّان وكهول وأطفال من يواسيها عند الله ورسوله في فضل أو يجاريها في منزلة لدعاه رسول

الله ﷻ كما دعاهم، ولطلبه للاشتراك معه كما طلبهم؟ ولو لم يكن للسبطين مزية العصمة وخاصة الإمامة لما صحّ تكليفهما وهما بهذا السنّ، وتوجيه الخطاب إليهما بالدعوة لهذا الأمر الكبير وهما بهذا العمر، وكيف يُجهّل ما لريحانتي الرسول من جلاله القدر وعظيم الفضل، وقد جعلها الله بمنزلة أبناء الأُمّة جميعاً، وبهما الغنى عنهم في هذا المقام العظيم كافّة؟

ما لبعض المسلمين يتجاهلون هذا المقام للحسين، ويعرضون عن هذه الفضيلة للسبطين؟ وما بال بعض الكتّاب يمرُّ بهذه الآية مقتصرّاً على كلمة موجزة أو حديث يسير؟

ولقد رأيت السيّد علي جلال الحسيني المصري، وهو من أمثال كتّاب عصرنا عدلاً وإنصافاً، لا يزيد عند ذكر هذه الآية في باب فضل الحسين عليه السلام على كلمة الزمخشري، وهي قوله بعد ذكر الآية: (وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام)^(١)، ثمّ يتعدّاها إلى غيرها، وكأنّ فضل أصحاب الكساء شيء مشكوك فيه يريد أن يقطع بهذه الكلمة الشكّ، أو أمر مجهول نفى بهذه الجملة الجهل.

ويحك يا جلال ما هذا التحامل على أهل البيت تمرُّ بالآية وفيها الفضل الكبير فطويها، وتأتي بالحديث فتسمع خدشة فيه أو في سنده فتشرها وتطيل الكلام بذكرها، وتجزم بها ولا دليل عليها إلّا ما تسمع من الأوهام والتخيّلات، فتجعل الأحاديث المخدوش بها تحت عنوان: (الأحاديث الموضوعة في فضله)، كأنّ الوضع أمر مفروغ منه، وشيء

مقطوع به، نعوذ بالله من الزلّة، ونستغفره من التقصير عن مقام الدعاية إلى الله بالأمانة والإرشاد إلى فضل أوليائه بالصدق والنصيحة، ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

السبب في نزول آية المباهلة:

كتب رسول الله ﷺ إلى رؤساء الأمم وملوكها يدعوهم إلى الإسلام، وكان من جملة من كتب إليهم نصارى نجران، فلما وصلهم كتاب النبي ﷺ عظم عليهم، واجتمعوا في كنيستهم للمؤامرة في ذلك، فكانت النتيجة الاجتماع على إرسال وفد للنبي ﷺ للنظر في أمره.

قال ابن الصبّاغ المالكي في كتابه (الفصول المهمة^(١)) ما لفظه:

(وسبب نزول هذه الآية أنّه لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر وعليهم ثياب الخبثات وأردية الحرير، لابسين الحلل، متختمين بخواتم الذهب، يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وفيهم ثلاثة من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم، وهم: العاقب واسمه عبد المسيح، كان أمير القوم وصاحب رأيهم ومشورتهم، لا يصدرون إلّا عن رأيه. والسيد وهو الأهم، وكان ثمالهم وصاحب رجاهم ومجتمعهم. وأبو حاتم ابن علقمة، وكان أسقفهم وحرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصّر فعظّمته الروم وملوكها وشرّفوه، وبنوا له الكنائس ومولّوه وولّوه وأخدموه لما علموا من صلابته في دينهم.

وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وشأنه وصفته من الكتب المتقدمة، ولكنه حمله جهله على الاستمرار في النصرانية لِمَا رأى من تعظيمه ووجاهته عند أهلها.

فتكلم رسول الله ﷺ مع أبي حاتم بن علقمة والعاقب عبد المسيح، وسألها وسألاه. ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن تكلم مع هذين الحبرين دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: قد أسلمنا، فقال: «كذبتم، إنه يمنعكم من الإسلام ثلاثة: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم: لله ولد»، فقالوا: هل رأيت ولداً بغير أب؟ فمن أبو عيسى؟ فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ...﴾ الآية [آل عمران: ٥٩] (١).

(١) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى...﴾، شبه تعالى الغريب بالأغرب، لأن ولادة عيسى من دون أب غريب، وولادة آدم من دون أب وأم أغرب، فشبه تعالى الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهة، إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. إن طوائف المسيحيين يستدلون على إلهية عيسى عليه السلام بإحيائه الموتى، وهذا الاستدلال خطأ. ويستدلون بأنه وُلِدَ من غير أب، وهذا أيضاً خطأ، فإنَّ آدم وُلِدَ من غير أب ومن غير أم، ولم يكن هذا مبرراً لأنَّ تُنسَب إليه الإلهية. واستدلوا أيضاً بأنه كان يُحيي الموتى، ولم يكن هذا أيضاً موجباً بأن تُنسَب إليه الإلهية، فإنَّ إبراهيم عليه السلام أحيأ أربعة من الطير، وموسى عليه السلام أحيأ بقرة بني إسرائيل والسبعين الذين اختارهم من قومه لِمَا هلكوا من الصاعقة، وأرميا أحيأ حماره، وحزقيل أحيأ ثلاثين ألف إنسان بعد موتهم بستين سنة على ما تذكره التوراة، وخلق عيسى عليه السلام للطير ليس بأعظم من طيران بساط سليمان، ولا بأعظم من ضرب موسى البحر بعصاه وفرقه، والنبى اليسع أبرأ الأكمه والأبرص، ولم يستلزم ذلك نسبة الإلهية إلى أحدهم. ومن الطرائف الجميلة: أنَّ بعض العلماء أيسر بالروم، فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى عليه السلام؟ قالوا: لأنَّه لا أب له، قال: فأدوم أولى لأنَّه لا أبوين له، قالوا: كان يُحيي الموتى، قال: فحزقيل أولى، لأنَّ عيسى أحيأ أربعة نفر وأحيأ حزقيل ثمانية آلاف، فقالوا: كان يُبرئ الأكمه والأبرص، قال: فحزقيل أولى، لأنَّه طُبِّخ وأُحرق ثم قام سالماً.

فلما نزلت هذه الآية مصرّحة بالمباهلة دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة، وتلا عليهم الآية، فقالوا: حتّى ننظر في أمرنا ونأتيك غداً، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب صاحب مشورتهم: ما ترى من الرأي؟ فقال: والله ما لآعن قوم قطّ نبياً إلّا هلكوا عن آخرهم، واحذروا كلّ الحذر أن يكون آفة الاستئصال منكم، وإن أيتّم إلّا ألف دينكم والإقامة عليه فوادعوا الرجل وأعطوه الجزية، ثمّ انصرفوا إلى مقرّكم. فلما أصبحوا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فخرج وهو محتضن الحسين، أخذاً بيد الحسن، وفاطمة خلفه، وعلي خلفهم، وهو يقول: «اللهم هؤلاء أهلي، إذا أنا دعوت أمّنوا». فلما رأى وفد نجران ذلك وسمعوا قوله، قال كبيرهم: يا معشر النصاري، إني لأرى وجوهاً لو سألت من الله تعالى أن يزيل جبلاً لأزاله، لا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقّى على وجه الأرض نصراي منكم إلى يوم القيامة، فقبلوا الجزية، وهي ألفا حلّة في كلّ سنة ألف في رجب، وألف في صفر، ثمّ انصرفوا... الخ.

→ وهنا نادرة: إنّ أبا الحسن علي بن ميثم قال لرجل نصراي: لِمَ علّقت الصليب في عنقك؟ قال: لأنّه شبه الذي صُلب عليه عيسى عليه السلام، قال أبو الحسن: أفكان عيسى يُحبُّ أن يُمثّل به؟ قال: لا، قال: فأخبرني عن عيسى عليه السلام: أكان يركب الحمار ويمضي عليه في حوائجه؟ قال: نعم، قال: أفكان يُحبُّ الحمار الذي يبلغ عليه حاجته؟ قال: نعم، قال: فتركت ما كان يُحبُّ عيسى بقاءه وما كان يركبه في حياته بمحبّة منه وعمدت إلى ما مُجِّل عليه عيسى بالكره وركبه بالبغض له فعلّقت في عنقك، فقد كان ينبغي على هذا القياس أن تُعلّق الحمار في عنقك وتطرح الصليب، وإلّا فقد تجاهلت. (المؤلف رحمه الله).

بخ بخ تلك أنوار النبوة، ولمعات أسرار الإمامة، وضياء سنا الوحي الإلهي، قد تجلّت على جباه أهل البيت، وطفحت من أسارير وجوههم حتّى ملأت قلوب الوفد رهبةً، وطارت لها أفئدتهم مخافةً ورعاً.

لا يشكُّ أحد من أهل العلم، بل هو من الضروريات عند المسلمين جميعاً بأنَّ أهل البيت وفيهم الحسين سلام الله عليهم جميعاً هم المقصودون في الآية، والمعنيون بها دون غيرهم، وأنَّ رسول الله ﷺ نديهم خاصّة دون من عداهم حتّى كان ما سمعت، فهل في هذا عظة للمعتبرين؟

فضل الحسين عليه السلام هي آية المودة:

روى أحمد بن حنبل في مسنده بالإسناد إلى ابن عبّاس، قال: لَمَّا نزل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما»، رواه الثعلبي في تفسيره، والشيخ إبراهيم الحموي في كتابه فرائد السّمطين، وأبو نعيم في الحلية، وعلي بن الصّبّاغ المالكي في كتابه الفصول المهمّة، وصاحب المناقب الفاخرة، والزّحشري في كشّافه^(١).

وروى البخاري في صحيحه بالإسناد إلى ابن عبّاس، عن سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية أنّها قرىء آل محمّد عليهم السلام. ورواه مسلم في صحيحه، ورزين في الجمع بين الصحاح الستّة بطريقين^(٢).

(١) راجع: تفسير الثعلبي ٨: ٣٧؛ الفصول المهمّة ١: ١٥٥؛ تفسير الكشّاف ٣: ٤٦٧.

(٢) راجع: صحيح البخاري ٦: ٣٧.

وعن تفسير الثعلبي بإسناده عن السدي، عن أبي الديلم، قال: لَمَّا جِيءَ بعلي بن الحسين صلوات الله عليهما أسيراً قائماً على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام، فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصل شأفتكم وقطع قرن الفتنة، فقال علي بن الحسين عليه السلام: «أقرأت القرآن؟»، قال: نعم، قال: «قرأت الـ (حم)؟»، قال: قرأت القرآن ولم أقرأ الـ (حم)، قال: «قرأت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟»، قال: لأنتم هم؟ قال: «نعم»^(١).

وروى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (مقاتل الطالبين)، قال: قال الحسن بن علي في خطبة له بعد موت أبيه: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد ﷺ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، فالحسنة مودتنا أهل البيت»^(٢).

وروى محمد بن جرير برجاله في كتابه المناقب أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أخرج فنادي: ألا من ظلم أجيراً أجرته فعليه لعنة الله، ألا من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا من سبّ أبويه فعليه لعنة الله»، فنادى بذلك، فدخل عمر وجماعة على النبي ﷺ، وقالوا: هل من تفسير لما نادى؟ قال: «نعم، إن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول: ﴿التَّيْبُ

(١) راجع: تفسير الثعلبي ٨: ٣١١.

(٢) مقاتل الطالبين: ٣٣.

أَوَّلِي بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» [الأحزاب: ٦]، ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره وغير ذريته فعليہ لعنة الله، وأشهدكم أنا وعلي أبوا المؤمنين، فمن سبَّ أحدنا فعليہ لعنة الله»، فلما خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد، ما أكَّد النبيُّ لعلي بغدير خُصٍّ ولا غيره أشدَّ من تأكيده في يومنا هذا. قال حسان بن الأرت: كان ذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسعة عشر يوماً^(١).

وفيه روايات كثيرة من طرق الشيعة لم نرو شيئاً منها.

وهنا معنى 'يجب التنبيه له والمسائلة عنه، وهو أننا قد علمنا أن الله تعالى شأنه جعل لمحمد ﷺ على أُمَّته أجر تبليغه الرسالة وتحمله المشاق في سبيل أدائها مودَّتها لأهل بيته، وجهاً لذوي قرباه، كما أوضح ذلك أيضاً ما عن الزمخشري في الكشف عند ذكر الآية من تفسيره: إن جماعة تذكروا فيما بينهم وتساءلوا عن أنَّ محمداً ﷺ هل يريد على تبليغ الرسالة أجراً؟ فأنزل الله تعالى عليه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢).

فثبت جلياً وجوب مودة أهل البيت عليهم السلام ولزوم محبتهم، وأن ذلك لمحمد أجر الرسالة، وحقه على الأمة بتبليغ الدعوة، ولكن نريد أن نعلم أن هذه المودة المفترضة والمحبة الواجبة لأهل البيت عليهم السلام هل هي لمحض شرفهم عنده وجلالة شأنهم لديه، فجعل لهم هذه الخصوصية إبانة لتشرفهم فقط، وميَّزهم بهذه الفضيلة دلالة على منزلتهم فحسب؟ لا أظنُّ الفاهم البصير يقنع بهذا، ولا أشكُّ أن العارف بأسرار حكم الله،

(١) أنظر: الصراط المستقيم ٢: ٩٣ عنه.

(٢) راجع: تفسير الكشف ٣: ٤٦٦.

الخير بتأديبه وتعاليمه، يرى معنى ثانياً وحكمةً في وجوب المودة لأهل البيت أخرى، يرى أنه الهدى الذي جاء به محمد ﷺ، والدين الذي أسسه وأقامه إذا لم يكن له من ذوي العصمة وأئمة العلم من يسير في الناس سيرته وينهج فيهم نهجه فيدير رحاه ويرفع مناره، ولا يلبث إلا قليلاً حتى تذهب به الأهواء تُطفئ نور المقاصد السيئة الأغراض، فكان من الحكمة أن جعل الله تعالى أهل بيته ﷺ نوابه، والقائمين مقامه في تحقيق ما جاء به وتثبيت ما دعا إليه، ثم جعل تعالى شأنه حبهم فرضاً لازماً، ومودتهم واجباً حتماً، أخذاً بأيدي المسلمين للسير على سبيلهم والجري على منهاجهم، والاقتفاء لأثارهم، ومن ثم أكمل الله بولاية أولهم الدين، وأتم بالبيعة له ونصبه علماً للناس للنعمة، ورضي لهم بإمامته الإسلام ديناً.

فضل الحسين عليه السلام في سورة هل أتى:

إذا قوي عقل المرء ضعف شهواته، وإن قوة شهوات المرء دليل على ضعف عقله. ترى كثيراً من الناس يتركون ما يقضي به العقل ويحكم به الشرف وتوجيه المروءة والدين لشهوات فانية وأهواء نفسية زائلة، حتى كاد يكون من المستحيل عندهم ترك حظوظهم الشهوانية لأمر وإن عظم أو لشرف وإن جلّ، وعلامة أحدهم أنك إذا حدثته عن طارت به همته لمعارج المجد وحملته بصيرته على تضحية نفسه في سبيل الدين والعزّ استغرب ذلك ولا يكاد يُصدّقه، وربّما تأوله على ما يكون من جنس مقاصده وأنواع أغراضه.

تحدثنا الرواة من الشيعة والسنة، ويذكره المفسّرون من الفريقين، ما كان من إيثار أهل البيت علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام على

أنفسهم، والتصدق على المسكين واليتيم والأسير بكل ما ملكته من الطعام أيديهم، حتى أنزل الله تعالى شأنه الآيات من سورة هل أتى في حقهم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ۝ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ۝ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ۝ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ۝ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ۝ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ۝...﴾ [الإنسان: ٥ - ١٢] الخ.

ذكر الزمخشري في كشافه، والبيضاوي في تفسيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما لفظه: إن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا، فعادهما رسول الله ﷺ في أناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت علي ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما صوم ثلاث إن برئا، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً، فاخبزت خمسة أقراص، فوضعه بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم مسكين فأثروه، وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فأثروه، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبرئيل بهذه السورة وقال: «خذها يا محمد، هناك الله في أهل بيتك»^(١).

* * *

في ذكر شيء من خطبه ﷺ

الخطب جمع خطبة بالضم، ومنه الخطبة والخطبة ضمّاً وكسراً، لكن الخطبة بالضم تختصّ بالموعظة والكلام المخطوب به، ولذا يُعدّى بنفسه فيقال: خطبنا رسول الله ﷺ أي وعظنا، وبالكسر خطبة النساء، وهي من الرجل. والخطابة أفضل أداة يتمكن بها المرء من استصلاح الناس وتثقيف عقليّتهم وتقويم أودهم، وأحسن واسطة في نشر الدعوة وتبليغ الحجّة وبثّ الموعظة والحكمة.

وحسبك منها أنّها الوسيلة التي اتّخذها الأنبياء لتبليغ الرسالة، ويكفيك منها أنّها الذريعة الكبرى التي تمكّنوا بها من قلب قلوب الخاصّة والعامة، وإنّ أهلها ليتفاضلون بتفاضل اقتدارهم فيها، وإنّ آثارهم لتزداد على قدر ما يزدادون من حسن التصرّف وإلقائها، وقلّ من الناس من يجمع الأسباب التي تؤهّله لها، وقلّ من الناس من يقدر على مواهبها ويتمكّن من الحصول على عددها، وذلك أنّها تحتاج إلى عدّة أمور منها ما يصعب تحصيله كالعلم وحسن التّبّع وسعة الاطّلاع، ومنها ما تقلّ في الناس موهبته كطلاقة اللسان وحسن البيان، ومنها ما يعسر كسبه كشجاعة القلب ورباطة الجأش التي يتمكنّ معها من إلقاء ما يريد إلقائه غير متلكّئ ولا متلعثم، فربّما غاب عن الجبان ما

يستحضره ويحفظه، وربما خبط الجاهل فلا يعلم ما يقوله ويبيّنه، وربما وقف العيِّ وحصر فلا يبيّن عمّا يريده ويقصده.

ولقد كان الحسين عليه السلام أبلغ من خطب، وأفصح من قال، كان يفرغ عن لسان أبيه أمير المؤمنين عليه السلام الذي سنّ الفصاحة لقريش، ولا غرو فهو نبعة من شجرته، وجدول من بحرهِ، وجذوة من ناره، وإليكم اليسير من خطبه.

قيل للمعاوية: إنّ الناس قد رموا بأبصارهم إلى الحسين عليه السلام، فلو أمرته أن يصعد المنبر فيخطب، فإنّ في قلبه حسرةً وفي لسانه كلاله، فقال لهم: قد ظنّنا بأخيه الحسن ذلك، فلم يزل منّي حتّى عظم في أعين الناس وفضحنا. فلم يزالوا به حتّى قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، لو صعدت المنبر فخطبت الناس، فإنّهم أحبّوا ذلك.

فصعد المنبر عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله، فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب؟ فقال عليه السلام: «نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيّبون، وأحد الثقلين، الذين جعلنا رسول الله ثاني كتاب الله تعالى الذي فيه تفصيل كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، ولا يبطئنا تأويله، بل نتبع حقائقه، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:

٨٣]، وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنهم لكم عدو مبين، فتكونوا كأولياؤه الذي قال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فتلقون للسيوف ضرباً، وللرماح ورداً، وللعمد حطماً، وللسهام غرضاً، ثم لا يقبل من نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً».

قال معاوية: حسبك يا أبا عبد الله فقد أبلغت^(١).

ووقف عليه السلام يوم الطف بإزاء القوم من جيوش أعدائه، فخطبهم، فلما أتم قال ابن سعد: ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حصر^(٢).

حدث ابن شهر آشوب في المناقب، قال: لما عبأ ابن سعد أصحابه لمحاربة الحسين عليه السلام ورتبهم في مراتبهم، وأقام الرايات في مواضعها، وعبأ الحسين أصحابه في الميمنة والميسرة، فقال لأصحاب القلب: «أثبتوا»، فأحاطوا بالحسين عليه السلام من كل جانب، حتى جعلوه في مثل الحلقة، فخرج عليه السلام حتى أتى الناس فاستنصتهم، فأبوا أن ينصتوا، فقال لهم: «وَيْلَكُمْ، مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْصِتُوا إِلَيَّ فَتَسْمَعُوا قَوْلِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَمَنْ أَطَاعَنِي كَانَ مِنَ الْمُرْشِدِينَ، وَمَنْ عَصَانِي كَانَ مِنَ الْمُهْلَكِينَ، وَكُلُّكُمْ عَاصٍ لِأَمْرِي، غَيْرُ مُسْتَمِعٍ قَوْلِي، قَدْ أَنْخَزَلْتُ عَطِيَّاتِكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، وَ[مِلْتُ بَطُونَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، وَيَلَكُمْ أَلَا تَنْصِتُونَ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ؟]».

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٣؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٠٥ و ٢٠٦ / ح ١.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٦.

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم، وقالوا: أنصتوا له.

فقال عليه السلام: «تَبَّ لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحَّأَ، أَفَحِينَ اسْتَصْرَحْتُمُونَا وَاهِلِينَ مُتَحَيِّرِينَ فَأَصْرَحْنَاكُمْ مُؤَدِّينَ مُسْتَعِدِّينَ، سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفًا فِي رِقَابِنَا، وَحَشَشْتُمْ عَلَيْنَا نَارًا أَجْجَانَا عَلَى عَدُوِّكُمْ وَعَدُونَا، فَأَصْبَحْتُمْ إِلْبَا عَلَى أَوْلِيائِكُمْ، وَيَدَا عَلَيْهِمْ لِأَعْدَائِكُمْ، بَغَيْرِ عَدَلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ، وَلَا أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ، إِلَّا الْحَرَامَ مِنَ الدُّنْيَا أَنَالُوكُمْ، وَخَسِيسَ عَيْشٍ طَمَعْتُمْ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَدَثٍ كَانَ مِنَّا، وَلَا رَأْيٍ تَفَعَّلَ لَنَا.

فَهَلَّا لَكُمْ الْوَلِيَّاتُ إِذْ كَرِهْتُمُونَا وَتَرَكْتُمُونَا، تَجَهَّزْتُمُوهَا وَالسَّيْفُ لَمْ يَشْهَرْ، وَالْجَأْشُ طَامِنٌ، وَالرَّأْيُ لَمَّا يَسْتَحْصِفُ، وَلَكِنْ أَسْرَعْتُمْ عَلَيْنَا كَطَيْرَةِ الدَّبَا، وَتَدَاعَيْتُمْ إِلَيْهَا كَتَدَاعِي الْفَرَّاشِ، فَقُبْحًا لَكُمْ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ مِنْ طَوَاغِيَتِ الْأُمَّةِ، وَشُدَّادِ الْأَحْزَابِ، وَنَبَذَةِ الْكِتَابِ، وَنَفَثَةِ الشَّيْطَانِ، وَعُضْبَةِ الْأَثَامِ، وَحُرْفِي الْكِتَابِ، وَمُطْفِئِي الشُّنَنِ، وَقَتْلَةِ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُبِيدِي عِثْرَةِ الْأَوْصِيَاءِ، وَمُلْحَقِي الْعِهَارِ بِالنَّسَبِ، وَمُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، وَصُرَاخِ أَيْمَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ، وَ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ] وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ] [المائدة: ٨٠].

وَأَنْتُمْ ابْنُ حَرْبٍ وَأَشْيَاعُهُ تَعْمِدُونَ، وَإِنَّا نَخْذُلُونَ، أَجَلٌ وَاللَّهِ الْخَذْلُ فِيكُمْ مَعْرُوفٌ، وَشَجَّتْ عَلَيْهِ عُرُوقُكُمْ، وَتَوَارَثَتْ أَصُولُكُمْ وَفُرُوعُكُمْ، وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، وَغَشِيَتْ بِهِ صُدُورُكُمْ، فَكُنْتُمْ أَخْبَثَ شَيْءٍ سِنْخًا لِلنَّاصِبِ وَأَكْلَةً لِلْغَاصِبِ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى النَّاكِثِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ هُمْ.

أَلَا إِنَّ الدَّعِيَّ [ابْنَ الدَّعِيِّ] قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ، بَيْنَ السَّلَةِ وَالذَّلَّةِ، وَهِيَهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ، أَبِي اللَّهُ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَجُدُودٌ طَابَتْ،

وَحُجُورٌ طَهَّرَتْ، وَأَنْفُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَيْيَّةٌ، لَا تُؤَثِّرُ طَاعَةَ اللَّئَامِ عَلَى
مَصَارِعِ الْكِرَامِ، أَلَا [إِنِّي] قَدْ أَعَذَرْتُ وَأَنْذَرْتُ، أَلَا وَإِنِّي زَا حِفٌّ بِهَذِهِ
الْأُسْرَةِ مَعَ قِلَّةِ الْعَدَدِ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ، وَخُذْلَانِ النَّاصِرِ...».

ثم أوصل كلامه بأبيات فروة بن مُسيك المرادي، فقال:

فَإِنْ تَهَزِمَ فَهَزَامُونَ قَدْماً	وَإِنْ نُغْلِبَ فَغَيْرُ مُغْلَبِينَآ
وَمَا إِنْ طَبْنَا جُبْنَ وَلَكِنْ	مَنَايِنَا وَدَوْلَةَ آخِرِينَآ
إِذَا مَا الْمَوْتُ رَفَعَ عَنْ أَنَاسٍ	كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخِرِينَآ
فَأَفْنَى ذَلِكَمُ سُرُوءَ قَوْمِي	كَمَا أَفْنَى الْقُرُونُ الْأَوَّلِينَآ
فَلَوْ خَلَدَ الْمُلُوكُ إِذَا خَلَدْنَا	وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذَا بَقِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا	سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

ثُمَّ لَا تَلْبَثُونَ بَعْدَهَا إِلَّا كَرِيثٍ مَا يُرْكَبُ الْفَرَسُ، حَتَّى تَدُورَ بِكُمْ
[دُور] الرِّحَى، عَهْدٌ عَهْدُهُ إِلَيَّ أَبِي عَنْ جَدِّي، فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ،
فَكِيدُونِي جَمِيعاً [ثُمَّ] لَا تُنْظَرُونَ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ
دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

اللَّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطَرَ السَّمَاءِ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي
يُوسُفَ، وَاسْلُطْ عَلَيْهِمْ غُلَامَ ثَقِيفٍ يَسْقِيهِمْ كَأْساً مُضَبَّرَةً، فَلَا يَدْعُ فِيهِمْ
أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ قَتْلَةً بِقَتْلَةٍ، وَضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، يَنْتَقِمُ لِي وَلِأَوْلِيَائِي وَأَهْلِ بَيْتِي
وَأَشْيَاعِي مِنْهُمْ، فَلْيَأْتِهِمْ غَرُّونَا وَكَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا، وَأَنْتَ رَبُّنَا، عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»^(١).

(١) راجع: بحار الأنوار ٤٥: ٨ - ١٠؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥١٠ -

وخطب عليه السلام مع أبيه في دعوة أهل الكوفة لقتال معاوية؛ روى ابن أبي الحديد في المجلد الأول من شرح النهج: أنه عند عزم علي كرم الله وجهه على المسير إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه صعد المنبر فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد، ثم قام ابنه الحسن عليه السلام فخطبهم، ثم قام الحسين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ الْأَحِبَّةُ الْكُرَمَاءُ، وَالشُّعَارُ دُونَ الدِّثَارِ، جِدُّوا فِي إِطْفَاءِ مَا وَتَرَ بَيْنَكُمْ، وَتَسْهِيلِ مَا تَوَعَّرَ عَلَيْكُمْ. أَلَا إِنَّ الْحَرْبَ شَرُّهَا ذَرِيعٌ، وَطَعْمُهَا فَظِيعٌ، [وَهِيَ جُرْعٌ مُسْتَحْسَاةٌ]، فَمَنْ أَخَذَ لَهَا أَهْبَتَهَا، وَاسْتَعَدَّ لَهَا عُدَّتَهَا، وَلَمْ يَأْلَمْ كُلُّومَهَا قَبْلَ حُلُومِهَا، فَذَلِكَ صَاحِبُهَا، وَمَنْ عَاجَلَهَا قَبْلَ أَوَانِ فُرْصَتِهَا، وَاسْتَبْصَرَ سَعْيَهِ فِيهَا، فَذَلِكَ قِمْنٌ أَنْ لَا يَنْفَعَ قَوْمَهُ، وَأَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ، نَسَأَلُ اللَّهَ بِعَوْنِهِ أَنْ يُدْعِمَكُمْ بِالْفَيْئَةِ» ثم نزل^(١).

وخطب عليه السلام في ردِّ معاوية عن طلب البيعة ليزيد، فقد روى ابن قتيبة في كتاب (الإمامة والسياسة)^(٢) أنه عليه السلام قام خطيباً، فحمد الله وصلى على الرسول، ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا مُعَاوِيَةَ فَلَنْ يُؤَدِّيَ الْقَائِلُ وَإِنْ أَطْنَبَ فِي صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ جَمِيعِ جُزْءٍ، وَقَدْ فَهِمْتُ مَا لَبِسْتُ بِهِ الْخُلْفَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِيجَازِ الصِّفَةِ وَالتَّنَكُّبِ عَنِ اسْتِبْلَاحِ الْبَيْعَةِ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا مُعَاوِيَةَ فَضَحَ الصُّبْحُ فَحَمَةَ الدُّجَى، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أَنْوَارَ السُّرُجِ،

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ١٨٦؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ١٨٠ و ١٨١ / ح (٤٢/١٢١).

(٢) راجع: الإمامة والسياسة ١: ١٥٨ - ١٦١؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٢٠ - ٣٢٢ / ح (٣٧/٢٥٤).

وَلَقَدْ فَضَّلْتُ حَتَّى أَفْرَطْتُ، وَاسْتَأْثَرْتُ حَتَّى أَجَحَفْتُ، وَمَنْعْتُ حَتَّى
 بَخِلْتُ، وَجُزْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ، مَا بَدَلْتُ لِدُنِّي حَقَّ مِنْ اسْمِ حَقِّهِ مِنْ
 نَصِيبِ حَتَّى أَخَذَ الشَّيْطَانُ حَظَّهُ الْأَوْفَرَ، وَنَصِيْبَهُ الْأَكْمَلَ، وَفَهَمْتُ مَا
 ذَكَرْتُهُ عَنْ يَزِيدٍ مِنْ اكْتِمَالِهِ وَسِيَاسَتِهِ لِأَمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تُرِيدُ أَنْ تُوْهِمَ
 النَّاسَ فِي يَزِيدٍ، كَأَنَّكَ تَصِفُ مُنْجُوبًا، أَوْ تَنْعُتُ غَائِبًا، أَوْ تُخْرِعُ عَمَّا كَانَ مِمَّا
 اخْتَوَيْتُهُ بِعِلْمٍ خَاصٍّ، وَقَدْ دَلَّ يَزِيدٌ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مَوْجِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزِيدَ
 فِيمَا أَخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرَائِهِ الْكِلَابِ الْمَهَارِشَةَ عِنْدَ التَّحَارُشِ، وَالْحَمَامَ السُّبْقِ
 لِاتِّرَاهِنٍ، وَالْقَيْنَاتِ ذَوَاتِ الْمَعَارِيفِ، وَضَرْبِ الْمَلَاهِي، تَجِدُهُ بَاصِرًا، وَدَعِ
 عَنْكَ مَا تُحَاوِلُ. فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ تُلْقَى اللَّهَ بِوِزْرِ هَذَا الْخَلْقِ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَنْتَ
 لَاقِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا بَرَحْتَ تَفْدَحُ بِاطِّلَاءٍ فِي جَوْرِ، وَحَنَقٍ فِي ظُلْمٍ، حَتَّى مَلَأْتَ
 الْأَسْقِيَةَ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَوْتِ إِلَّا غَمُضَةٌ، فَتَقْدِمُ عَلَى عَمَلٍ مُحْفُوظٍ فِي
 يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ، وَرَأَيْتُكَ عَرَّضْتَ بِنَا بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ،
 وَمَنْعْتَنَا عَنْ آبَائِنَا تُرَاتِنًا، وَلَقَدْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَوْرَثْنَا الرَّسُولَ ﷺ وَلَادَةً،
 وَجِئْتَ لَنَا بِمَا حَجَجْتُمْ بِهِ الْقَائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ، فَأَذَعْنَ لِلْحُجَّةِ
 بِذَلِكَ، وَرَدَّهُ الْإِيْمَانُ إِلَى النِّصْفِ، فَرَكِبْتُمْ الْأَعَالِيلَ، وَفَعَلْتُمْ الْأَفَاعِيلَ،
 وَقُلْتُمْ: كَانَ وَيَكُونُ، حَتَّى أَتَاكَ الْأَمْرُ بِمُعَاوِيَةَ مِنْ طَرِيقٍ كَانَ قَصْدُهَا
 لِعَغْرِكَ، فَهَنَّاكَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ، وَذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمِ
 بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَأْمِيرَهُ لَهُ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَلِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ
 [يَوْمَئِذٍ] فَضِيلَةً بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ، وَيَبِيعَتِهِ لَهُ، وَمَا صَارَ لَعَمْرُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
 [مُبْعُثُهُمْ] حَتَّى أَنْفَ الْقَوْمِ إِمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ، وَعَدُّوا عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ،
 فَقَالَ ﷺ: لَا جَرَمَ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ لَا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ
 [غَيْرِي]، فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنْسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ فِي أَوْكَدِ الْأَحْوَالِ

وَأُولَاهَا بِالْمُجْتَمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ؟ أَمْ كَيْفَ ضَاهَيْتَ بِصَاحِبِ تَابِعَا
وَحَوْلِكَ مَنْ يُؤْمَنُ فِي صُحْبَتِهِ، وَيُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرَابَتِهِ؟ وَتَتَخَطَّاهُمْ إِلَى
مُسْرِفٍ مُفْتُونٍ، تُرِيدُ أَنْ تَلْسِسَ النَّاسَ شُبْهَةً يَسْعُدُ بِهَا الْبَاقِي فِي دُنْيَاهُ،
وَتَشْقَى بِهَا فِي آخِرَتِكَ، إِنَّ هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي
وَلَكُمْ».

ومن خطبة له عليه السلام في المواعظ والحكم:

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَمَالِيهِ - يشير عليه السلام إلى قوله
تعالى: ﴿وَأْمُرْ لِيهِمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٣) -، وَأَرْفَعُ لَكُمْ
أَعْلَامَهُ، فَكَأَنَّ الْمَخُوفَ قَدْ أَفِدَ بِمُهِوْلٍ وَرُودِهِ، وَنَكِيرِ حُلُولِهِ، وَبَشَعِ
مَذَاقِهِ، فَاعْتَلَقَ مُهَجَّكُمْ، وَحَالَ بَيْنَ الْعَمَلِ وَبَيْنَكُمْ، فَبَادِرُوا بِصِحَّةِ
الْأَجْسَامِ فِي مُدَّةِ الْأَعْيَارِ، وَكَانَتْكُمْ بِبَغْتَاتِ طَوَارِقِهِ فَتَنُفُلُكُمْ مِنْ ظَهْرِ
الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا، وَمِنْ عَلْوِهَا إِلَى سِفْلِهَا، وَمَنْ أَنْسَاهَا إِلَى وَخَشَتِهَا، وَمَنْ
[رَوْحَهَا وَ]أَضَوَّيْتُهَا إِلَى ظَلَمَتِهَا، وَمَنْ سَعَتَهَا إِلَى ضَيِّقِهَا، حَيْثُ لَا يُزَارُ
حَمِيمٌ، وَلَا يُعَادُ سَقِيمٌ، وَلَا يُجَابُ صَرِيخٌ. أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى أَهْوَالِ
ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَنَجَّانَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ عِقَابِهِ، وَأَوْجَبَ لَنَا وَلَكُمْ الْجَزِيلَ مِنْ
ثَوَابِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَصْرَ مَرْمَاطِكُمْ، وَمَدَى مَطْعَنِكُمْ، كَانَ
حَسْبُ الْعَامِلِ شُغْلًا يَسْتَفْرِغُ عَلَيْهِ أَحْزَانَهُ، وَيُذْهِلُّهُ عَنْ دُنْيَاهُ، وَيُكَثِّرُ
نَصَبَهُ لِطَلَبِ الْخُلَاصِ مِنْهُ، فَكَيْفَ وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ مُرْتَهَنٌ بِاِكْتِسَابِهِ،
مُسْتَوْفٍّ عَلَى حِسَابِهِ، لَا وَزِيرَ لَهُ يَمْنَعُهُ، وَلَا ظَهِيرَ عَنْهُ يَدْفَعُهُ...»^(١).

(١) تحف العقول: ٢٣٩ و ٢٤٠؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٩٢٦/ ح

ومن خطبة له عليه السلام في الحث على المكارم:

«أَيُّهَا النَّاسُ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ، وَسَارِعُوا فِي الْمَغَانِمِ، وَاكْتَسِبُوا الْحَمْدَ بِالنَّحْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ يَكْسِبُ مَحَدًا، وَيُعْقِبُ أَجْرًا، مَنْ جَادَ سَادَ، وَمَنْ بَخَلَ ذَلَّ، وَإِنَّ أَجْوَدَ النَّاسِ مَنْ أَعْطَى مَنْ لَا يَرْجُوهُ، وَأَعْفَى النَّاسِ مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ، وَأَوْصَلَ النَّاسِ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»^(١).

ومن خطبة له عليه السلام في الحث على التقوى:

«عِبَادَ اللَّهِ اتَّقُوا اللَّهَ، وَكُونُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَوُ بَقِيَتْ لِأَحَدٍ أَوْ بَقِيَ عَلَيْهَا أَحَدٌ لَكَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَحَقُّ بِالْبَقَاءِ، وَأَوْلَى بِالرِّضَا، وَأَرْضَى بِالْقَضَاءِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الدُّنْيَا لِلْبَلَاءِ، وَخَلَقَ أَهْلَهَا لِلْفَنَاءِ، فَجَدِيدُهَا بَالٌ، وَنَعِيمُهَا مُضْمَجِلٌ، وَسُرُورُهَا مُكْفَهَرٌ، وَالْمَنْزِلُ بُلْغَةٌ، وَالْدَّارُ قُلْعَةٌ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(٢).

ومن خطبة له عليه السلام وقد عزم على الخروج إلى العراق:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَسَلَّمْ، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وَلَدِ آدَمَ مَحَطَّ الْفِلَادَةِ عَلَى جَبَدِ الْفَتَاةِ، وَمَا أَوْهَسِي إِلَى أَسْلَافِي اسْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ، وَخَيْرَ لِي مَضْرَعُ أَنَا لِأَقِيهِ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تُقَطِّعُهَا عُسْلَانُ الْفُلُوتِ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ وَكَزْبَلَا،

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٣٩ و ٢٤٠؛ بحار الأنوار ٧٥: ١٢١ و ١٢٢ / ح ٤؛ موسوعة

كلمات الإمام الحسين عليه السلام ٨٩٧ / ح (١٠٩٨ / ٣٠) بتفاوت.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢١٨.

فَيَمْلَأَنَّ مِنِّي أَكْرَاشًا جَوْفًا وَأَجْرِبَةً سُغْبًا، لَا مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ، رَضِيَ اللهُ رِضَانًا أَهْلَ الْبَيْتِ، نَصَبُ عَلَى بِلَائِهِ وَيُوفِينَا أَجُورَ الصَّابِرِينَ، لَنْ تَشُدَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِحْمَتُهُ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، وَيُنْجِزُ بِهِمْ وَعْدُهُ، مَنْ كَانَ بَاذِلًا فِينَا مُهْجَتَهُ، وَمَوْطِنًا عَلَى لِقَاءِ اللهِ نَفْسَهُ، فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا، فَإِنِّي رَاحِلٌ مُصْبِحًا إِنْ شَاءَ اللهُ^(١).

ومن خطبة له عليه السلام يوم الطف:

«أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ انْسُبُونِي فَانْظُرُوا مَنْ أَنَا؟! ثُمَّ ازْجِعُوا إِلَيَّ أَنْفُسَكُمْ فَعَاتِبُوها، فَانْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ سَفْكُ دَمِي وَانْتِهَاكُ حُرْمَتِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، [وَابْنَ وَصِيِّهِ] وَابْنَ عَمِّهِ، وَابْنَ أَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِالله؟! أَوَلَيْسَ حَمْرَةُ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عَمُّ أَبِي؟! أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي؟!، أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْتَفِيزًا فِيكُمْ لِي وَلَا أَخِي: إِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟! أَمَا فِي هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكِ دَمِي وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِي؟!»، قالوا: مَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا تَقُولُ، فَقَالَ: «إِنَّ فِيكُمْ مَنْ لَوْ سَأَلْتُمُوهُ لَأَخْبَرَكُمْ أَنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَفِي أَخِي، سَلُوا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَالْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ، وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُكُمْ أَنَّهُ سَمِعَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَفِي أَخِي، فَإِنْ كُنتُمْ تَشْكُونَ فِي هَذَا أَفْتَشْكُونَ فِي أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟ فَوَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ الْكَذِبَ مُنْذُ عَرَفْتُ أَنَّ اللهَ يَمُقُّ عَلَى الْكَذِبِ أَهْلَهُ وَيَضُرُّ بِهِ مَنْ اخْتَلَقَهُ، فَوَاللهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ خَاصَّةً غَيْرِي،

(١) اللهوف: ٣٨؛ كشف الغمّة ٢: ٢٣٩؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٩٧/ ح

(١٤) في ذكر شيء من خطبه عليه السلام ٢٣٧

خَبَرُونِي هَلْ تَطْلُبُونَنِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتُهُ، أَوْ بِمَالٍ اسْتَهْلَكْتُهُ، أَوْ بِقِصَاصٍ
مِنْ جِرَاحَةٍ؟^(١).

* * *

(١) راجع: كشف الغمّة ٢: ٢٢٣؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٠٧ و ٥٠٨ / ح
(٢٦٩ / ٤٨٦).

فضله عليه السلام في شيء من كتبه

قيل: يدلُّ على عقل العاقل أمور: رسوله، كتابه، هديّته.

وإنّما كان الكتاب دليلاً على عقلية المرء، لأنّه لا يصدر في الغالب إلّا عن أناة وإمعان، ولا يجري القلم إلّا بما يفهم، وكنت أسمع بعض أساتذتي يقول: (المطلب لا يفهم حتّى يخرج من تحت القلم)، إشارة إلى أنّ كتابة الشيء تحت على فهمه، فهو لا يكتب شيئاً حتّى يفهمه، وأيضاً الكاتب يعلم أنّ ما يكتبه يُسجّل عليه في تاريخه، فإن كان خيراً ذكّر به وإن كان شراً ذكّر به، ولا يكاد الرجل مهما كان سافلاً ساقطاً يقدم على ما فيه عيبه وفضيخته.

ترى معاوية مع ما فيه لماً كتب إلى الحسين عليه السلام وكتب إليه الحسين يكشف له عن عيوبه طولب بالجواب على كتابة الحسين عليه السلام وتعيّبه كما عابه فأحجم قائلاً: (وما عسيت أن أعيب حسيناً، والله ما أرى للعيب فيه موضعاً)^(١).

روى أبو عمرو ومحمّد بن عمرو الكشي في (معرفة أخبار الرجال)، وأبو جعفر الطوسي في (اختيار الرجال)، وابن قتيبة في (الإمامة والسياسة)^(٢): إنّ معاوية كتب إلى الحسين عليه السلام:

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢١٤ / ح ٩.

(٢) راجع: اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٢ - ٢٥٩؛ الإمامة والسياسة ١: ١٥٥ - ١٥٧.

(أما بعد، فقد انتهت إليَّ أمور عنك إن كانت حقاً فقد أظنَّك تركتها رغبةً فدعها، ولعمر الله إنَّ من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء، وإنَّ أحقَّ الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها، وإن كان الذي بلغني باطلاً فإنَّك أنت أعدل الناس لذلك، وعظ نفسك، فاذكر، وبعهد الله أوف، فإنَّك متى تنكرني أنكرك ومتى تكدي أكذك، فاتَّق شقَّ عصا هذه الأُمّة، وأن يردهم الله على يديك في فتنة، فقد عرفت الناس وبلوتهم، فانظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمد ﷺ، ولا يستخفَّنك السفهاء والذين لا يعلمون.

فلما وصل الكتاب إلى الحسين ﷺ كتب إليه:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنَّه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وإنَّ الحسنات لا يهدي لها ولا يُسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنَّه رقي إليك عني فإنَّه إنَّما رقاها إليك الملائقون المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاؤون، ما أردت لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وأني لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإعذار فيه إليك، وإلى أوليائك القاسطين - الجائرين - الملحدّين، حزب الظلمة وأولياء الشياطين، ألسن القتال حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلّين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكّدة، جرأة على الله واستخفافاً بعهده.

أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفرَّ لونه؟ فقتلته بعدما أمنتها وأعطيتها من العهود ما لو فهمته العُصم^(١) لنزلت من رؤوس الجبال.

أولست بمدَّع زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف؟ فزعمت أنه ابن أبيك، وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر. فتركت سنة رسول الله ﷺ تعمداً وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك.

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي عليه السلام - هكذا رواية ابن قتيبة -؟ فكتبت إليه أن أقتل كل من كان على دين علي، فقتلهم ومثل بهم بأمرك، - قال ابن قتيبة: ودين علي هو دين ابن عمه رسول الله - الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشَّم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف.

وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ﷺ، وأتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم إلى فتنة، وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من أن أجاهدك، فإن فعلت فإنه قرابة إلى الله، وإن تركته فإنني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.

وقلت فيما قلت: إني إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكديني، فكديني

(١) أي الوعول، جمع الوعل، وهي الشاة الجبلية. (راجع: الصحاح للجوهري ٥:

١٩٨٦ / مادة عصم؛ العين للفراهيدي ٢: ٢٤٩ / مادة وعل).

ما بدا لك، فلنّي أرجو أن لا يضرني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضّر منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا، فقتلتهم مخافة أمرٍ لعلك لو لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فابشريا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس أخذك بالظنة، وقتلك أوليائه على التهمة، ونفيك أوليائه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس ببيعة ابنك غلام حدث يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا قد خسرت نفسك، وتبرت دينك، وغششت رعيّتك، وأخربت أمانتك، وسمعت مقالة السفیه الجاهل، وأخفت الورع التقي، والسلام».

قال الكشي: فلما قرأ معاوية الكتاب قال: لقد كان في نفسه ضبُّ ما أشعر به، فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، أجبه جواباً يُصغّر إليه نفسه تذكر فيه أباه بشرّ فعله.

ودخل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال معاوية: أمّا رأيت ما كتب به الحسين عليه السلام؟ فقال: وما هو؟ فأقرأه الكتاب، فقال: وما يمنعك أن تحببه بما يُصغّر إليه نفسه، وإنّا قال ذلك في هوى معاوية، فقال يزيد: رأيت يا أمير المؤمنين رأيي، فضحك معاوية، وقال: أمّا يزيد فقد أشار عليّ بمثل رأيك، قال عبد الله: قد أصاب يزيد، فقال معاوية:

أخطأتما، رأيتما لو أنّي ذهبت لعيب علي محققاً فما عسيت أن أقول فيه؟ ومثلي لا يحسن أن يعيب بالباطل وما لا يُعرف، ومتى ما عبت رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به، ولا يروه شيئاً، وكذبوه، وما عسيت أن أعيب حسيناً، والله لا أرى للعيب فيه موضعاً، وقد رأيت أن أكتب إليه أتوعده وأهدّده، ثم رأيت ألا أفعل.

نعم لم يجد معاوية للحسين عليه السلام عيباً، وكيف يجد لمن عصمه الله من الزلل وطهره من الرجز تطهيراً؟

قد قال ذلك معاوية وإنّه ليتجسّس لعلّه يصيب للحسين عليه السلام عيباً أو يعثر لأبي عبد الله على زلّة، كتب إليه عينه بالمدينة: إنّ الحسين عليه السلام أعتق جارية وتزوّجها، فظنّها بجهله منقصة للسلطان، فاغتنم الفرصة في التعبير بها، فكتب إليه بذلك يقول:

(أمّا بعد، فإنّه بلغني أنّك تزوّجت جاريّتك، وتركت أكفءك من قریش من تستنجه للولد، وتُجّد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت، ولا لولدك انتقيت).

ولمّا مثلت هذه الرسالة بين يدي الإمام عليه السلام نظر إليها، فرأى فيها روح الجاهلية ماثلة في سطورها وحروفها، فردّ عليه برسالة بيّن فيها مبادئ الإسلام وأهدافه السامية، وهذا نصّها:

«أمّا بعد، فقد بلغني كتابك وتعبيرك إيّاي بأنّي تزوّجت مولاتي وتركت أكفائي من قریش، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ولا غاية في نسب، وإنّما كانت ملك يميني خرجت عن يدي لأمر التمسّت فيه ثواب الله، ثمّ أرجعتها على سُنّة نبيّه ﷺ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيّة ووضع عنّاه به النقيصة، فلا لوم على امرء مسلم إلّا في أمر مآثم، وإنّما اللوم لوم الجاهلية».

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقراه، وقال: لشد ما فخر عليك الحسين عليه السلام، قال: لا ولكنّها ألسنة بني هاشم الحداد التي تغلق الصخر وتغرف من البحر^(١).

لقد دلّ الإمام عليه السلام خصمه العنيد على الشرف الواقعي والفضل الحقيقي، فإنّه يحوم حول طاعة الله والتمسك بمعالم الدين وأهدافه، وأيُّ نقص على الإمام حينما تزوّج بأمة مسلمة بعدما أعتقها؟ فإنّه لم يخالف بذلك كتاب الله ولا سنّة نبيّه، فقد جعل الإسلام المسلم كفؤه المسلمة، لقد زوّج رسول الله ﷺ بنت عمّه زينب وأمّها بنت عبد المطلب من غلامه ومملوكه وعتيقه زيد بن حارثة، وقد قضى بذلك على سيّئة التعالي بالأنساب ونعرة الجاهلية.

وكتب عليه السلام إلى أهل الكوفة بعد أن كتب إليه أهل الكوفة كتاباً كثيرة يستدعونه إليهم ويستقدمونه عليهم وهو يترث ولا يجيب، ثم كتب إليهم جميعاً كتاباً واحداً.

كتابه عليه السلام إلى أهل الكوفة مع هاني بن هاني:

روى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في (الأخبار الطوال)^(٢):
إنّه لما تابعت على الحسين عليه السلام مع رسل أهل الكوفة كتبهم يستدعونه، كتب الحسين عليه السلام إليهم جميعاً كتاباً واحداً ودفعه إلى هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله، نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة، سلام عليكم.

(١) زهر الآداب للقيرواني ١: ١٠١.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٣٠.

أمّا بعد، فقد أتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدمي عليكم، وأنا باعث لكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم، وأخبرتني رسلكم أسرع القدوم عليكم إن شاء الله، والسلام».

وفي رواية محمد بن جرير الطبري في (تاريخ الأمم والملوك)^(١) هذا الكتاب، وفي آخره:

«وقد بعثت إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليّ أنّه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله. فلعمري ما لإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام».

كتابه عليه السلام إلى أهل الكوفة مع قيس الصيداوي:

وكتب إليهم أيضاً مع قيس بن مسهر الصيداوي بعد أن وفد مسلم إلى الكوفة وأخذ البيعة عليهم للحسين عليه السلام، فكتب إليه يُخبره بذلك، فكتب الحسين عليه السلام إليهم؛ روى ابن كثير في (البداية والنهاية)^(٢) أنّ الحسين عليه السلام بعث قيس بن مسهر الصيداوي إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم:

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٦٢.

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٨١.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِن كِتَابَ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ جَاءَنِي يُخْبِرُنِي فِيهِ بِحُسْنِ رَأْيِكُمْ، وَاجْتِمَاعِ مَلِكِكُمْ عَلَى نَصْرِنَا، وَالطَّلَبِ بِحَقِّنَا، فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ لَنَا الصَّنِيعَ، وَأَنْ يُثَبِّتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ الْأَجْرِ، وَقَدْ شَخَصْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ لِنِهَايَةِ مَضِيِّ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَسُولِي فَاتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَجِدُّوا، فَإِنِّي قَادِمٌ عَلَيْكُمْ فِي أَيَّامِي هَذِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالسَّلَامُ».

كتابه ﷺ إلى أهل البصرة:

وكتب ﷺ كتاباً إلى أهل البصرة يدعوهم إلى نصرته؛ روى ابن جرير الطبري^(١) أَنَّ الحسین ﷺ بعث مع مولی له یقال له: سلیمان کتاباً إلى أشرف أهل البصرة نسخة واحدة فيه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى خَلْقِهِ، وَأَكْرَمَهُ بِنُبُوَّتِهِ، وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ قَبَضَهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ نَصَحَ لِعِبَادِهِ، وَبَلَغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، وَكُنَّا أَهْلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَأَوْصِيَاءَهُ وَوَرَثَتُهُ، وَأَحَقَّ النَّاسُ بِمَقَامِهِ فِي النَّاسِ، فَاسْتَأْثَرَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا بِذَلِكَ، فََرْضِينَا وَكَرِهْنَا الْفُرْقَةَ وَأَحْبَبْنَا الْعَافِيَةَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا أَحَقُّ بِذَلِكَ الْحَقِّ مِمَّنْ تَوَلَّاهُ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَإِنَّ الْبِدْعَةَ قَدْ أَحْيِيَتْ، فَإِنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

* * *

(١٦)

فضله عليه السلام في جوده وكرمه وعطاياه ومواهبه

الجود في الإنسان صفة فاضلة وخلّة شريفة، إلّا أنّ هذه الصفة بالنسبة إلى صفات الحسين عليه السلام وخلال له المحمودة هي أقلّها وأدناها، قال في (كشف الغمّة) في باب كرم الحسين عليه السلام وجوده:

(قد اشتهر النقل عنه عليه السلام أنّه كان يكرم الضيف، ويمنح الطالب، ويصل الرحم، وينيل الفقير، ويسعف السائل، ويكسو العاري، ويُسبغ الجائع، ويعطي الغارم، ويشدّ من الضعيف، ويشفق على اليتيم، ويعين ذا الحاجة، وقُلَّ أن وصله مال إلّا فرّقه)^(١).

وكذلك قال محمّد بن أبي طلحة الشافعي في الفصل السابع من كتاب (مطالب السؤل) في باب كرم الحسين عليه السلام وجوده^(٢).

إلّا أنّ العارف إذا تأمّل وجد كلّما ذكره من هذه الآثار الجميلة، والفروع الناضرة الثابتة على أصل الجود، القائمة على جذور الكرم، حقيرة بالنسبة إلى ما للحسين عليه السلام من الفضائل، ضئيلة في جنب ما ظهر به من المحامد والمفاخر.

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٣٢.

(٢) مطالب السؤل: ٣٨٦.

قال صاحب كشف الغمّة: (وكيف لا يجود بالمال من يجود بنفسه النفيسة في مواطن النزال؟ وكيف لا يسمح بالعاجل من همّه في الآجل؟ ولا ريب عند العقلاء أنّ من جاد بنفسه في القتال فهو بالمال أجود، ومن زهد في الحياة المحبوبة فهو في الحطام الفاني أزهد)^(١).
ولكن لا بدّ هنا من إيراد بعض ما ورد عنه في الجود:

كرم الحسين ﷺ مع المرأة العجوز:

قال في (كشف الغمّة)^(٢)، والحموي في (ثمرات الأوراق) في الجزء الثاني من هامش (المستطرف)، واللفظ لصاحب كشف الغمّة:
عن أبي الحسن المدائني، قال: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجّاجاً، ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوز في خباء لها، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا بها، وليس لها إلّا شوية في كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتدقوا لبنها، ففعلوا ذلك، وقالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلّا هذه الشاة، فليذبحنّها أحدكم حتّى أهينّ لكم شيئاً تأكلون، فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها، ثمّ هيأت لهم طعاماً فأكلوا، ثمّ أقاموا حتّى بردوا، فلمّا ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنّا صانعون إليك خيراً، ثمّ ارتحلوا، وأقبل زوجها، وأخبرته عن القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويحك أتذبحين شاتي لأقوام لا تعرفينهم ثمّ تقولين: نفر من قريش؟

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٣٤.

(٢) راجع: كشف الغمّة ٢: ١٨١ و ١٨٢.

ثم بعد مدّة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلوها وجعلوا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويعيشان منه، فمرّت العجوز في بعض سكك المدينة، فإذا الحسن عليه السلام على باب داره جالس، فعرفت العجوز وهي له منكراً، فبعث غلامه فردّها، فقال لها: «يا أمة الله، أتعرفيني؟»، قال: لا، قال: «أنا ضيفك يوم كذا وكذا»، فقالت العجوز: بأبي أنت وأُمّي لست أعرفك، فقال: «فإن لم تعرفيني فأنا أعرفك»، فأمر الحسن عليه السلام فاشترى لها من شاء الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين عليه السلام، فقال: «بكم وصلك أخى الحسن؟»، فقالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال: بكم وصلك الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة، فأمر لها عبد الله بألفي دينار وألفي شاة، فرجعت العجوز إلى زوجها بذلك.

وروى أحمد بن سليمان بن علي البحراني في (عقد اللآل في مناقب الال) ^(١) أنّ الحسين عليه السلام كان جالساً في مسجد رسول الله ﷺ بعد وفاة أخيه الحسن عليه السلام، وكان عبد الله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد، وعتبة ابن أبي سفيان في ناحية أخرى، فجاء أعرابي على ناقه فعقلها بباب المسجد ودخل، فوقف على عتبة بن أبي سفيان فسلم عليه فردّ عليه السلام، فقال له: إني قتل ابن عمّ لي وطولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فرفع رأسه إلى غلامه وقال: ادفع إليه مائة درهم، فقال الأعرابي: ما أريد إلاّ الدية تماماً، ثم تركه وأتى عبد الله بن الزبير، وقال

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ٣٣: ٦٢٦، عن أحسن القصص ٤: ٢٢٤ / ط دار الكتب العلمية / بيروت.

له مثل ما قال لعتبة، فقال عبد الله لغلّامه: ادفّع له مائتي درهم، فقال الأعرابي: ما أريد إلّا الدية تمامًا، ثم تركه وأتى الحسين ﷺ فسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله، إنّي قتلت ابن عمّي وقد طولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئًا؟ فقال له ﷺ: «يا أعرابي، نحن قوم لا نعطي المعروف إلّا على قدر المعرفة»، فقال له: سلّ ما تريد. فقال له الحسين ﷺ: «يا أعرابي، ما النجاة من الهلكة؟»، قال: التوكّل على الله ﷻ، فقال: «وما الهمة؟»، قال: الثقة بالله، ثمّ سأله ﷺ غير ذلك وأجاب، فأمر له الحسين ﷺ بعشرة آلاف درهم، وقال: «هذه لقضاء ديونك»، وعشرة آلاف درهم أخرى وقال: «هذه تلمّها بها شعئك، وتُحسّن بها حالك، وتُنفق منها على عيالك»، فأنشأ الأعرابي يقول:

طربت وما هاج لي معبّق	ولا لي مقام ولا معشّق
ولكن طربت لآل الرسول	فلدّ لي الشعر والمنطق
هم الأكرمون هم الأنجبون	نجوم السماء بهم تشرق
سبقت الأنام إلى المكرمات	وأنت الجواد فلا تلحق
أبوك الذي ساد بالمكرمات	فقصّر عن سبقه السُبق
به فتح الله باب الرشاد	وباب الفساد به مغلق

أنظر أنّي لأميّة ومن على شاكلتهم شأ وبني هاشم، ومن أين لهم مثل نفوسهم؟ ولقد صدّق أمير المؤمنين ﷺ وقد سُئِلَ عن بني هاشم وبني أميّة، فقال: «نحن أجمد وأنجد وأجود، وهم أغدر وأمكر وأنكر»^(١).

وذكر البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوي)^(١) في باب محاسن الحسن والحسين عليهما السلام، قال:

وذكروا أنَّ رجلين أحدهما من بني هاشم والآخر من بني أمية، قال هذا: قومي أسمع، وقال هذا: قومي أسمع، قال: فسَل أنت عشرة من قومك وأنا أسأل عشرة من قومي، فانطلق صاحب بني أمية فسأل عشرة فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي عليه السلام فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين عليه السلام فقال: «هل بدأت بأحد قبلي؟»، قال: بدأت بالحسن، قال: «ما كنت أستطيع أن أزيد على سيدي شيئاً»، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم، فجاء صاحب بني أمية يحمل مائة ألف درهم من عشرة أنفس، وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحب بني أمية فردّها عليهم فقبلوها، وجاء صاحب بني هاشم فردّها عليهما فأبيا أن يقبلاها وقالوا: «ما كنّا نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق».

قال علي جلال الحسيني المصري في كتابه (حياة الحسين عليه السلام):

وروى ابن عساكر في (التاريخ الكبير)^(٢) أنَّ سائلاً خرج يتخطى أزقة المدينة حتّى أتى باب الحسين عليه السلام فقرع الباب وأنشأ يقول:

لم يخب الآن من رجاك ومن حرّك من دون بابك الحلقة
أنت ذو الجود وأنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفسقه

(١) أنظر: شرح إحقاق الحقّ ١٩: ٢٧١، عن المحاسن والمساوي: ٥٦ / ط بيروت.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٨٥.

وكان الحسين ﷺ واقفاً يُصلي، فخفف من صلاته، وخرج إلى الأعرابي، فرأى عليه أثر ضرر وفاقة، فرجع ونادى بقنبر، فأجابه: لبيك يا ابن رسول الله، قال: «ما بقي معك؟»، قال: أربعة آلاف دينار، فقال: «هاتها فقد جاء من هو أحقُّ بها»، ثم نزع ﷺ بردته ولفَّ الدنانير فيها وأخرج يده من شقِّ الباب حياءً من الأعرابي، وأنشأ يقول:

خذا فلاني إليك معتذر واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا عصاً تمُدُّ إذن كانت سماناً عليك مندفقه
لكن ريب الزمان ذو غير والكفُّ منِّي قليلة النفقه
فأخذها الأعرابي وبكى، فدعاه ﷺ فقال: «لعلَّك استقلت ما أعطيناك»، قال: لا، فقال: «ولم تبكي؟»، قال: أبكي وأقول: كيف يأكل التراب جودك؟

ودخل ﷺ على أسامة بن زيد وهو في مرضه، فسمعه يقول: واغماه، فقال له الحسين ﷺ: «وما غمك يا أخي؟»، قال: ديني وهو ستون ألف درهم، فقال الحسين ﷺ: «هو علي»، قال: إني أخشى أن أموت، فقال ﷺ: «لن تموت حتَّى أقضيها عنك»، فقضاها ﷺ قبل موته^(١).

(١) قضية الحسين ﷺ في العطاء لا ترجع إلى طبيعة الجود، بل إلى الأسى والمواساة، فقد كان ابن جعفر جواداً يُعطي كثيراً ويهب كثيراً، حتَّى لامه الحسين ﷺ على تبذيره، ولكنَّه يعطي للإعطاء سواء وقع موقعه أم اختلف عنه، فإنَّ العطاء لذَّة الجواد بعيداً عن كلِّ شعور آخر. ولقد أجاد بشار حين قال:

إنَّما لذَّة الجواد ابن سلم في عطاء ومركب للقاء

فهو يشاركنا في أنَّ الجود لذَّة الجواد، وهو مدفوع لطلب هذه اللذَّة وحدها بدون دافع آخر ومؤثِّر ورائه؛ وأمَّا الحسين ﷺ في هذه القصَّة فهو لا يعطي للجود، ولكن للمواساة والمشاركة الوجدانية. (المؤلَّف رحمه الله).

كرم الحسين عليه السلام مع الأعرابي:

روى ابن قتيبة في (عيون الأخبار) المجلد الثالث^(١):
 أَنَّ رجلاً أتى الحسن بن علي عليهما السلام يسأله، فقال له الحسن عليه السلام:
 «إِنَّ المسألة لا تصلح إلَّا في غرم فادح، أو فقر مدقع، أو حَمالة^(٢) مفضعة»،
 فقال الرجل: ما جئت إلَّا في إحداهنَّ، فأمر له بمائة دينار. ثُمَّ أتى الرجل
 الحسين عليه السلام فسأله، فقال له الحسين عليه السلام مثل مقالة أخيه، فردَّ عليه كما
 ردَّ على الحسن، فقال: «كم أعطاك أخي الحسن؟»، قال: مائة دينار،
 فنقصه عليه السلام ديناراً كره أن يساوي أخاه. ثُمَّ أتى الرجل عبد الله بن عمر
 فسأله فأعطاه سبعة دنائير ولم يسأله عن شيء، فقال الرجل له: إني أتيت
 الحسن والحسين عليهما السلام، واقتصر كلامهما عليه وفعلهما به، فقال عبد الله:
 ويحك وإني تجعلني مثلهما؟ إنَّهما غرَّا العلم غرًّا المال.

أَمَّا أُنَّهما غرَّا العلم فنعَم، وأَمَّا أُنَّهما غرَّا المال فلا، كيف ولم يترك لهم رسول
 الله ﷺ إلَّا نخيلات بفدك، وقد استولت عليها يد السياسة فأخذتها منهم، وما
 ترك أمير المؤمنين عليه السلام صفراء ولا بيضاء إلَّا أربعمائة درهم فضلت من عطائه
 كان يريد أن يشتري بها خادماً لأهله، ولكنَّهم أهل البيت عليهم السلام «يُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
 وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (الحشر: ٩).

كرم الحسين عليه السلام مع الجارية:

وروى علي بن الصَّبَّاح المالكي في (الفصول المهمة)^(٣):

(١) عيون الأخبار ٣: ١٥٨.

(٢) الحَمالة: الدية يحملها قوم عن قوم. (العين للفراهيدي ٣: ٢٤١ / مَادَّةُ حمل).

(٣) الفصول المهمة ٢: ٧٦٨ و٧٦٩.

عن أنس، قال: كنت عند الحسين ﷺ، فدخلت عليه جارية بيدها طاقة ريحان فحيتّه بها، فقال لها: «أنت حرّة لوجه الله تعالى»، فقلت له: جارية تحيئك بطاقة ريحان فتعتقها؟ فقال: «كذا أدبنا الله، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦]؟ وكان أحسن منها عتقها».

وجنى بعض مواليه جناية توجب التأديب، فأمر بتأديبه، فقال: يا مولاي، قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال ﷺ: «خلّوا عنه، فقد كظمت غيظي»، فقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال ﷺ: «قد عفوت عنك»، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال ﷺ: «أنت حرّ لوجه الله تعالى»، وأجازه بجائزة سنّية.

فهذه سجيّة الجود وشنشنة الكرم، وصفة من حوى مكارم الأخلاق، وقد اعترف معاوية بجوده وكرمه وهو أعدى عدوّ للحسين ﷺ، والفضل ما تشهد به الأعداء.

قال علي جلال الحسين المصري في كتابه (حياة الحسين ﷺ) في هذا الخبر: لم يبق الحسين ﷺ لنفسه ممّا أرسله إليه معاوية شيئاً، بل أضاف إليه من ماله وتصدّق بكليهما.

قال الفخر الرازي في الجزء الثاني من تفسيره (ص ١٩٨ / مطبعة البهية) في ضمن تفسير هذه الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)، قال: قصد الحسين بن علي ﷺ أعرابي، فسلم عليه، وسأله حاجة، وقال: سمعت جدّك يقول: «إذا سألتكم حاجة فاسألوها من أحد أربعة: إمّا عربي شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن، أو صاحب وجه صبيح»، فأما العرب فشرفّت بجدّك، وأما الكرم فبدأ بكم وسيرتكم،

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَفِي بَيوتكم نزل، وَأَمَّا الوجه الصبيح فَإِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أردتم أن تنظروا إليَّ فانظروا إلى الحسن والحسين عليهما السلام»، فقال الحسين عليه السلام: «ما حاجتك؟»، فكتبها على الأرض، فقال عليه السلام: «سمعت أبي علياً يقول: قيمة كل امرئ ما يُحْسِنُه، وسمعت جدِّي يقول: المعروف بقدر المعرفة، فأسألك عن ثلاث مسائل إن أحسنت في جواب واحدة فلك ثلث ما عندي، وإن أجبت عن اثنتين فلك ثلثا ما عندي، وإن أجبت عن الثلاث فلك كل ما عندي، وقد حُمِلَ إليَّ صرّة مختومة من العراق»، فقال: سَلْ، ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله، فقال عليه السلام: «أيُّ الأعمال أفضل؟»، قال الأعرابي: الإيمان بالله، قال: «فما نجاة العبد من الهلكة؟»، قال: الثقة بالله، قال: «فما يزين المرء؟»، قال: علم معه حلم، قال: «فإن أخطأه ذلك؟»، قال: فمال معه كرم، قال: «فإن أخطأه ذلك؟»، قال: فقفر معه صبر، قال: «فإن أخطأه ذلك؟»، قال: فصاعقة تنزل من السماء فتحرقه، فضحك الحسين عليه السلام ورمى بالصرّة إليه، انتهى.

جمهرة من شعره عليه السلام

الشعر صياغة وضرب من التصوير قلَّ القادرون على سبك ألفاظه، وقلَّ من ذوي الفطنة من يحسن الغوص في بحر التصوير، وقلَّ من يحسن استخراج لآلئ المعاني من ذلك البحر بعد الفكر، فما ظنك بمن يرتجله ارتجالاً، ويقتضبه اقتضاباً على البديهة، فيأتي به حسن السبك، رقيق الألفاظ، جزل المعنى، مرصوص المباني، بديع الانسجام، غير متلعثم ولا متلغئ.

وقد عرضت مصادر التاريخ والأدب العربي إلى بعض ما نظمه الإمام الحسين عليه السلام من الشعر، وما استشهد به في بعض المناسبات. فمن شعره عليه السلام في ابنته وأُمِّها:

لقد جمع الحسين عليه السلام إلى خشونته في ذات الله وانقطاعه إليه وإخلاصه في طاعته وعبادته، لطافة المحاضرة وحسن المعاشرة ورقّة العاطفة وكمال المؤانسة وجمال الأريحية، كما يُحدِّثنا عن ذلك كلّ شعره؛ روى أبو الفرج الأصبهاني في (الأغاني) المجلّد الرابع عشر^(١) قول الحسين عليه السلام في زوجته الرباب وابنته سكينه:

لعمرك إنني لأحبّ داراً تكون بها سكينه والرباب

أحبّهما وأبذل جُلّ مالي وليس لعاتب عندي عتاب
ومن شعره عليه السلام في الحِكم:
إذا ما عَضَّكَ الدهر فلا تجنح إلى الخلق
ولا تسأل سوى الله تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وطوّفت من الغرب إلى الشرق
لما صادفت من يقدر أن يُسعد أو يُشقي^(١)
حتّ هذا الشعر على القناعة وإباء النفس، وعدم الخنوع للغير،
وأهاب بالإنسان أن يسأل أحداً إلّا ربّه الذي بيده مجريات الأحداث.
ومن شعره عليه السلام فيما ذكره ابن عساكر في تاريخه المجلّد الرابع^(٢):
اغن عن المخلوق بالخالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق
من ظنّ أنّ الناس يغنونه فليس بالرحمن بالوائق
أو ظنّ أنّ المال من كسبه زلّت به النعلان من حالق
وفي هذه الأبيات دعوة إلى الالتجاء إلى الله خالق الكون ووهاب
الحياة، والاستغناء عمّن سواه، فإنّ من ركن لغيره فقد خاب سعيه وحاد
عن الصواب.
ومنه وقد نقل عن الأعمش:
كلّما زيد صاحب المال مالاً زيد في همّه وفي الاشتغال
قد عرفناك يا منغّصة العيش ويا دار كلّ فاني وبال

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٤٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٨٦.

ليس يصفو لزاهد طلب الزهد إذا كان مثقلاً بالعيال^(١)
تحدّث الإمام عليه السلام بهذه الأبيات عن ظاهرة خاصّة من ظواهر
الحياة، وهي أنّ الإنسان كلّما اتّسع نطاقه المادّي ازدادت آلامه وهمومه
وازداد جهداً وعناءً في تصريف شؤون أمواله وزيادة أرباحها، كما
تحدّث عمّن يرغب في الزهد في الحياة، فإنّه لا يجد سيلاً إلى ذلك ما دام
مثقلاً بالعيال، فإنّ شغله بذلك يمنعه عن الزهد في الدنيا.

وعن ابن كثير في (البداية والنهاية)^(٢)، عن إسحاق بن إبراهيم
قال: بلغني أنّ الحسين عليه السلام زار مقابر الشهداء بالقيع فقال:

ناديت سكّان القبور فأسكتوا فأجابني عن صمتهم ترب الحصا
قالت أتدري ما صنعتُ بساكني مزقْتُ لحمهم وخرقْتُ الكسا
وحشوتُ أعينهم تراباً بعدما كانت تأذى باليسير من القذا
أمّا العظام فإنّني مزقْتُها حتّى تباينت المفاصل والشوا
قطعتُ ذا من ذا ومن هذا كذا فتركْتُها رمماً يطوف بها البلا

حفلت هذه الأبيات بالدعوة إلى الاعتبار والعظة بمصير
الإنسان، وأنّه حينما يُودّع في بطن الأرض لم يلبث أن يتلاشى وتذهب
نضارته، ويعود بعد قليل كتلة من التراب المهين.

ومن شعره عليه السلام في الكفّ عن البغي ما ذكره صاحب كشف

الغمّة^(٣):

(١) المصدر السابق.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٢٢٨.

(٣) كشف الغمّة ٢: ٢٤٤.

ذهب الذين أُحِبُّهُمْ وبقيتُ فيمن لا أُحِبُّهُ
 فيمن أراه يسبِّني ظهر المغيب ولا أَسْبُهُ
 يبغي فساد ما استطاع وأمره ممَّا أُرْبُّهُ^(١)
 حنقاً يدبُّ لي الضراء وذلك ممَّا لا أدبُّهُ^(٢)
 ويرى ذباب الشرِّ من حولي يطنُّ ولا يذبُّهُ
 وإذا خبا وغر الصدور فلا يزال به يُشَبُّهُ
 أفلا يعيِّج بعقله أفلا يثوب إليه لُبُّهُ
 أفلا يرى أن فعله ما قد يسور إليه غِبُّهُ^(٣)
 حسبي برِّي كافياً ما أحتشي والبغي حسبه
 ولقلَّ من يبغي عليه فما كفاه الله ربُّهُ

وتحدَّث عليه السلام بهذه الأبيات عن إحدى النزعات الشريرة في الإنسان وهي البغي، فإنَّ من يتلوَّث به يسعى دوماً إلى سبِّ أخيه والاعتداء عليه وإفساد أمره، وإنَّه إذا سكن وغر الصدور فإنَّه يسعى لإثارتها انطلاقاً منه في البغي والاعتداء، وقد وجَّه عليه السلام إليه النصح، فإنَّه إذا رجع إلى عقله وفكَّر في أمره فإنَّ غيَّه على أخيه يرجع إليه وتلحقه أضراره وآثامه، ومن الطبيعي أنَّه إذا أطال التفكير في ذلك فإنَّه يقلع عن نفسه هذه الصفة الشريرة حسب ما نصَّ عليه علماء الأخلاق.

-
- (١) يقال: تَأَرَّبَ عَلَيَّ إِذَا تَعَدَّى. (أنظر: النهاية في غريب الحديث ١: ٣٦ / مادة أرب).
- (١) يقال للرجل إذا ختل صاحبه ومكر به: هو يدبُّ له الضراء. (النهاية في غريب الحديث ٣: ٧٨ / مادة ضراً).
- (٣) غِبُّ كُلِّ شَيْءٍ: عاقبته. (راجع: الصحاح للجوهري ١: ١٩٠ / مادة غيب).

روى علي بن عيسى الإربلي في كتابه (كشف الغمّة)^(١) من شعره
 فِي الْحَكَمِ وَقَدْ بَلَغَهُ قَتْلُ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ فَتَرَحَّمْ عَلَيْهِ وَقَالَ: «صَارَ إِلَيَّ
 رُوحُ اللَّهِ وَرِيحَانُهُ، أَمَا إِنَّهُ قَضِيَ مَا عَلَيْهِ وَبَقِيَ مَا عَلَيْنَا»، وَأَنْشَدَ:
 وَإِنْ تَكُنِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أَنْشُتَ فَقَتَلَ امْرَأً فِي اللَّهِ بِالسَّيْفِ أَجْمَلُ
 وَإِنْ تَكُنِ الْأَمْوَالُ لِلتَّرِكَ جَمَعَهَا فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْمَرْءُ يَبْخُلُ
 يَقُولُ عَلِيُّ جَلَالُ الْحُسَيْنِيِّ الْمِصْرِيِّ فِي كِتَابِهِ (الْحُسَيْنِ): وَقَرَأْتُ فِي
 كِتَابٍ لَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِ مُؤَلِّفِهِ مَا نَصَّه:

حَكَى عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّرْسُوسِيِّ أَنَّهُ يَقُولُ: كَانَ
 مَكْتُوبًا عَلَى رَايَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ قُتِلَ:
 لِئِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدُ نَفِيسَةً فَدَارُ ثَوَابِ اللَّهِ أَعْلَى وَأَنْبَلُ
 وَإِنْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ قِسْمًا مَقْدَرًا فَقَلَّةُ سَعْيِ الْمَرْءِ بِالْكَسْبِ أَجْمَلُ
 وَإِنْ كَانَ الْأَمْوَالُ لِلتَّرِكَ جَمَعَهَا فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْمَرْءُ يَبْخُلُ^(٢)
 وَمِنْ شَعْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْإِبَاءِ:

الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ
 وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا جَارِي^(٣)

وَمِنْ شَعْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِذَا اسْتَنْصَرَ الْمَرْءُ امْرَأً لَا يَدُّ لَهُ فَنَاصِرُهُ وَالْخَاذِلُونَ سُوءُ

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٣٨.

(٢) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤.

أنا ابن الذي قد تعلمون مكانه وليس على الحق المبين طحاء^{(١)(٢)}

ومن شعره عليه السلام يوم الطف مفتخراً:

أنا ابن علي الطهر من آل هاشم
وطني رسول الله أكرم من مشى
وفاطمة أمي سلالة أحمد
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً
ونحن ولادة الحوض نسقي ولاتنا
وشيعتنا في الناس أكرم شيعة
وممن شعره عليه السلام يوم الطف وقد قُتل ولده الصغير بسهم جاءه
من القوم، فحفر له عليه السلام بسيفه وصلى عليه ودفنه وقال:

غدر القوم وقدماً رغبوا
عن ثواب الله ربّ الثقلين^{(٤)(٥)}



(١) الطحاء بالمدّ: السحاب المرتفع. (الصحاح للجوهري ٦: ٢٤١٢ / مادة طخا).

(٢) كشف الغمّة ٢: ٢٤٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٣.

(٥) تمّ الجزء الأول بتوفيق من الله تعالى بقلم مؤلفه حسن السيّد علي القبانجي النجفي في مدينة النجف الأشرف سنة (١٣٧٧) هجرية، ويليّه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى يتضمّن سيرة الحسين عليه السلام من المدينة المنورة إلى طفّ كربلاء.
إلى هنا انتهى المؤلف رحمته الله من الجزء الأول من كتابه، ونحن بعد الاختصار والحذف جعلناهما جزءاً واحداً.

كربلاء في التاريخ

يدور البحث في هذا الموضوع عن أقدس بقعة في الإسلام. تلك التي جارت أرض الكعبة في الشرف والمنزلة، وفاضت بنور الهداية والحرية على الأقطار الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها. وقد جارت أرض الكعبة وفاقتها؛ لأنّها أصبحت بقعة إسلاميّة محضة لم تشترك فيها الجاهلية، ولا عرفت عبادة الأوثان والأصنام، ولأنّ تربتها امتزجت بدم هو من دم رسول الله ﷺ، واختلطت ذرّاتها بلحم هو من لحم رسول الله ﷺ كما نصّ عليه الحديث عن طرق الخاصّة والعامة^(١).

ولم تزل كربلاء تشعُّ بأنوارها السماوية على العالمين العربي والإسلامي، فيستوحي المسلم القرآني منها مبادئ الدين القويم، ويستلهم غير المسلم منها منهج الصراط المستقيم في الحياة. فهي اليوم على 'تعبير العقّاد'^(٢) حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى، يزوره غير المسلمين للنظر والمشاركة، ولكنّها لو أُعطيت

(١) عن يعلي بن مرّة، قال: قال رسول الله ﷺ: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط». (كامل الزيارات: ١١٦/ ح ١١/١٢٦؛

سنن الترمذي ٥: ٣٢٤/ ح ٣٨٦٤).

(٢) أبو الشهداء الحسين بن علي: ٧٥.

حقّها من التنويه والتخليد لحقّ لها أن تصبح مزاراً لكلّ آدميٍّ يعرف لبني نوعه نصيباً من القداسة وحظاً من الفضيلة، لأنّنا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الإنسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء بعد مصرع الحسين عليه السلام فيها، فكلُّ صفة من تلك الصفات العلية التي بها الإنسان إنسان وبغيرها لا يُحسب غير ضرب من الحيوان السائم، فهي مقرونة في الذاكرة بأيام الحسين عليه السلام في تلك البقعة الجرداء.

إذا كان لمأساة الطفّ أثرها البليغ في النفوس من مسلمين وغير المسلمين، وقد بلغ بها عظم المصاب حدّاً أنست هذه المأساة كلّ ما تقدّم أو تأخّر من المآسي البشرية في التاريخ، إذ أنّها تعدّت حدود المواطن والقوميات، فتغلّبت على اعتبارات الزمن وتطوّرات الأيام، فغدت لا تنحصر اليوم كما انحصرت غيرها في حدود دائرة ضيقة لموطن واحد أو زمن معيّن، بل انتشرت انتشار النور في الآفاق.

فأصبحت موجة عالمية جارفة موطنها العالم في كلّ عصر وزمان، تجرف في تيّارها القوي الأمم الإسلامية وغير الإسلامية على حدّ سواء، حتّى وأصبحت قلوب أقلّ الناس إحساساً وأقساهم قلباً موطناً لتلك الفاجعة التاريخية الأليمة كما وصفها المؤرّخ الإنكليزي الشهير (جيون) بقوله:

(إنّ مأساة الحسين عليه السلام المروّعة بالرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها لا بدّ أن تثير العطف والحنان في نفس أقلّ القراء إحساساً وأقساهم قلباً)^(١).

فلا غرو إذاً أن تكتسب كربلاء وحدها بين المدن الإسلامية

المقدّسة مثل هذه الشهرة العالمية، وتكتسب عطف الملايين من النفوس البشرية الحسّاسة في كلّ عصر، فتصبح حرماً للمسلمين وغير المسلمين، فيزورها المسلم للعبرة والذكرى، وغير المسلم للنظر والمشاهدة، فهي اليوم مزار يزوره الخاصّ والعامّ من مختلف الشعوب والأقوام، وستبقى كذلك ما دام الإسلام على وجه الأرض، وما دام في العالم عبّاد المبدأ وعشّاق العدل والحرّية.

مضافاً إلى ذلك أنّها من المراكز الدينية العظيمة في الإسلام، يؤمّها في السنة ما لا يقلّ عن المليون نسمة من الروّاد والزائرين من مختلف الأمم والشعوب للعبرة والذكرى.

كانت كربلاء قبل حادثة الطفّ وبعدها إلى أمد غير قصير منزل بني أسد العلويين مذهباً، وإلى اليوم يوجد منهم قوم في ضواحيها، وهم الذين توفّقوا لمساعدة الإمام زين العابدين عليه السلام على مواراة تلك الجثث الطواهر وصاروا أدلاء على تلك القبور.

كربلاء في عهد الرشيد العباسي:

وأقيمت الأبنية حول تلك الضرائح المقدّسة على عهد الأمويين، غير أنّ الرشيد العباسي في دوره هدم ذلك البناء وقطع سدره كانت عند القبر الطاهر يهتدي بها الزائرون إلى ضريح سيّد الشهداء عليه السلام ويستظلّون تحتها.

روى الشيخ الطوسي رحمته الله في أماليه في المجلس الحادي عشر^(١) مسنداً عن يحيى بن المغيرة الرازي، قال: كنت عند جرير بن عبد الحميد

إذ جاءه رجل من أهل العراق، فسأله جرير عن خبر الناس، فقال: تركت الرشيد وقد كرب قبر الحسين عليه السلام وأمر أن تُقَطَّع السدرة التي فيه فُقِطِعت، قال: فرفع جرير يديه، فقال: الله أكبر، جاءنا فيه حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لعن الله قاطع السدرة - ثلاثاً -». وكان القصد من قطعها تغيير مصرع الحسين عليه السلام حتى لا يقف الناس على قبره.

ويؤيد ما اقترفه الرشيد من الآثام نحو العلويين ونحو الحائر ما ذكره محمد بن علي المعروف بالطقطقي كما في كتابه الفخري^(١) ما نصّه: (لم يكن الرشيد يخاف الله، وأفعاله بأعيان آل علي عليه السلام وهم أولاد بنت نبيّه غير جرم تدلُّ على عدم خوفه من الله تعالى).

وقد جاء في المجلّد العاشر من البحار تفاصيل وافية عن هدم الرشيد لقبر الحسين عليه السلام، وكرب موضعه، ومحو أثره على يد موسى بن عيسى بن موسى العبّاسي عامله على الكوفة^(٢).

أمّا الرشيد نفسه فلم تطل أيامه بعد هدمه الحائر، فسار من بغداد إلى الري ومنها إلى خراسان، فاعتلّ في أثناء الطريق وغلط طبيبه جبريل بن بختيشوع في علاجه ممّا سبّب اشتداد العلّة، فشعر الرشيد بذلك وصمّم في تلك الليلة التي مات فيها أن ينتقم من جبريل شرّ انتقام وأن يُقَطَّع أعضائه، فأحضره ليفعل ذلك به، فاستمهل جبريل وقال له: أنظرنى إلى غد يا أمير المؤمنين، فإنّك ستصبح في عافية، فتدارك جبريل الأمر في تلك الليلة قبل أن يتمكّن الرشيد من قتله، فهات الرشيد في

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ٢٠.

(٢) راجع: بحار الأنوار ٤٥: ٣٩٠ / باب ٥٠.

ذلك اليوم، وهو يوم السبت ثالث جمادى الآخرة سنة (١٩٣) هجرية^(١)، ودُفِنَ هناك حيث أصبح بعد عشرة أعوام بالضبط مدفناً للرضا عليه السلام حفيد من كان الرشيد بالأمس هدم مرقده وكرب قبره في أخريات حياته.

وهذا الذي دعا العقّاد ذلك الكاتب العبقرى أن يُصوّر ذلك ببراغه الفنّي في شكل محاكمة تاريخية بينه وبين روح هارون بعد مضيّ اثني عشر قرناً فيقول له:

(وكأنّهم خافوا على قبرك أن ينبشه أشياخ علي عليه السلام فدفنوك في قبر الإمام العلوي لتأمن فيه النباش والمهانة بعد الممات، فمن عجب الدنيا أن يلوذ أبناء علي بملكك العريض فيضيق بهم، وأن يبحث أتباعك من ملاذ يحتمي به جثمان صاحب الملك الطويل العريض بعد مماته فيجدوه في قبر واحد من أولئك الحائرين اللائذين بأكناف البلدان في غير قرار ولا اطمئنان)^(٢).

لم تفت هذه الحقيقة على الكتاب المعاصرين، كما أنّها لم تفت بوقتها المقارنة بين الحالين على الشعراء المتقدّمين في عصر الرشيد، فبقارن دعبل الخزاعي الشاعر العربي الشهير بينهما عندما بلغه موت الرضا عليه السلام بأبيات جاء فيها:

إربّع بطوس على قبر الزكيّ به إن كنت تربّع من دين على فطر
قبران في طوس خير الناس كلّهم وقبر شرّهم هذا من العبر

(١) راجع: تاريخ الخلفاء: ٣٢١.

(٢) عن مجلّة الهلال عدد (أكتوبر ١٩٤٧م/ ص ٢٥) من مقال عنوانه: حديث مع هارون الرشيد للأستاذ العقّاد.

ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرجس من خور
 هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له يدها فخذ ما شئت أو فذر
 ثم أُعيد البناء على المرقد الطاهر أيام المأمون، ومن بعده، وبنيت
 حوله الدور والمنازل.

كربلاء في عهد المتوكل:

ولما جاء دور المتوكل هدم هاتيك العمارات التي أُقيمت على قبر الحسين
عليه السلام وقبور الشهداء، وهدم المنازل والدور التي حولها، وأقام المخافر والمسالح
 المدججة بالعتاد والسلاح والرجال على أطراف كربلاء لمطاردة الزوار
 ومعاقتهم بأقصى العقوبات من القتل والصلب والتمثيل بهم.

وهذا الذي حمل ولده المنتصر على قتله وقتل وزيره الفتح بن
 خاقان، وعاكس سيرة أبيه مع العلويين، وكان المنتصر بخلاف أبيه
 المتوكل ورعاً عادلاً سمحاً كريماً عفيفاً أميناً يحرص كل الحرص على
 توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب، فشيد من جديد قبر علي
 والحسين، وأطلق أوقاف آل البيت التي كان المتوكل قد صادرها، ولكنه
 توفي لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته غير ستة أشهر.

ففي تلك المدة القصيرة من حكمه استطاع أن يتلافى أخطاء أبيه.

ويُحدثنا التاريخ بما أسداه من الخدمات الجليلة نحو البيت الطاهر
 وشيعتهم، ومن العناية والاهتمام بالحائر والغري، وعدم التعرض لقبور
 الأئمة ولقبور آل أبي طالب بصورة مطلقة.

ومما ذكره المسعودي في (مروج الذهب)^(١) بهذا الصدد، قال:

(وكان آل أبي طالب قبل خلافة المنتصر في محنة عظيمة وخوف على دمائهم، وقد مُنعوا زيارة قبر الحسين عليه السلام والغري من أرض الكوفة، وكذلك مُنعَ غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد، وكان الأمر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومائتين، وفيها أمر المتوكل الرجل اليهودي المعروف بالديزج بالمسير إلى قبر الحسين بن علي عليه السلام وهدمه ومحو أرضه وإزالة أثره، وأن يعاقب من وجده به).

ثم يقول المسعودي: (ولم تنزل الأمور على ما ذكرنا إلى أن استُخِلَفَ المنتصر فأمن الناس، وتقدّم بالكفّ عن آل أبي طالب وترك البحث عن أخبارهم، وأن لا يُمنع أحدٌ عن زيارة قبر الحسين عليه السلام ولا قبر غيره من آل أبي طالب، وأمر بردّ فذك إلى ولد الحسن والحسين، وأطلق أوقاف آل أبي طالب، وترك التعرّض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم).

وبعطفه الشديد على العلويين وآل أبي طالب أحسن المنتصر إليهم في مدّة حكمه، وبنى على المرقد الشريف ميلاً عالياً يرشد الناس إليه، وشجّع الناس على زيارته، وأمر ببناء الدور والمنازل التي حوله.

وقائع فضيحة جرت على كربلاء:

وأصابت كربلاء البلد المقدّس بعدّة وقائع فظيعة مؤلمة:

منها: واقعة الوهابي عام (١٢١٦) هجرية، وقد بالغ في حصارها حتّى دخلها فاتحاً بعد قتال عنيف، فارتكب من فظائع الأعمال ما لا يبلغه الوصف، وأسرف في القتل، فلم يرحم كبيراً لكبره ولا صغيراً لصغره، قيل: إنّه قتل في ليلة واحدة عشرة آلاف نسمة، ثم نهب خزائن القبر الشريف التي ملأها ملوك الهند والفرس بنفائس الجواهر.

ومنها: واقعة عام (١٢٤١) هجرية يوم ثارت على دولة آل عثمان، وكان والي بغداد يومئذ داود باشا فقصدها، ولمّا شاهد مناعتها رجع عنها خاسراً، ثم عاودها ومنع عنها الميرة، وبعد حصار شديد ظفر بها.

ومنها: حادثة عام (١٢٥٨) هجرية، وقد امتنع أهلها عن أداء الضرائب، وكان الوالي ببغداد نجيب باشا، فأرسل لإخضاعها أسعد الله باشا، ولمّا شاهد مناعتها لاذ بالخديعة، فأرسل إليها منشوراً يتضمّن عفو الحكومة عنهم، فلمّا نزلوا عن الأبراج والحصون وفتحوا له الأبواب أمر الجيش فهجموا عليهم وسلّطوا المدافع على جهة السور الشرقية فهدمتها القنابل حتّى دخل بجيشه صحن العباس عليه السلام، وقتل كلّ من لاذ بالقبر الشريف. وكانت واقعة العثمانيين معهم عام (١٣٣٥) هجرية لا تقلّ فظاعةً عن هذه الحوادث الدموية السالفة.

واقعة الطف:

وأشهر هذه الوقائع وأعظمها فجيعة واقعة الحسين بن علي عليه السلام، تلك التي مضت إلى السماء فأبكتها دماً، وإلى الأفلاك فزلزلت عرشها عظماً، فقد روى الخاصّة والعامة أنّه يوم قُتل الحسين عليه السلام ما رُفِعَ حجر ولا مدر في شرق الأرض وغربها إلّا وُجِدَ تحته دم عبيط^(١).

إنّ الحسين عليه السلام نزل كربلاء يوم الثاني من المحرم سنة (٦١) من الهجرة، فحين نزلها اشترى أرضها من بني أسد بستين ألف درهم، واشترط عليهم أن يدلّوا زوّاره على قبره وأن يضيّفوهم.

قال الشيخ المفيد رحمته الله^(١): (فلَمَّا كان اليوم الثالث من المحرم قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف فارس).

وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام أنَّ عبيد الله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة يسير بهم إلى دستبي وهي بلد من بلدان الديلم من أرض همدان، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، فكتب إليه ابن زياد عهده على الري وأمره بالخروج، فخرج معسكراً بالناس بحمّام أعين، فلَمَّا كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان وأقبل إلى الكوفة دعا ابن زياد عمر بن سعد فقال له: سر إلى الحسين، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه سرت إلى عملك، فقال له عمر بن سعد: إن رأيت رحمك الله أن تعفيني فافعل، فقال له عبيد الله: نعم على أن تردّد لنا عهدنا، قال: فلَمَّا قال له ذلك قال: أمهلني اليوم حتّى أنظر، فانصرف عمر يستشير نصحائه فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه، وجاء إليه حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته، فقال: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربّك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلّها خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين، فقال له عمر بن سعد: فإني أفعل إن شاء الله، وبات ليلته مفكّراً في أمره، فسُمعَ وهو يقول:

أترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها حجاب وملك الري قرّة عيني
ثمّ أقبل إلى ابن زياد فقال: أصلحك الله إنك وليّتي هذا العمل
وكتبت لي العهد وسمع به الناس، فإن رأيت أن تُفِذ لي ذلك فافعل،

وابعث إلى الحسين في هذا الجيش من أشرف الكوفة من لست بأغنى ولا أجراً في الحرب منه، فسمي له أناساً، فقال له ابن زياد: لا تعلمني بأشرف أهل الكوفة، إن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا، فلما رآه قد لجج، قال: فإني سائر، وأقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين عليه السلام من الغد، وهو اليوم الثالث من المحرم.

وقد ظهر ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام عنه، ففي تذكرة السبط ابن الجوزي: قال محمد بن سيرين: وقد ظهرت كرامات علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا، فإنه لقي عمر بن سعد يوماً وهو شاب، فقال: «ويحك يا ابن سعد، كيف بك إذا قمت يوماً مقاماً تُخَيَّر فيه بين الجنة والنار، فتختار النار؟»^(١).

قال: ثم إن ابن زياد جمع الناس في جامع الكوفة وصعد المنبر فقال: أيها الناس إنكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تُحِبُّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة محمود الطريقة محسناً إلى الرعية يُعطي العطاء في حقّه، قد أمنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد من بعده يُكرم العباد ويُغنيهم بالأموال ويُكرمهم، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفرها عليكم وأخرجكم إلى حرب عدوّ الحسين فاسمعوا له وأطيعوا، ثم نزل عن المنبر، ووفر للناس العطاء، وأمرهم أن يخرجوا إلى حرب الحسين عليه السلام ويكونوا عوناً لابن سعد على حربه، فلا يزال يُرسل العساكر حتى اجتمعت عند عمر بن سعد إلى ستّ ليال خلون من المحرم عشرون ألف فارس.

تجهيز الجيش لحرب الحسين عليه السلام:

قال ابن شهر آشوب في المناقب^(١): وجهّز ابن زياد عليه خمساً وثلاثين ألفاً، فبعث الحرّ في ألف رجل من القادسية، وكعب بن طلحة في ثلاثة آلاف، وعمر بن سعد في أربعة آلاف، وشمّر بن ذي الجوشن السلولي في أربعة آلاف من أهل الشام، ويزيد بن ركاب الكلبي في ألفين، والحسين بن نمير السكوني في أربعة آلاف، ومضاير بن رهيثة المازني في ثلاثة آلاف، ونصر بن حرشة في ألفين، وشبث بن ربعي الرياحي في ألف، وحجّار بن أبجر في ألف. وكان جميع أصحاب الحسين عليه السلام اثنين وثمانين رجلاً منهم الفرسان اثنان وثلاثون فارساً، ولم يكن لهم من السلاح إلا السيف والرمح.

قصة عبد الله بن عمير الكلبي:

روى الشيخ عباس القمّي رحمته الله في (نفس المهموم) نقلاً عن الأزدی^(٢)، قال: حدّثني أبو حباب وكان كليياً، قال: كان منّا رجل يدعى عبد الله بن عمير الكلبي من بني عليم قد نزل الكوفة واتّخذ عند بئر الجعد من همدان داراً، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط يقال لها: أمّ وهب بنت عبد، فرأى القوم بالنخيلة يعرضون ليُسرحوا إلى الحسين عليه السلام، فسأل عنهم ف قيل له: يُسرحون إلى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإنّي لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء القوم الذين يغزون ابن بنت

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٨.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٢٦.

نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين، فدخل على امرأته فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد، فقالت: أصبت أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك، قال: فخرج بها ليلاً حتى أتى حسيناً فأقام معه، فلما دنا عمر بن سعد من الحسين عليه السلام صبيحة العاشر ورمى بسهم ارتمى الناس، فلما ارتموا خرج يسار مولى زياد ابن أبي سفيان وسالم مولى عبيد الله بن زياد فقالا: من يبارز ليخرج إلينا بعضكم، قال: فوثب حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير فقال لهما الحسين عليه السلام: «أجلسا»، فقام عبد الله بن عمير الكلبي فقال: أبا عبد الله رحمك الله ائذن لي فلا أخرج إليهما، فرأى الحسين عليه السلام رجلاً أدم طويلاً شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين فقال: «أحسبه للأقران قتالاً، أخرج إن شئت»، فخرج إليهما، فقالا: من أنت؟ فانتسب لهما فقالا: لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن خضير، ويسار مستتل^(١) أمام سالم، فقال له الكلبي: يا ابن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ولا يخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك، ثم شدّ عليه فضربه بسيفه حتى برد^(٢)، فإنه لمشتغل به يضربه بسيفه إذ شدّ عليه سالم فصاحوا به قد رهقك^(٣) العبد فلم يأبه له حتى غشيه فبدره بضربة فانتقاها الكلبي بيده اليسرى فأطار أصابع كفه، ثم

(١) أي متقدّم، يقال: استتلت الرجل من بين أصحابه، أي تقدّم. (أنظر: العين للفراهيدي ٨: ١٢٠ / مادة نتل).

(٢) أي مات، يقال: ضربه حتى برد، أي مات. (أنظر: العين للفراهيدي ٨: ٣٠ / مادة برد).

(٣) أي أدركك، يقال: رهق فلان فلاناً إذا تبعه فغرب أن يلحقه. (أنظر: العين للفراهيدي ٣: ٣٦٦ / مادة رهق).

مال عليه الكلبي فضربه حتّى قتله، وأقبل نحو الحسين مرتجزاً وقد قتلها جميعاً:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي حسبي بيتي في عليم حسبي
إني امرء ذو مِرَّة وعصب ولست بالخوّار عند النكب
إني زعيم لك أمّ وهب بالطعن فيهم مقدماً والضرب

ضربَ غلام مؤمن بالربِّ

فأخذت أمّ وهب امرأته عموداً ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول له:
فداك أبي وأُمّي قاتل دون الطيّين ذرية محمّد، فأقبل إليها يردها نحو
النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثمّ قالت: إني لن أدعك دون أن أموت
معك، فنادها الحسين عليه السلام فقال: «جزيت من أهل بيتٍ خيراً، ارجعي
رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ فليس على النساء قتال»،
فانصرفت إليهنّ.

* * *

محاولة أعلام المسلمين ثني الحسين عليه السلام عن الخروج

أعلام المسلمين يتفَيَّئون بظُلِّ الحسين عليه السلام في عصره، ويستضيئون بنوره، ويأوون إلى ركنه، فإذا نابته نائبة، أو أصابته مصيبة لم يكونوا يرون أنَّهم يسلمون من وقعها أو يقدرُونَ على الامتناع من شرِّها، (إنَّ بني أُمَيَّةَ إن قتلوك لم يهابوا بعدك أحداً)^(١)، مضافاً إلى أنَّهم يعرفون منزلة الحسين عليه السلام من الله ومكانته من جدِّه رسول الله ﷺ وأَنَّهُ بَقِيَّةٌ فِيهِمْ وابنه دونهم، ولكنَّهم لا يعرفون تلك الأسرار التي كان يرمي إليها الحسين عليه السلام بنهضته، ولا المقاصد العالية التي كان ينويها برحلته، فمن هنا تراهم يحاولون منه الامتناع عن الخروج إلى العراق ويُحذِّرونه القتل إذا خرج.

عزم الحسين عليه السلام على الخروج إلى العراق فجاءه عدَّة من أعلام المسلمين يحاولون منعه عن ذلك.

محاولة عبد الله بن عباس:

فعن التبر المذاب: كثرت عليه الكتب وتواترت عليه الرسل أنَّك إن لم تصل إلينا فأنت آثم لوجود الأنصار على الحقِّ وتمكُّنك من القيام

به، فإنَّك أصله وعموده وأهله ومعدنه، فعزم على المسير فجاءه عبد الله ابن عباس وقال: يا ابن عمِّ، إنَّ أهل الكوفة قوم غَدْر قتلوا أباك وخذلوا أخاك وطعنوه وسلبوه وأسلموه إلى عدوِّه. فقال: «يا ابن عمِّ، هذه كتبهم ورسَلهم وقد وجب عليَّ إجابتهم وقام لهم العذر عند الله سبحانه»، فبكى ابن عباس حتَّى بلَّ لحيته وقال: وا حسينا^(١).

وعن المسعودي^(٢) أنَّ ابن عباس قال له: إن كرهت المقام بمكَّة خوفاً على نفسك فسر إلى اليمن، فإنَّ فيها عزلة ولنا بها أنصار وأعوان وبها قلاع وشعاب، واكتب إلى أهل الكوفة فإن أخرجوا أميرهم وسلَّموها إلى رسولك فسر إليهم فإنَّك إن سرت اليوم على هذه الحال لم آمن عليك منهم، وإن عصيتني فاترك أولادك وأهلك هاهنا، فوالله إنِّي لخائف عليك أن تُقتل كما قُتِل عثمان ونسأؤه وأهله ينظرون إليه، فلمَّا يش منه حزن لفقده وبكى، فقال: وا أسفاه على حسين.

محاولة محمد بن الحنفية:

وعن المنتخب^(٣): أنَّ محمد بن الحنفية لمَّا بلغه الخبر أنَّ أخاه الحسين عليه السلام خارج من مكَّة يريد العراق كان بين يديه طست فيه ماء وهو يتوضَّأ، فجعل يبكي بكاءً شديداً حتَّى سُمِعَ وَكْفُ دموعه في الطست مثل المطر، ثمَّ إنَّه صلَّى المغرب وصار إلى أخيه الحسين عليه السلام.

وعن الصواعق المحرقة^(٤): ولمَّا بلغ مسيره إليه كان بين يديه طست

(١) راجع: موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٨٩/ ح (١١٩/٣٣٦).

(٢) مروج الذهب ٣: ٥٤ و ٥٥.

(٣) منتخب الطريحي: ٣٩٧.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٩٦.

يتوضأ فيه فبكى حتى ملأه من دموعه، وزاد في التبر المذاب: ثم نادى: وا حسينا وا خليفة الماضين وثمان^(١) الباقيين، وفي اللهوف^(٢): صار محمد بن الحنفية إلى الحسين عليه السلام في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها من مكة، فقال له: يا أخي، إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من قد مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من بالحرم وأمنعه، فقال: «يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي تُستباح به حرمة هذا البيت»، فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك.

وعن المنتخب: فقال الحسين عليه السلام: «والله يا أخي لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منه حتى يقتلونني»، ثم قال: «يا أخي سأنظر فيما قلت».

وعن اللهوف: فلما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام، فبلغ ذلك ابن الحنفية، فأتاه وأخذ بزمام ناقته وقد ركبها، فقال له: يا أخي، ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال: «بلى»، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ قال: «أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك فقال لي: يا حسين أخرج، فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً»^(٣).

(١) الشال بالكسر: الغياث، يقال: فلان شال قومه، أي غياث لهم. (الصحاح للجوهري ١٦٤٩/٤ مادة ثمل).

(٢) اللهوف: ٣٨ و ٣٩.

(٣) شرح: مشيئة الله تعالى التي هي بمعنى إرادته على قسمين: تشريعية، وهي عبارة عن العلم بالمصلحة في فعل المكلف على نحو يستتبع إنشاء الأمر. وتكوينية، وهي عبارة عن العلم بالنظام على النحو الكامل على وجه يستتبع إيجاد المراد، والمشار إليها هنا بقوله: «شاء الله أن يراك قتيلاً» إنها هي التشريعية، فيكون المعنى: إن الله تعالى أمر أن أقدم في هذا الأمر فأكون قتيلاً. (المؤلف رحمته الله).

فقال محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟

وعن المنتخب فقال: «يا أخي، قد قال لي جدِّي أيضاً: إنَّ الله ﻋَﻠَﻴْكَ قد شاء أن يراهنَّ سبايا مهتكات في أسر الذلِّ^(١)، وهنَّ أيضاً لا يفارقنني ما دمت حيًّا».

فبكى ابن الحنفية بكاءً شديداً، وجعل يقول: أودعتك الله يا حسين، في دعة الله يا حسين.

محاولة عبد الله بن عمر:

وعن الواقدي: ولمَّا بلغ عبد الله بن عمر ما عزم عليه الحسين عليه السلام من المسير إلى الكوفة دخل عليه وقال: بأبي ونفسي لك الفداء يا ابن رسول الله، سمعت جدَّك يقول: «ما لي وللدنيا؟ وما للدنيا لي؟»^(٢)، وأنت بضعة منه وريحانته وسيّد شباب أهل الجنّة، وهذا يزيد رأس الضلالة...، ولست آمن عليك منه، فلمَّا رآه مصراً على المسير قبل ما بين عينيه وقال: استودعك الله من قتيل^(٣).

وفي اللهوف^(٤): إنَّ الحسين عليه السلام قال له: «يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله أنَّ رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل؟ أما تعلم أنَّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين

(١) وكذلك المشيئة في هذه الكلمة على ما ذكرنا في الأوّل، فتبسّر. (المؤلّف رحمه الله).

(٢) لقد ظنَّ عبد الله كغيره من ذوي الأفكار المحدودة أنَّ نهضة الحسين عليه السلام وقيامه في وجه يزيد لغرض دنيوي ابتغاء سلطنة أو ملك، فأخذ يقول هذا القول. (المؤلّف رحمه الله).

(٣) أنظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٠٤ و ٤٠٥ / ح (٣٥٩ / ١٤٢).

(٤) اللهوف: ٢٢.

طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً، ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً؟ فلم يُعجّل الله عليهم، بل [أمهلهم] وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام، أتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعن نصرتي».

محاولة أبي محمد الواقدي وزرارة بن صالح:

وعن اللهوف^(١): عن أبي محمد الواقدي وزرارة بن صالح، قالوا: لقينا الحسين بن علي عليه السلام قبل أن يخرج إلى العراق بثلاث، فأخبرناه ضعف الناس بالكوفة، وأن قلوبهم معه وسيوفهم عليه، فأومئ بيده إلى السماء وفتحت أبوابها ونزلت الملائكة عدداً لا يُحصىهم إلا الله تعالى، فقال: «لولا تقارب الأشياء وحبوط الأجر لقاتلتهم بهؤلاء، ولكن أعلم علماً يقيناً أن هناك مصرعي ومصرع أصحابي، لا ينجو منهم أحد إلا ولدي علي».

محاولة أبي بكر بن الحارث بن هشام:

دخل أبو بكر بن الحارث على الحسين عليه السلام فقال: يا ابن عمّ، إنّ الرحم يظائرن^(٢) عليك، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك. فقال عليه السلام: «يا أبا بكر، ما أنت ممّن يُستعش». فقال أبو بكر: كان أبوك أشدّ بأساً، والناس له أرجى ومنه أسمع وعليه أجمع، فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام، وهو أعزّ منه فخذلوه وثاقلوا عنه حرصاً على الدنيا وضناً بها، فجرّعه الغيظ وخالفوه حتّى صار إلى ما

(١) اللهوف: ٣٩.

(٢) أي يعطفني. (راجع: لسان العرب ٤: ٥١٤ / مادة ظار).

صار إليه من كرامة الله ورضوانه، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا وقد شهدت ذلك كله ورأيت، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعدّ منك وأقوى والناس منه أخوف وله أرجى، فلو بلغهم سيرك إليهم لا استطغوا الناس بالأموال وهم عبيد الدنيا فيقاتلك من وعدك أن ينصرك ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فاذكر الله في نفسك. فقال الحسين عليه السلام: «جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد أجهدت رأيك، ومهما يقضي الله يكن»، فقال: عند الله نحتسبك أبا عبد الله^(١).

محاولة عبد الله بن مطيع العدوي:

لما أقبل الحسين عليه السلام من الحجاز يسير نحو العراق، فانتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع العدوي وهو نازل به، فلما رأى الحسين عليه السلام قام إليه فقال: بأبي وأمي يا ابن رسول الله، ما أقدمك؟ واحتمله وأنزله، فقال له الحسين عليه السلام: «كان موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إلي أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم»، فقال له عبد الله بن مطيع: أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله لأن طلب ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولأن قتلوك لا يهابوا بعدك أحداً أبداً، والله إنهما لحرمة الإسلام تُنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية. فأبى الحسين عليه السلام إلا أن يمضي^(٢).

(١) مروج الذهب ٥٦: ٣.

(٢) الإرشاد ٢: ٧١ و٧٢.

محاولة عمرو بن لوزان:

لَمَّا مَرَّ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَطْنِ الْعُقْبَةِ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا، فَلَقِيَهُ شَيْخٌ مِنْ بَنِي عَكْرَمَةَ يُقَالُ لَهُ: عَمْرُو بْنُ لُوزَانَ، فَسَأَلَهُ: أَيْنَ تَرِيدُ؟ فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْكُوفَةُ». فَقَالَ الشَّيْخُ: أَتَشُدُّكَ اللَّهُ لَمَّا انْصَرَفْتَ، فَوَاللَّهِ مَا تَقْدُمُ إِلَّا عَلَى الْأَسِنَّةِ وَحَدِّ السَّيْفِ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَعَثُوا إِلَيْكَ لَوْ كَانُوا كَفُوكَ مَوْنَةَ الْقِتَالِ وَطُؤُوا لَكَ الْأَشْيَاءَ فَقَدِمْتَ عَلَيْهِمْ كَانَ ذَلِكَ رَأْيًا، فَأَمَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَذْكُرُ فَإِنِّي لَا أَرَى لَكَ أَنْ تَفْعَلَ. فَقَالَ لَهُ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَيْسَ يَخْفَى عَلَيَّ الرَّأْيُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُغْلَبُ عَلَى أَمْرِهِ»، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاللَّهِ لَا يَدْعُونِي حَتَّى يَسْتَخْرِجُوا هَذِهِ الْعَلَقَةَ مِنْ جَوْفِي، فَإِذَا فَعَلُوا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ يُذْهِمُ حَتَّى يَكُونُوا أَذَلَّ فَرَقَ الْأُمَمِ»^(١).

محاولة الطرماح بن عدي:

لَمَّا انْتَهَى الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عُذَيْبِ الْهَجَانَاتِ، وَكَانَ قَدْ ضَايِقَهُ الْحَرُّ وَالْحَرُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا هُوَ بِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الْكُوفَةِ عَلَى رَوَاحِلِهِمْ وَهُمْ نَافِعُ بْنُ هَالَلٍ، وَمَجْمَعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، وَالطَّرْمَاحُ بْنُ عَدِيٍّ، وَكَانَ دَلِيلُهُمُ الطَّرْمَاحُ، فَاتَتْهُوَ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى الْحُسَيْنِ أَقْبَلَ إِلَيْهِمُ الْحَرُّ، وَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَنَا حَابِسُهُمْ أَوْ رَادَّهُمْ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا مَنَعَهُمْ مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِي، إِنَّمَا هَؤُلَاءِ أَنْصَارِي، وَهُمْ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ جَاءَ مَعِي، فَإِنْ أَنْتَ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَإِلَّا نَاجَزْتُكَ». فَكَفَّ الْحَرُّ عَنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَخْبِرُونِي خَيْرَ النَّاسِ خَلْفَكُمْ؟»، فَقَالَ لَهُ مَجْمَعُ: أَمَّا أَشْرَافُ النَّاسِ فَقَدْ أَعْظَمْتَ رَشَوْتَهُمْ وَمُلِّتَ غَرَائِرَهُمْ، فَهَمُّ أَلْبَ وَاحِدٍ عَلَيْكَ، وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ بَعْدَهُمْ فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ تَهْوَى إِلَيْكَ وَسَيُوفُهُمْ غَدًا مَشْهُورَةٌ عَلَيْكَ. ثُمَّ

دنا الطرماح من الحسين عليه السلام وقال: والله ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازمين لك - يعني الحرّ وأصحابه - لكان كفى بهم، ولقد كان خروجي من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترّ عيناى جميعاً في صعيد واحد أكثر منه قطّ، فسألت عنهم فقليل: اجتمعوا ليعرضوا ثمّ يُسرّحون إلى الحسين، فأُنشدك الله إن قدرت على أن لا تقدم إليهم شبراً فافعل، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتّى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسر معي حتّى أنزلك جبلنا أجاء، فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحمير والنعمان بن المنذر ومن الأحمر والأبيض، والله ما إن دخل علينا ذلّ قطّ، فأسير معك حتّى أنزلك، ثمّ تبعث إلى الرجال ممّن بأجاء وسلمى من طي، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتّى تأتيك طي رجالاً وركبانا، ثمّ أقم فينا ما بدا لك فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، فوالله لا يوصل إليك شيء أبداً وفيهم عين تطرف. فقال عليه السلام له: «جزاك الله وقومك خيراً، إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنّا نقدر معه على الانصراف، ولا ندرى على ما تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبة»^(١).

إنّ الحسين عليه السلام على بصيرة من أمره، وعلى عهد عهده إليه أبوه وجدّه من قبل، فلا يُؤثّر فيه لوم لائم ولا مقالة قائل.

قال في (الإرشاد)^(٢): كان خروج مسلم بن عقيل بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة سنة ستين، وقتله يوم الأربعاء لتسع خلون منه يوم عرفة، وكان توجه الحسين عليه السلام من مكّة إلى العراق في يوم خروج مسلم بالكوفة - وهو يوم التروية - بعد مقامه بمكّة بقيّة شعبان وشهر رمضان

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٧ - ٨٩.

(٢) الإرشاد ٢: ٦٦ و٦٧.

وشوالاً وذا القعدة وثمان ليالٍ خلون من ذي الحجة سنة ستين، وكان قد اجتمع إليه عليه السلام مدّة مقامه بمكة نفر من أهل الحجاز ونفر من أهل البصرة، انضافوا إلى أهل بيته ومواليه. ولما أراد الحسين عليه السلام التوجه إلى العراق طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، وأحلّ من إحرامه وجعلها عمرة، لأنّه لم يتمكّن من تمام الحجّ مخافة أن يُقبَضَ عليه بمكة فينفذ إلى يزيد بن معاوية، فخرج مبادراً بأهله وولده ومن أنضمّ إليه من شيعته، ولم يكن خبر مسلم قد بلغه لخروجه يوم خروجه.

وعن (المنتخب)^(١) ما قرب من هذا، وعُلِّلَ عدول الحسين عليه السلام من الحجّ إلى العمرة بالخوف من البطش به، قال: وذلك أن يزيد أنفذ عمر بن سعيد بن العاص في عسكر عظيم، وولّاه أمر الموسم، وأمّره على الحجّ كلّهُ، وكان قد أوصاه بقبض الحسين عليه السلام سرّاً، وإن لم يتمكّن منه يقتله غيلةً، ثمّ إنّه دسّ مع الحجاج في تلك السنة ثلاثين رجلاً من شياطين بني أميّة وأمّره بقتل الحسين على كلّ حالٍ اتّفق، فلمّا علم الحسين عليه السلام بذلك حلّ من إحرام الحجّ وجعلها عمرة مفردة.

ولمّا عزم على الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال: «الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله، وصلى الله على رسوله، حُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة...»^(٢).

* * *

(١) منتخب الطريحي: ٣٩٧، عنه بحار الأنوار ٤٥: ٩٩.

(٢) اللهم ف: ٣٨؛ كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

خلود كربلاء الإعجازي

كانت تُرَتِّم على حدود كربلاء وأطرافها الحصون والمخافر، أو المسالح المدجَّجة بالعتاد والسلاح والرجال في العهد الأموي لمنع الزائرين من الوصول إليها، وكان المخالف يُعرَّض نفسه في الغالب إلى أنواع العذاب وحتى عقوبة الموت والقتل.

وكانت المراقبة شديدة، إذ كانت المسالح تراقب حركة المرور والسير في أطراف كربلاء بشدَّة متناهية، فقلَّ من كان يستطيع من الزوار القادمين أن يفلت منها إلا بطرق غير اعتيادية من الغاضرية ونيوى كما سترى فيما بعد.

وهذا الخوف الشديد من المسالح القائمة على الحدود كان مانعاً قوياً من الوصول إلى كربلاء في تلك العصور الغابرة.

وسبب المنع هذا كان أمراً طبيعياً، لأنَّ توجَّه النفوس وتهافت الناس على زيارة قبر ریحانة الرسول كان يغيّر سياسة الدولة الأمويَّة كلّ المغايرة، حتَّى وأنَّه كان يُهدَّد كيان هذه الدولة التي ارتكبت بالأمس جريمة محاربتة وقتله، فكيف بها اليوم أن تسمح وتتساهل مع الناس في أمر زيارة قبره، لأنَّ ذلك كان يؤوّل بالطبع إلى ثبوت أحد الأمرين: أحقيَّة هذا الشهيد أو أحقيَّتهم، فكانوا يتجنَّبون المغامرة في أمر يكون فيه

سقوط ملكهم وفضيحتهم، ولذلك فإنهم كانوا يمنعون الزيارة ويشددون على الناس كل التشديد بأنواع العقوبات المختلفة على يد تلك المسالح القائمة في أطراف البقعة لهذا الغرض.

وبالرغم مما كان يناله الناس من الأذى والعذاب والتنكيل أو القتل والموت في هذا السبيل لم ينقطع مع ذلك حبل اتصالهم بكربلاء المقدسة، فكانوا يأتونها أفراداً وجماعات في الليل وتحت جناح الظلام يزورون ثم يرجعون إلى أماكنهم قبل طلوع الشمس.

وبقي هذا الوضع سائداً أكثر من سبعين سنة على ما يظهر، أي من بعد الواقعة بقليل إلى انقراض الأمويين في عام (١٣٢) من الهجرة، لأن الأحاديث الواردة تنطق كلها بهذا المعنى.

وتظهر لنا كربلاء في هذا العهد قائمة في وسط هذه البقعة تحيط بها المسالح الأموية في دائرة من كل جانب، وهي تراقب كربلاء بعين يقظة عن بُعد، وعندما يسدل الليل ستاره ترى أشباحاً متحركة قد انتشرت في هذه البقعة من كل جانب، هي أشباح الزائرين يأتون إلى الزيارة فرادى وجماعات من الأماكن القريبة والبعيدة من الغاضرية ونيوى والقرى المجاورة من الكوفة وغيرها، وتجدد كربلاء في كل ليلة لاسيما ليالي الجمعة قد اكتظت بالوافدين، فتجدهم بين باكٍ وناع، وبين ساجد وراكع، وبين مُقبل ومودّع، دموعهم جارية والعبرات تحنقهم، وهم مغتبطون مع ما كتب الله لهم من الثواب العظيم في هذه الزيارة.

ثم تجدد كربلاء في النهار من قبل طلوع الشمس بقليل قد أُسدلت ستائرها وأغلقت أبوابها، وبقيت صائمة إلى الليل من كل داخل أو خارج وقادم أو غادر، لأنها عادت وصارت تحت تلك المراقبة الشديدة

من قَبْلَ المسالِحِ الشاهرةِ السلاحِ على المَارِينَ، فانقطعت بذلك كلُّ حركة بين هذه البقعة وغيرها.

هذه حالة كربلاء ووضعتها في العهد الأموي الجائر على ما يظهر لنا من خلال الأخبار والأحاديث الواردة.

ومهما بلغ من تشدّد الأمويين في منع الزيارة خلال السبعين سنة الأولى من تاريخ كربلاء، مع ذلك لم يتمكّنوا من السيطرة لا على العوامل الطبيعية ولا على معتقدات الناس الدينية وتمسّكهم بآل بيت النبوة، فكلّما كان يشتدّ المنع كانت تزيد المقاومة، فإنّ المقاومة الفعّالة لتلك القوّة الطائشة كانت آخر وسيلة تشبّث بها المسلمون تجاه الفئة الطاغية، فكم من أعناق ضُرِبَتْ ورؤوس قُطِعَتْ وأعضاء مُثِّلَتْ، وأجسام عُلِّقَتْ أو أجساد سُحِقَتْ تحت حوافر الخيل، ولم ينقطع الزائرون مع ذلك عن الزيارة، لما انطوت عليه النفوس من العقيدة الثابتة في أعماق قلوبهم.

عوامل تمسّك المحبّين بزيارة الحسين عليه السلام:

وأما تلك العوامل القويّة التي كانت تدفع بالنفوس بهذه الكيفية إلى زيارة كربلاء بالرغم من وجود تلك الموانع العظيمة فهي كثيرة، ولكن أهمّ تلك العوامل هي:

الإيمان والعقيدة الدينية الكاملة بآل بيت الرسالة.

حثّ الأئمّة وتشجيعهم الشيعة على الزيارة والدعاء في كربلاء.

وجود الملاجئ القريبة للاختفاء كنيوى والغاضرية.

كان لهذه العوامل وغيرها مجتمعة ومتفرّقة تأثيرها الفعّال على النفوس التوّاقة، وتسهيل أمر زيارتها والتخاطر بها في مثل هذا السبيل

ولو أدى بها إلى القتل والموت. وسنبحث فيما يلي تأثير كل واحد من هذه العوامل على انفراد:

أولاً: إن عقيدة الناس بآل بيت الرسالة، ورسوخ هذه العقيدة في أعماق قلوب الأمة، كانت هي العامل الأكبر في تشييد الحائر وإقامة شعائره والإقبال على زيارته من كل حذب وصوب كما يُحدثنا التاريخ به.

وقد دلت الآثار والأخبار الكثيرة على أن الناس كانوا يقصدون القبر المطهر منذ أول عهده للزيارة وقضاء الحوائج، فيظهر منه المعجز الباهر للبرِّ والفاجر.

ومن ذلك ما رواه علي بن أسباط - وهو من أصحاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام - في أصل النوادر، ونقله عنه العلامة السيّد حسن الصدر في كتابه (نزهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين) بأن في العام الذي قُتل فيه الحسين عليه السلام قصد قبره النساء العقم من أطراف البلاد حتى جاء إلى قبره الشريف نحو مائة ألف امرأة فتخطّين قبره الشريف فحملن كلهن وولدن.

فأصبح القبر المطهر والحائر مزاراً عاماً للمسلمين، ورمزاً خالداً للبطولة، وشعاراً دائماً للتضحية، وكعبة للأحرار والمفكرين، أولئك الذين عاكستهم الظروف وخانتهم الأحوال أو خالفتهم الأيام، فكانوا يؤمنون قبره ويعيدون ذكره ويعتبرون أمره، فمنهم مصعب بن الزبير، وسليمان بن صُرد الخزاعي، وقبلهم عبيد الله بن الحرّ الجعفي بعد الواقعة بقليل في عام (٦١) من الهجرة، والمختار الثقفي، وأمثالهم الكثيرون.

ثانياً: حثُّ الأئمة الشيعة وتشجيعهم على زيارة الحائر والدعاء فيه، إذ كان الأئمة عليهم السلام من السجّاد علي بن الحسين عليه السلام فصاعداً يحثّون

وَيُسَجِّعُونَ شِيعَتَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ وَمَوَالِيَهُمْ عَلَى زِيَارَةِ الْحَائِرِ وَالِدَعَاءِ فِيهِ، فَكُلَّمَا كَانَ يَشْتَدُّ الْمَنْعُ مِنْ نَاحِيَةِ الْأُمُويِّينَ كَانَ يَزْدَادُ الْحَثُّ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَئِمَّةِ عَلَى الزِّيَارَةِ وَبَيَانِ مَا لَزِيَارَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالْأَجْرِ الْجَزِيلِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَتْ تَتَعَارَضُ وَتَتَحَارَبُ هَاتَانِ الْقُوَّتَانِ: قُوَّةُ السِّيَاسَةِ وَقُوَّةُ الدِّينِ، وَكَانَ النَّصْرُ فِي كَسْرِ قِيُودِ الْمَنْعِ لِهَذِهِ الْأَخِيرَةِ بِالنَّتِيجَةِ، بِمَا كَانَ لِلدِّينِ مِنْ تَأْثِيرٍ فَعَّالٍ عَلَى النُّفُوسِ، وَكَانَ هَذَا الْحَثُّ الْمُسْتَمِرَّ عَلَى الزِّيَارَةِ بِمُثَابَةِ الْمَقَاوِمَةِ الْفَعْلِيَّةِ تَجَاهِ الْمَنْعِ، وَقَدْ انْتَصَرَ الشِّيعَةُ بِالنَّتِيجَةِ عَلَى أَعْظَمِ قُوَّةٍ إِرْهَابِيَّةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ.

فَمَا كَانَ تَحْلُو مَجَالِسَ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ ذِكْرِ الشَّهِيدِ وَفَضَائِلِهِ، وَاللَّعْنِ عَلَى خُصُومِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَقَدْ اسْتَعْرَضْنَا حَدِيثَ قَدَامَةِ بْنِ زَائِدَةَ الثَّقَفِيِّ عَنِ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَكَانَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ أَبِيهِ فِي أَمْرِ قَضِيَّتِهِمْ، فَكَانَ يَسْتَهْوَنُ الْخُطْبَ وَيُثَبِّتُ بِأَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ الْخَوْفِ فِي زِيَارَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلَمٍ، عَنْهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هَلْ تَأْتِي قَبْرَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ عَلَى خَوْفٍ وَوَجَلٍ، فَقَالَ: «مَا كَانَ مِنْ هَذَا أَشَدَّ فَالثَّوَابُ فِيهِ عَلَى قَدْرِ الْخَوْفِ، وَمَنْ خَافَ فِي إِتْيَانِهِ آمَنَ اللَّهُ رُوعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَانصَرَفَ بِالْمَغْفِرَةِ، وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ...»^(١).

ثُمَّ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُبَيِّنُ مَا لَزَائِرِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حَسَنَةٍ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ عَنْهُ سَدِيرُ الصَّرِيفِيِّ - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ صَيَارِفَةِ وَتِجَارَةِ الْكُوفَةِ

في ذلك العصر -، فقال: كنّا عند أبي جعفر عليه السلام، فذكر فتى قبر الحسين عليه السلام، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «ما أتاه عبد فخطى خطوة إلا كتب الله له حسنة وخطّ عنه سيئة»^(١).

منع الزيارة في عهد الإمام الصادق عليه السلام:

وكان المنع قد اشتدّ في أوائل عصر الصادق عليه السلام على عهد هشام بن عبد الملك، وذلك على أثر خروج زيد بن علي بن الحسين ومقتله في عام (١٢١) من الهجرة، فصاروا يُشدّدون في المنع ويُمثّلون بمن وقع بأيدي المسالّح من الزائرين، كما يُستنبط ذلك من رواية مسمع بن عبد الملك البصري، فقد قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا مسمع، أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟»، قلت: لا أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة، وعدونا كثير من أهل القبائل من النصاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيُمثّلون بي. قال: «أفما تذكر ما صُنِعَ به؟»، قلت: نعم، قال: «فتجزع؟»، قلت: نعم إي والله، وأستعبر لذلك حتّى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع عن الطعام حتّى يستبين ذلك في وجهي. قال: «رحم الله دمعك، أما إنّك من الذين يُعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا أمنا...»^(٢).

وهذا الخوف الذي كان يخامر النفوس ويساور القلوب، كان ينقلب سريعاً إلى راحة وسكينة وطمأنينة بأحاديث الصادق الأكيدة،

(١) كامل الزيارات: ٢٥٦ / باب ٤٩ / ح (٧/٣٨٤).

(٢) كامل الزيارات: ٢٠٣ و ٢٠٤ / باب ٣٢ / ح (٧/٢٩١).

فتحلُّ العزيمة محلَّ هذا الخوف الشديد من الأمويين ومسالحتهم، فكان الناس بعد ذلك يسرون نحو الحائر بشوق ولهفة متزايدة.

فكانت تنعكس هذه الأحاديث في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، تتناقلها الألسن والمحابر من بلد إلى بلد، فتثير الهمم وتهيج النفوس التواقّة إلى الزيارة من كلّ فجٍّ عميق من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ومن بلاد فارس وغيرها، وهم يتحمّلون الصعاب والشدائد الجمّة في هذا السبيل وقلوبهم خائفة وجلة إلى حين العودة إلى الأوطان.

ومن ذلك ما رواه ابن بكير الأرجاني في بعض مقاطعات إيران الجنوبية، وقد روى ابن بكير عن الصادق عليه السلام، قال:

قلت له: «إني أنزل الأرجان»^(١)، وقلبي ينازعني إلى قبر أبيك، فإذا خرجت فقلبي وجِل مشفق حتّى أرجع خوفاً من السلطان والسعاة وأصحاب المسالحي. فقال: «يا ابن بكير، أما تُحِبُّ أن يراك الله فينا خائفاً، أما تعلم أنّه من خاف لخوفنا أظّلّه الله في ظلّ عرشه، وكان محدّثه الحسين عليه السلام تحت العرش، وآمنه الله من أفزاع يوم القيامة، يفرّج الناس ولا يفرّج، فإن فرّج وفرّته الملائكة وسكّنت قلبه بالبشارة»^(٢).

ويظهر أنّ العقوبة قد اشتدّت بعد ذلك، ولم تقف عند حدّ التمثيل بالزائرين من قطع الأيدي والأرجل أو غيرها من الأعضاء، بل تعدّت إلى فرض عقوبة الموت على المخالفين، ليمنعوا بها كلّ حركة بين الحائر المقدّس وبين بقيّة الأقطار الإسلامية، ولكن جاءت الأحاديث

(١) مدينة تاريخية مندثرة تقع بين الأهواز وفارس، وتُسمّى برمقباد. (أنظر: تاريخ الطبري ٥٢١:١).

(٢) كامل الزيارات: ٢٤٣/ باب ٤٥/ ح (٢/٣٦٠).

فيها ملطّفة للقلوب بقدر ما جعلها الخوف مترجعة متزعزعة، بل وأكثر مستهونة الخطب وكاشفة لها الصراط المستقيم في محاربة الجور، وهذا ما رواه صفوان الجمال عن الصادق عليه السلام:

قال: قلت: فما لمن قُتِلَ عنده - يعني عند قبر الحسين عليه السلام - جار عليه السلطان فقتله؟ قال: «أول قطرة من دمه يُغفر له بها كلّ خطيئة وتُغسل طينته التي خُلِقَ منها الملائكة، حتّى يخلص كما خلصت الأنبياء المخلصين، ويذهب عنها ما كان خالطها من أدناس طين أهل الكفر، ويُغسل قلبه ويُشرح صدره ويُملأ إيماناً، فيلقى الله وهو مخلص من كلّ ما يخالطه الأبدان والقلوب، ويكتب له شفاعة في أهل بيته [وألف] من إخوانه، وتولّى الصلاة عليه الملائكة»^(١).

فمثل هذه الأحاديث الصادرة عن الإمام الصادق عليه السلام كانت تعود السكينة إلى النفوس، فتستهون الموت في سبيل الجهاد، وقد بقي هذا الوضع الإرهابي سائداً على الحائر المقدّس وقاصديه طول العهد الأموي الجائر، فالزائرون من جهتهم في حالة خوف ووجل، والأحاديث تتوارد بالحثّ على الزيارة والاستخفاف بالمواع مهمها كانت عظيمة، فكانت الحرب إذن سجلاً بين القوّة والعقيدة وبين السياسة والدين، تلك السياسة التي تلاشت وتلك القوّة التي اندحرت بالنتيجة في هذا الميدان أمام العقيدة والدين، فتقوّضت بتلك المقاومة الفعّالة أركان الدولة الأمويّة في عام (١٣٢) من الهجرة أي تماماً في أواسط عصر الصادق الطويل.

ولمّا أثمرت الجهود المتواصلة وانقشعت غيوم الإرهاب موقتاً في أفق العالم الإسلامي بزوال كابوس الأمويين وعهدهم، تنفّست كربلاء الصعداء مدّة وجيزة من الزمن على عهد السفّاح وأوائل حكم المنصور الدوانيقي، وبذلك عادت الأمور إلى مجراها، فصار الزائرون يؤمّون كربلاء من مختلف الأنحاء حتّى من الأصفاء النائية بكلّ حرّية واختيار، لما ألفوا في زيارتها من البركة وقضاء الحوائج وحسن العاقبة، كما يُستنبط ذلك ممّا رواه موسى بن القاسم الحضرمي من زيارة رجل يمني أتى من اليمن ليزور الحائر المقدّس في أوائل عهد المنصور في صيف سنة (١٣٧) من الهجرة، وإليك ما رواه موسى بن القاسم المذكور بهذا الصدد، وقد قال: قدم أبو عبد الله عليه السلام في أوّل ولاية أبي جعفر، فنزل النجف فقال: «يا موسى، اذهب إلى الطريق الأعظم فقف على الطريق فانظر فإنّه سيأتيك رجل من ناحية القادسية، فإذا دنا منك فقل له: ها هنا رجل من ولد رسول الله ﷺ يدعوك، فسيجيء معك».

قال: فذهبت حتّى قمت على الطريق والحرّ شديد، فلم أزل قائماً حتّى كدت أعصي وأنصرف وأدعه، إذ نظرت إلى شيء مقبل شبه رجل على بعير، فلم أزل أنظر إليه حتّى دنا منّي، فقلت: يا هذا، ها هنا رجل من ولد رسول الله ﷺ يدعوك وقد وصفك لي، قال: اذهب بنا إليه، قال: فجئت به حتّى أناخ بعيره ناحية قريباً من الخيمة، فدعا به فدخل الأعرابي إليه ودنوت أنا، فصرت إلى باب الخيمة أسمع الكلام ولا أراهما. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «من أين قدمت؟»، قال: من أقصى اليمن، قال: «أنت من موضع كذا وكذا؟»، قال: نعم، أنا من موضع كذا وكذا، قال: «فيم جئت ها هنا؟»، قال: جئت زائراً للحسين عليه السلام، فقال

أبو عبد الله عليه السلام: «فجئت من غير حاجة ليس إلّا للزيارة؟»، قال: جئت من غير حاجة إلّا أن أصلي عنده وأزور فأسلم عليه وأرجع إلى أهلي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «وماترون في زيارته؟»، قال: نرى في زيارته البركة في أنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا ومعاشنا وقضاء حوائجنا، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أفلا أزيدك من فضله فضلاً يا أخا اليمن؟»، قال: زدني يا بن رسول الله، قال: «إنّ زيارة الحسين تعدل حجة مقبولة زاكية مع رسول الله ﷺ»، فتعجّب من ذلك، قال عليه السلام: «إي والله وحجتين مبرورتين متقبلتين زاكيتين مع رسول الله ﷺ»، فتعجّب، فلم يزل أبو عبد الله عليه السلام يزيد حتّى قال: «ثلاثين حجة مبرورة متقبلة زاكية مع رسول الله ﷺ» ^(١).

فكان الزائر إلى مثل هذا الوقت يأتي من وطنه إلى زيارة الحائر راكباً، فكانت الزيارة على الأكثر من نصيب الأغنياء والموسرين ولم تشمل الطبقات المتوسطة والفقيرة ممّن كانوا يستطيعون تحمّل نفقاتها الكثيرة، فكانت تبقى محرومة من تلك الاجتماعات الإسلامية العظيمة التي كانت تنعقد في كربلاء حول قبر الحسين عليه السلام، فيطلع البعض على حالة البعض الآخر من إخوانهم من بقيّة الأقطار الإسلامية، ولاشترك هذه الطبقات في درك فيض تلك المجتمعات العامّة صارت تتوارد الأحاديث ناطقة بما للزائر ماشياً من الثواب في كلّ خطوة كما رواه الحسين بن ثوير بن أبي فاختة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا حسين،

من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحا عنه سيئة، حتى إذا صار في الحائر كتبه الله من المفلحين المتجبين، حتى إذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين»^(١).

ثم تزداد الحسنات وتقل السيئات بنسبة أكثر من ذلك في حديث جابر المكفوف عن أبي الصامت، فقد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: «من أتى قبر الحسين عليه السلام ماشياً كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة. فإذا أتيت الفرات فاغتسل وعلّق نعليك وامش حافياً، وامش مشي العبد الذليل، فإذا أتيت باب الحائر فكبر أربعاً، ثم امش قليلاً ثم كبر أربعاً، ثم أت رأسه فقف عليه فكبر أربعاً وصلّ عنده، واسئل الله حاجتك»^(٢).

وقد أصبح الحائر في هذا العهد مجتمعاً إسلامياً عاماً بفضل هذه الأحاديث الواردة عن الصادق عليه السلام والأئمة، والتي كانت تنعكس في الأقاليم الإسلامية القريبة والنائية تنقلها الألسن والرواة، فكان يجتمع في الحائر في المواسم المعينة الأغنياء والموسرين والفقراء والمستضعفين على حدّ سواء، ولم يتخلّف عن زيارته من استطاع إليه سبيلاً، حتى وأنها أصبحت عادة مألوفة يُزار في المواسم وغيرها، إذ كان لصدور هذه الأحاديث أثرها الفعال في توجيه النفوس إلى كربلاء بكثرة متزايدة.

ثالثاً: وجود نينوى والغازية على مقربة من كربلاء.

(١) كامل الزيارات: ٢٥٣ / باب ٤٩ / ح (٣٧٨ / ١).

(٢) كامل الزيارات: ٢٥٥ / باب ٤٩ / ح (٣٨١ / ٤).

قرية الغاضرية ونيوى:

ومن العوامل المهمة في تسهيل أمر الزيارة وتردد الزائرين وجود نيوى والغاضرية بجانب الحائر، ومن هاتين القريتين، فإن الغاضرية بالأخص كانت تقع على الطريق، فكان يستطيع الزائرون أن يجعلوها هدفاً، فيمكثون فيها حيناً لإبعاد شبهة المسالحة الأموية عنهم، ثم يلجئون منها سراً إلى الحائر المقدس، ولعل الزوار في طول العهد الأموي الحائر سلكوا هذا السبيل للتخلص من العيون والرقباء الصلفين.

وكان العمل على ذلك، وجاءت الأحاديث مؤيدة له، وبهذا المعنى ما رواه أبو حمزة الثمالي - وهو من ثقة الأصحاب ورواة الحديث - عن الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا أردت الوداع بعد فراغك من الزيارات فأكثر منها ما استطعت، وليكن مقامك بالنيوى أو الغاضرية، ومتى أردت الزيارة فاغتسل وزر زورة الوداع، فإذا فرغت من زيارتك فاستقبل بوجهك وجهه والتمس القبر وقل...»^(١) الحديث.

والظاهر أن لنفس هذا السبب وردت أحاديث كثيرة في فضل الغاضرية، فمنها ما ورد عن الصادق عليه السلام بأن الغاضرية تربة من بيت المقدس^(٢)، كما وأن بعضها الأخرى جاءت معبرة عن كربلاء باسم الغاضرية، ومنها ما ورد عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام وهو يحث الشيعة والموالين على الزيارة واتحاد الغاضرية مقاماً لهم بقوله: «فزوروا قبورنا بالغاضرية»^(٣).

(١) كامل الزيارات: ٤٣٧ / باب ٨٤ / ح (٢ / ٦٧٠).

(٢) كامل الزيارات: ٤٥٢ / باب ٨٨ / ح (٨ / ٦٨١).

(٣) كامل الزيارات: ٤٥٢ / باب ٨٨ / ح (٧ / ٦٨٠).

والغاضريّة قرية عامرة في الصدر الأوّل كانت تمتدّ على رقعة واسعة في الشمال الشرقي من كربلاء، وفي طريقها كان يقع مرقد العباس عليه السلام حيث دُفِنَ على مشرعة الفرات في المحلّ الذي استشهد فيه، فيكون موقع الغاضرية حسب الظاهر في البساتين الواقعة اليوم على الجهة اليمنى من نهر الحسينية في الشمال الشرقي من المدينة بين تلّ الهيابي ومقام الإمام جعفر الصادق عليه السلام أو أربع نهران، وهي لا تزال معروفة باسم الغاضريّة، وكان يسكنها قوم من بني عامر من بني أسد.

ومثلها نينوى فإنّها كانت قرية عامرة تقع في شرق الحائر إلى الجنوب الشرقي منه، وقد ورد ذكرها أكثر من ذكر الغاضريّة في التاريخ ممّا يدلّ على كثرة ارتياد الزائرين لها.

ومن هاتين الثغرتين كانوا يلجئون إلى الحائر المقدّس سرّاً، ثمّ يعودون إليهما في عهد الإرهاب.

وهذه العوامل الثلاثة هي أهمّ العوامل التي ساعدت الشيعة والموالين في العصر الأوّل على زيارة الحائر المقدّس وتشيد معالمه وإقامة شعائره الإسلامية: الإيمان، والأحاديث، والملاجئ للزائرين.

وبالرغم ممّا تقدّم من إرهاب الأمويين واضطهادهم للوافدين، فقد يمكن أن تُعتَبَر السنين السبعين التي مرّت على الحائر بعد وقعة الطفّ إلى انقراض الدولة الأمويّة بأنّها كانت نسبياً خير سنين مضت على كربلاء وعلى القبر المطهّر في عهد كلّ من الدولتين الأموية والعباسية.

لأنّ الأمويين وإن حاربوا الحسين عليه السلام وصرعوه قتيلاً، فإنّهم اكتفوا بهذا الخزي فهادنوا قبره المطهّر ولم يمسّوه بسوء، وإنّ ما أقاموه

من المخافر والمسالح حوله لمنع الزائرين ومطاردتهم لم يكن القصد منها حسب الظاهر إلا لدرء الأخطار ومنع حدوث الثورات الداخلية التي كانت تحدث على أثر التجمّع في الحائر، كما كان من أمر كلّ من عبيد الله بن الحرّ الجعفي وسليمان بن صُرْد الخزاعي وغيرهم.

ولكن العباسيين فكأنّهم لعدم الاشتراك في دمه الطاهر اغتالوا القبر المطهّر، وسعوا في محوه وتطميّسه مراراً عديدة، حتّى طالت عليهم الألسن، وهجّتهم الشعراء، فقالوا:

تالله إن كانت أميّة قد أتت	قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتاء بنو أبيه بمثله	هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا	في قتله فتتبّعوه رميا



كربلاء البقعة المقدسة

ومن حديث كربلاء والكعبة
لم تُخلَق الكعبة لولا كربلاء
تزهر كربلاء لأهل الجنة
وفضلها كالشمس ليس يُجحد
لـكربلاء بان علو الرتبة
وكربلاء نالت بمن فيها العلا
كالكوكب الدرّي في الدُّجَنَّة
كيف وفي الدرّة قال السيّد
كان الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ومن ورائهم الشيعة في كلّ عصر
يُعلّقون أهميّة كبيرة على كربلاء البقعة المقدّسة، فكانوا يحثّون الناس
ويشجّعونهم على زيارتها ولو مرّة واحدة في الحياة لما يعدّون لهذه الزيارة
من المثوبة والأجر الجزيل عند الله.

فقد وردت روايات كثيرة عن الأئمّة عليهم السلام بهذا الصدد، وأظهر
تلك الروايات ما ورد عن السجّاد والباقر والصادق والهادي عليهم السلام.

فمن ذلك ما ورد في فضيلة كربلاء وقدسيّتها عن السجّاد علي بن
الحسين عليه السلام أنّه قال: «اتَّخذ الله أرض كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن
يخلق أرض الكعبة ويتّخذها حرماً...»^(١) الحديث.

ومثل ذلك ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «خلق الله تبارك
وتعالى أرض كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام،

وقدّسها وبارك عليها، فما زالت قبل خلق الخلق مقدّسة مباركة، ولا تزال كذلك حتّى يجعلها الله أفضل أرض في الجنّة، وأفضل منزل ومسكن، يُسكن فيه أوليائه [في الجنّة]»^(١).

وهذا التقديس العظيم لكربلاء متأتّ من أنّ بها مصرع الحسين عليه السلام ومدفنه، كما ورد ذلك عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله اتخذ بفضل قبره - أي قبر الحسين عليه السلام - كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن يتخذ مكة حرماً»^(٢).

فإنّ مصرع الحسين عليه السلام ومدفنه في هذه الأرض هو الذي منحها هذا الشرف العظيم في الإسلام وفصلها على بقيّة بقاع الأرض كما نطقت به روايات أخرى، ومن ذلك ما ورد في هذا التفضيل عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى فضّل الأرضين والمياه بعضها على بعض، فمنها ما تفاخرت ومنها ما بغت، فما من ماء ولا أرض إلّا عوقبت لتركها التواضع لله، حتّى سلّط الله المشركين على الكعبة وأرسل إلى زمزم ماءً مالحاً حتّى أفسد طعمه، وإنّ أرض كربلاء وماء الفرات أوّل أرض وأوّل ماء قدّس الله تبارك وتعالى فبارك الله عليهما، فقال لأرض كربلاء: تكلمي بما فضّل الله فقد تفاخرت الأرضون والمياه بعضها على بعض، قالت: أنا أرض الله المقدّسة المباركة، الشفاء في تربتي ومائي ولا فخر، بل خاضعة ذليلة لمن فعل بي ذلك، ولا فخر على من دوني، بل شكراً لله، فأكرمها وزادها بتواضعها وشكرها لله بالحسين عليه السلام وأصحابه»، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبرّ وضعه الله تعالى»^(٣).

(١) كامل الزيارات: ٤٥٠ و ٤٥١ / باب ٨٨ / ح (٤/٦٧٧).

(٢) مستدرک الوسائل ١٠: ٣٢٤ / باب ٥١ / ح (٧/١٢٠٩٩).

(٣) كامل الزيارات: ٤٥٥ / باب ٨٨ / ح (١٧/٦٩٠).

ومثل هذه الروايات عن قدسية كربلاء وأفضليتها لكثيرة، حتّى أنّ البعض منها جاءت معبرة عنها بقبّة الإسلام، وذلك في رواية الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقبَرُ ابني بأرض يقال لها: كربلاء، هي البقعة التي كانت فيها قبّة الإسلام التي نجّا الله عليها المؤمنين الذين آمنوا مع نوح في الطوفان»^(١).

وكان الأئمة الأطهار عليه السلام يحثّون الناس ويؤكدون على الشيعة زيارتها، فكان الباقر عليه السلام يذكر فضيلة الغاصريّة ويريد منها كربلاء، ثمّ يؤكد عليهم وجوب زيارتها بقوله: «زوروا قبورنا بالغاصريّة»^(٢)، ومثله ابنه الصادق عليه السلام، فكان يقول لشيعة: «زوروا كربلاء ولا تقطعوها، فإنّ خير أولاد الأنبياء ضمته، ألا وإنّ الملائكة زارت كربلاء ألف عام من قبل أن يسكنه جدّي الحسين عليه السلام، وما من ليلة تمضي إلّا وجبرئيل وميكائيل يزورانها، فاجتهد يا يحيى - ويحيى من روى هذا الخبر - أن لا تُفقد من ذلك الموطن»^(٣).

فبمثل هذه الروايات الصادرة عن أهل بيت النبوة كانت تتأيد في النفوس أفضلية كربلاء وقدسيّتها، فيندفع الزائرون في موجات عظيمة منذ العصر الأوّل إلى زيارتها بغية كسب الأجر والثواب في الدارين.

فإنّ ما كان يصدر من ناحية الأئمة عليه السلام بهذا الصدد لم يكن مجرد إعلان عن أمر، أو محض دعاية لقضيّة، وإنّما كانت قضيّة حقيقية وعقيدة

(١) كامل الزيارات: ٤٥٢ / باب ٨٨ / ح (٩/٦٨٢).

(٢) كامل الزيارات: ٤٥٢ / باب ٨٨ / ح (٧/٦٨٠).

(٣) كامل الزيارات: ٤٥٣ / باب ٨٨ / ح (١١/٦٨٤).

ثابتة، وقضية إسلام وإيمان راسخ، لأنَّ عمل الأئمة عليهم السلام أنفسهم أيضاً كان على ذلك.

فقد روى أبو هاشم الجعفري قال: دخلت على أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام، وهو محموم عليل، فقال: «يا أبا هاشم، ابعث رجلاً من مواليينا إلى الحائر يدعوا الله لي»، فخرجت من عنده، فاستقبلني علي بن بلال، فأعلمته مقالة الإمام، وسألته أن يكون الرجل الذي يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنني أقول: هو أفضل من الحائر إذ كان بمنزلة من في الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له بالحائر. فأعلمت الإمام ما قال، فقال لي: «ألا قلت له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من البيت والحجر، فكان يطوف بالبيت ويُقبّل الحجر، وإنَّ الله تبارك وتعالى بقاعاً يُحبُّ أن يُدعى فيها، فيستجيب لمن دعاه، فأنا أحبُّ أن يُدعى لي حيث يُحبُّ الله أن يُدعى فيها والحائر من تلك البقاع»^(١).

فيظهر من كلِّ ذلك ما كان يُعلِّقه الأئمة عليهم السلام من الأهمية العظيمة على كربلاء، وأنها أفضل وأشرف بقعة في العالم حيث يُحبُّ أن يُعبد ويُدعى فيها، وأنه يستجيب لمن دعاه فيها، وكان عمل الأئمة عليهم السلام أنفسهم على ذلك أيضاً.

إنَّ قتل الحسين عليه السلام ودفنه في كربلاء البقعة المقدسة جاء مغيراً لمرامي الحزب الأموي في قلب الإسلام^(٢).

(١) بحار الأنوار ٩٨: ١١٣ و ١١٤ / ح ٣٤.

(٢) فمن أعمال بني أمية الكثيرة ومحاولاتهم لقلب الإسلام استنصار أبي سفيان وشخصه للروم ضد المسلمين يوم اليرموك، فقد رآه عبد الله بن الزبير إذا كانت الروم ظهرت على المسلمين قال أبو سفيان: إي بني الأصفر، فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان: ويح بني الأصفر، وبنو الأصفر ملوك الروم.

فلقد أصبحت كربلاء بعد الحجاز مركزاً دينياً جديداً في قلب الإمبراطورية الإسلامية الجديدة، جاثية ما بين ضفة الفرات وحافة الصحراء على مفترق الطرق من العالم القديم، لتمد أنوار النبوة المشعة من المدينة المنورة إلى بقية أقطار العالم من بلاد الهلال الخصيب وإيران والهند وقفقازيا وتركستان والصين وغيرها، ويُجَلُّ كربلاء وبيت الله الحرام في صفاف واحد ليدركها من لم يستطع أن يدرك ذاك من المسلمين الحقيقيين المتمسكين بتعاليم نبيهم العظيم ودينهم القويم.

وقد خطت كربلاء بعد لأي في مستهل القرن الثالث من الهجرة بخطوة أوسع من ذي قبل في الاتجاه الشرقي نحو أقطار الشرق الأقصى، فجثى حرم الرضا عليه السلام على أبواب الهند في خراسان ليعث بهذا النور في الاتجاهات المختلفة الأخرى من مصدره المدينة وكربلاء.

ثم دعوته للأموية واستهتاره بالمبادئ الإسلامية علناً يوم تولى عثمان ودخل داره، فدخل عليه بنو أمية حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة، فانتهره عثمان وساء ما قال، وأمر بإخراجه. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٤٠٠ / ط الأولى).

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان أتى أبو سفيان قبر حمزة، فركله برجله، ثم قال: يا حمزة، إن الأمر الذي كنت تقاثلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به من بني تيم وعدي. (النزاع والتخاصم: ٥٧).

وإن رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن، وآخرها يوم العقبة، يستنفروا برسول الله ﷺ ناقته، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٠٢ / ط الأولى).

وأما أعمال بقية الأمويين فهي أظهر من الشمس، ولا مجال للإطالة فيها. وذكر الزمخشري في المجلد الأول من ربيع الأبرار (ص ٥٥٩): مرّ أبو سفيان بعد إسلامه بأحد، فقيل له: أي يوم لك هاهنا؟ فقال: والآن لو وجدت رجالاً. (المؤلف رحمه الله).

فضربت هاشم قبائها الذهبية العالية في أنحاء العالم المعمور في الحجاز، وعلى ضفة الفرات ودجلة والنيل والبحر الأبيض المتوسط، إذ هناك جامع رأس الحسين في عسقلان، وعلى ضفاف نهر بردي في الشام حيث قبر الست زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين عليه السلام خارج دمشق، وقبر السيّدة فاطمة بنت الحسين، ومقام رؤوس شهداء كربلاء الستة عشر، وجميعها مدفونة بباب الصغير في الشام، وكذلك قبر السيّدة رقية بنت الحسين في وسط الشام قرب السوق الكبير، وفي خراسان إلى الهند إلى الصين قبر الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وبقيت أُمّة الطاغية مطمورة مخذولة وملعونة منكودة، مع أنّ هذا الحزب العلوي قد توارى نهائياً، غير أنّ آثاره بقيت مقفّية ومبادئه قائمة إلى يومنا هذا.

ولعلّ في ما تقدّم سرّ بعض ما جاء في الرواية التالية، وهي رواية قدّامة بن زائدة المشهورة عن السجّاد علي بن الحسين عليه السلام نذكرها بتمام سندها الطويل فيما يلي:

حديث الإمام زين العابدين عليه السلام في فضل زيارة الحسين عليه السلام:

روى أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عيّاش، قال: حدّثني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه، قال: حدّثني أبو عيسى عبيد الله بن الفضل بن محمد بن هلال الطائي البصري، قال: حدّثني أبو عثمان سعيد بن محمد، قال: حدّثنا محمد بن يسار - أو سيّار - الكوفي، قال: حدّثني أحمد بن محمد الواسطي، قال: حدّثني عيسى بن أبي شيبة القاضي، قال: حدّثني نوح بن درّاج، قال: حدّثني قدّامة بن زائدة، عن أبيه، قال: قال علي بن الحسين عليه السلام:

«بلغني يا زائدة أنك تزور قبر أبي عبد الله أحياناً»، قلت: إن ذلك لكما بلغ، فقال لي: «فلماذا تفعل ذلك ولك مكان عند سلطانك الذي لا يحتمل أحداً على محبتنا وتفضيلنا وذكر فضائلنا والواجب على هذه الأمة من حقنا؟».

فقلت: والله ما أريد بذلك إلا الله ورسوله، ولا أحفل بسخط من سخط، ولا يكبر في صدري مكروه ينالني بسببه.

فقال: «والله إن ذلك لكذلك؟».

فقلت: والله إن ذلك لكذلك، يقولها ثلاثاً وأقولها ثلاثاً.

فقال عليه السلام: «أبشر ثم أبشر ثم أبشر فلا تخبرنك بخبر كان عندي في النخب المخزون: فإنه لما أصابنا بالطف ما أصابنا، وقُتِلَ أبي عليه السلام وقُتِلَ من كان معه من ولده وإخوته وسائر أهله، وحملت حرمه ونساؤه على الأقتاب، يُراد بنا الكوفة، فجعلت أنظر إليهم صرعى، ولم يواروا، فعظم ذلك في صدري، واشتدَّ لما أرى منهم قلقى، فكادت نفسي تخرج، وتبينت ذلك مني عمّتي زينب الكبرى بنت علي عليه السلام، فقالت: ما لي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي وأبي وإخوتي؟ فقلت: وكيف لا أجزع وأهلع، وقد أرى سيدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي وأهلي مصرعين بدمائهم مرمّلين بالعرى مسلّين لا يكفّنون ولا يوارون ولا يعرج عليهم أحد ولا يقربهم بشر، كأنهم أهل بيت من الديلم والخزر.

فقالت: لا يجوز عنك ما ترى، فوالله إن ذلك لعهد من رسول الله ﷺ إلى جدّك وأبيك وعمّك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، إنهم

يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة وهذه الجسوم المضرجة فيوارونها، وينصبون بهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يُدرّس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام، وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً وأمره إلّا علوّاً.

فقلت: وما هذا العهد وما هذا الخبر؟

فقالت: نعم، حدّثني أمّ أيمن أنّ رسول الله ﷺ زار منزل فاطمة عليها السلام يوماً من الأيام فعملت له حريرة، وأتاه علي عليه السلام بطبق فيه التمر، ثمّ قالت أمّ أيمن: فأتيتهم بعُسّ فيه لبن وزبد، فأكل رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين من تلك الحريرة، وشرب رسول الله ﷺ وشربوا من ذلك اللبن، ثمّ أكل وأكلوا من ذلك التمر والزبد، ثمّ غسل رسول الله ﷺ يده وعلي يصبّ عليه الماء، فلما فرغ من غسل يده مسح وجهه ونظر إلى علي وفاطمة والحسن والحسين نظراً عرفنا به السرور في وجهه، ثمّ رمق بطرفه نحو السماء، ووجّه وجهه نحو القبلة، وبسط يديه ودعا، ثمّ خرّ ساجداً وهو ينشج، فأطال النشوج وعلا نحيبه وجرت دموعه، ثمّ رفع رأسه وأطرق إلى الأرض ودموعه تقطر كأنّها صوب المطر، فحزنت فاطمة وعلي والحسن والحسين وحزنت معهم لما رأينا من رسول الله ﷺ، وهبناه أن نسأله، حتّى إذا طال ذلك قال له علي، وقالت له فاطمة: ما يبكيك يا رسول الله؟ لا أبكي الله عينيك، فقد أقرح قلوبنا ما نرى من حالك، فقال: يا أخي سررت بكم سروراً ما سررت مثله قطّ، وإني لأنظر إليكم وأحمد الله على نعمته عليّ فيكم إذ هبط عليّ جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد، إنّ الله تبارك وتعالى أطلع عليّ ما في نفسك وعرف سرورك بأخيك وابنتك وسبطيك، فأكمل لك

النعمة وهنأك العطية بأن جعلهم وذرياتهم ومحبيهم وشيعتهم معك في الجنة لا يفرق بينك وبينهم، يُحبون كما تُحبي ويُعطون كما تُعطي، حتى ترضى وفوق الرضا، على بلوى كثيرة تنالهم في الدنيا، ومكاره تصيبهم بأيدي أناس يتحلون ملتك ويزعمون أنهم من أمتك براء من الله ومنك، خبطاً خبطاً وقتلاً قتلاً، شتى مصارعهم، نائية قبورهم، خيرة من الله لهم ولك فيهم، فاحمد الله ﷻ على خيرته وارض بقضائه، فحمدت الله ورضيت بقضائه بما اختاره لكم.

ثم قال لي جبرئيل عليه السلام: يا محمد، إن أخاك مضطهد بعدك، مغلوب على أمتك، ومتعوب من أعدائك، ثم مقتول بعدك، يقتله أشر الخلق والخليقة وأشقى البرية، يكون نظير عاقر الناقة، ببلد تكون إليه هجرته، وهو مغرس شيعة وشيعة ولده، وفيه على كل حال أكثر بلواهم ويعظم مصابهم، وإن سبطك هذا - وأوماً بيده إلى الحسين عليه السلام - مقتول في عصابة من ذريتك وأهل بيتك وأخيار من أمتك بضفة الفرات بأرض يقال لها: كربلاء، من أجلها أكثر الكرب والبلاء على أعدائك وأعداء ذريتك في اليوم الذي لا ينقضي كرب ولا تُفنى حسرته، وهي أطيب بقاع الأرض وأعظمها حرمةً، يُقتل فيها سبطك وأهله، وأئمتها من بطحاء الجنة، فإذا كان ذلك اليوم الذي يُقتل فيه سبطك وأهله، وأحاطت به كتاب أهل الكفر واللعنة، تزعزعت الأرض من أقطارها، ومادت الجبال وكثر اضطرابها، واصطفقت البحار بأمواجها، وماجت السماوات بأهلها غضباً لك يا محمد ولذريتك، واستعظماً لما يُنتهك من حرمتك، ولشراً ما تكافئ به في ذريتك وعترتك، ولا يبقى شيء من ذلك إلا استأذن الله ﷻ في نصره أهلك المستعفين المظلومين الذين هم حجة الله على خلقه بعدك.

ثم يبعث الله قوماً من أمتك لا يعرفهم الكفار، لم يشركوا في تلك

الدماء بقول ولا فعل ولا نيّة، فيوارون أجسامهم، ويقيمون رسماً لقبر سيّد الشهداء بتلك البطحاء يكون علماً لأهل الحقّ وسبباً للمؤمنين إلى الفوز، وتحفّه ملائكة من كلّ سماء، مائة ألف ملك في كلّ يوم وليلة، يصلّون عليه، ويطوفون عليه، ويُسبّحون الله عنده، ويستغفرون الله لمن زاره، ويكتبون أسماء من يأتيه زائراً من أُمَّتك متقرباً إلى الله تعالى وإليك بذلك.

وسيجهتد أناس ممّن حقّت عليهم اللعنة من الله والسخط أن يعفو رسم ذلك القبر ويمحو أثره، فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم إلى ذلك سبيلاً.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: فهذا أبكاني وأحزنني، قالت زينب عليها السلام: فلمّا ضرب ابن ملجم أبي عليه السلام ورأيت عليه أثر الموت منه، قلت له: يا أبة، حدّثني أمّ أيمن بكا وكذا، وقد أحببت أن أسمعك منك. فقال: يا بنيّة، الحديث كما حدّثتك أمّ أيمن، كأتّي بك وبنساء أهلِكَ سبائاً بهذا البلد أذلاء خاشعين، تخافون أن يتخطّفكم الناس، فصبراً صبراً، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما لله على ظهر الأرض يومئذٍ وليّ غيركم وغير محبّيكم وشيعتكم، ولقد قال لنا رسول الله ﷺ حين أخبرنا بهذا الحديث: إنّ إبليس لعنه الله في ذلك اليوم يطير فرحاً، فيجول الأرض كلّها بشياطينه وعفاريته، فيقول: يا معاشر الشياطين، قد أدركنا من ذرية آدم الطلبة، وبلغنا في هلاكهم الغاية، وأورثناهم النار إلّا من اعتصم بهذه العصاة، فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فيهم، وحملهم على عداوتهم وإغرائهم بهم وأوليائهم، حتّى تُستحكم ضلالة الخلق وكفرهم، ولا ينجو منهم ناج، ولقد صدق عليهم إبليس -وهو

كذوب - أنه لا ينفع مع عداوتكم عمل صالح، ولا يضرُّ مع محبتكم وموالاتكم ذنب غير الكبائر»^(١).

وبالتالي إنَّ لكربلاء سمعةً وذكرًا عند أهل البيت عليهم السلام، لا زالوا يذكرونها ويكون من لدن آدم إلى ولادة الحسين عليه السلام، ففي حديث النبي ﷺ مع فاطمة عليها السلام حين جائته بالحسين، فأخذه النبي وقبَّله وبكى، وقال لها: «يا فاطمة، إنَّه سيُقتل في كربلاء، تقتله أُمَّتِي»، فقالت: «يا أبة، لا حاجة لي فيه»، فقال: «إنَّ الله قد أخبرني أنَّه يجعل الأئمة من ولده»، فقالت: «قد رضيت يا رسول الله»^(٢).

وعن أنس بن مالك، قال: إنَّ عظيمًا من عظماء الملائكة استأذن ربَّه ﷻ في زيارة النبي ﷺ فأذن له، فهبط إلى النبي، فبينما هو عنده جالس إذ دخل عليه الحسين عليه السلام، فقال له النبي: «إليَّ يا حبيبي»، فدنا من النبي فقبَّله النبي وأجلسه في حجره، فقال له الملك: أُنحِبُّه؟ قال ﷺ: «أجل أشدَّ الحبِّ، إنَّه ابني»، قال: أما إنَّ أُمَّتكَ ستقتله، قال: «أُمَّتِي تقتل ابني هذا؟»، قال: نعم، وإن شئت أريتكَ من التربة التي يُقتل عليها، قال: «نعم»، فأراه تربة حمراء طيبة الريح، فقال: إذا صارت هذه التربة دماً عبيطاً فهو علامة قتله»^(٣).

وفي (كامل الزيارات)^(٤) عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «نعى جبرئيل الحسين إلى النبي ﷺ في بيت أُمِّ سَلَمَةَ، فدخل عليه

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٧٩ - ١٨٣ / ح ٣٠.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٠٥ / باب ١٥٦ / ح ١.

(٣) أمالي الطوسي: ٣١٤ / ح (٨٦/٦٣٩).

(٤) كامل الزيارات: ١٢٨ و ١٢٩ / باب ١٧ / ح (٢/١٤٣).

٣٠٨ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

الحسين عليه السلام وجبرئيل عنده، فقال جبرئيل: إِنَّ هذا تقتله أُمَّتُكَ، فقال رسول الله ﷺ: أرني من التربة التي يُسْفَكُ فيها دمه، فتناول جبرئيل من تلك التربة قبضة فإذا هي تربة حمراء.

وعن أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قالت: خرج رسول الله ﷺ من عندنا ذات ليلة فغاب عنا طويلاً، ثم جئنا وهو أشعث ويده مضمومة، فقلت له: يا رسول الله، مالي أراك أشعثاً؟! فقال: «أُسرِي بي في هذا الوقت إلى موضع من العراق يقال له: كربلاء، فأريت فيه مصرع ابني الحسين وجماعة من ولدي وأهل بيتي، فلم أزل أَلْقُطُ دُمَائِهِمْ فها هي في يدي» وبسطها إليّ وقال: «خذيها واحتفظي بها»، فأخذتها فإذا هي شبه تراب أحمر، فوضعتها في قارورة وسدّدت رأسها واحتفظت به، فلمّا خرج الحسين عليه السلام من مكّة متوجّهاً نحو العراق، كنت أخرج تلك القارورة في كلّ يوم وليلة فأشَمُّها وأنظر إليها ثم أبكي لمصابه، فلمّا كان في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وستين أخرجتها ونظرتها أوّل النهار وهي بحالها، ثم نظرتها آخر النهار فإذا هي قد فاضت دماً عبيطاً، فصحت في بيتي وبكيت وكظمت غيظي مخافة أن يسمع أعداؤه بالمدينة فيتسرّعوا بالشّماتة، فلم أزل محافظةً للوقت واليوم حتّى جاء الناعي ينعاه فحقّق ما رأيت^(١).

(٢٢)

هل أقدم الحسين عليه السلام على الهلكة؟

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾
(البقرة: ١٩٥).

قد يتساءل: كيف تحدّى إبراهيم الخليل عليه السلام شعور قومه وأهائهم في آهتهم وأعظم مقدّساتهم، ولم يعبأ بالنمرود صاحب الحول والطول؟ هذا وهو أعزل من السلاح والمال لا ناصر له، حتّى أبويه لم يجرءا على مناصرته والذبّ عنه.

حطّم الخليل آلهة قومه، وداسها بقدميه، وقال للألوف المؤلّفة: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٧)، ولم يخش سطوتهم ونارهم التي أوقدوها لحرقه حيّاً.

وموسى الكليم عليه السلام الشريد الطريد الذي أكل بقلة الأرض حتّى بانث خضرتها من شفيف بطنه لهزاله، وحتّى سأل ربّه قطعة خبز يألكها من جوع وتضرّع إليه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤)، هذا الفقير إلى لقمة الخبز يصرخ في وجه فرعون المتألّه صاحب النيل والملك الطويل العريض، ويقول له: أنت الضالّ المضلّ!

ومحمّد اليتيم ﷺ الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، كيف سفّه أحلام قريش سادة العرب وسبّ آهتهم؟! وبأيّة قوّة هدّد كسرى ملك الشرق، وقيصر ملك الغرب، وكتب إلى كلّ: أسلم تسلم؟!

وبكلمة واحدة: ما هي القوة؟ وما هو الدافع الذي بعث الأنبياء والرسل على تلك المغامرات التي لا يقدم عليها إلا المعتوه لا يدري ما يقول، أو رسول لا ينطق بلسانه بل بلسان قوة خارقة وفوق القوى جميعاً؟!

وليس من شك أن الأنبياء حين يدعون الجابرة الطغاة وأهل الجاه والسلطان دعوة الحق إنما يدعونهم مدفوعين بقوة لا تقاوم، ويخاطبونهم باسم الله الذي يؤمنون به أكثر من إيمانهم بأنفسهم، وباسم الوحي الذي يسمعون به عقولهم وأذانهم.

يقدم الجيش أو يحجم بأمر قائده ورئيسه، ويبرز الفرسان إلى الميدان فيقتلون أو يُقتلون، ومن يُقتل فهو شهيد تقام له حفلات التكريم والتعظيم، وتُرفع له في الساحات العامة النصب والتماثيل، وتُوضع على قبره أكاليل الأوراد والزهور. وهكذا الأنبياء يقدمون بدافع من الله وقيادته، ويتحدّون أهل القوة والسلطان بأمر الله وإرادته فيتصرون أو يُقتلون، وهم في الحالين عظماء يمثلون أمر الله وبه يعملون، فإذا استشهدوا فإنما يستشهدون وهم يُبلغون كلمة الله إلى خلقه ويمثّلون الإنسان في أسمى حالات الأخلاق والتضحية.

هذا هو منطق أهل الدين والعقل، وهذي هي عقيدة أصحاب الإيمان والوجدان، أمّا الملحدون الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر من شباب هذا العصر، ومثلهم السذج والمغفلون من قبل ومن بعد، أمّا هؤلاء فيقولون: لقد جازف الحسين عليه السلام بخروجه إلى العراق، لأن أهله أهل الغدر والنفاق، وأصحاب أبيه وأخيه، وإذا خرج وخدعته كتبهم ورسلمهم فكان عليه أن يستسلم بعد أن رأى ما رأى من عزمهم

وتصميمهم على قتله وعجزه عن الذبّ والدفاع عن نفسه وأهله، قالوا هذا وهم يعتقدون أنّ الاستشهاد فضيلة ممّن استشهاد مع قائد يملك العدة والعدد، أمّا الحسين عليه السلام في نظرهم فقد خاطر وجازف، لأنّه استشهاد ولا قوّة تدعمه وسلطان يناصره.

إنّ الذين يقولون هذا القول يخطئون الفهم ولا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، إنّ الحسين عليه السلام لهم ينهض من تلقاء نفسه ولم يخرج إلى العراق رغبة في شيء من أشياء هذه الحياة، وإنّما خرج بأمر الله، وقاتل بإرادة الله، واستشهد بين يدي الله، فكما أنّ الجندي لا مناص له من البراز والنزال حين صدرت إليه أوامر رئيسه وقائده، كذلك الحسين عليه السلام لا ندحة له إلى التخلّص والفرار بعد أن أمره الله... كما كان وفعل، ويؤكد هذه الحقيقة قول الحسين عليه السلام لمن نهاه عن الخروج إلى العراق، فلقد أتاه فيمن أتاه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال له: أنت ولد رسول الله ﷺ وأحد سبطيه، لا أرى إلّا أن تصالح كما صالح أخوك الحسن فإنّه كان موقفاً رشيداً. فقال له الحسين عليه السلام: «يا جابر، قد فعل ذلك أخي بأمر الله ورسوله وإنّي أيضاً أفعل بأمر الله ورسوله»^(١)، وهذا الجواب يُحدّد لنا سلوك الحسين في حياته كلّها ولا يدع قولاً لقائل، وأنّه يسير بأمر الله وعلى سُنّة جدّه رسول الله ﷺ، فلقد أوقع النبي ﷺ صلح الحديبية مع مشركي مكّة بأمر الله، ومحا كلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم) و(محمّد رسول الله) من كتاب الصلح بأمر الله. ورضي أبوه عليّ بالتحكيم يوم صفين بأمر الله. وصالح أخوه الحسن معاوية بأمر الله، ونهض هو نهضته المباركة بأمر الله.

إنّ الذين يعترضون على نهضة الحسين لا يُفسّرون الأشياء

تفسيراً واقعياً ولا تفسيراً دينياً، وإنَّها يُفسَّرونها تفسيراً ذاتياً وشخصياً محضاً لا يمتُّ إلى العلم والدين بسبب، ولا ينظرون إلى حكمة الله وحجَّته البالغة التي يهلك بسببها من هلك عن بينة، ويحيا من حيٍّ عن بينة.

لقد بيَّن سيّد الشهداء كلمة الله ودعا إلى الحقِّ، وحذَّر المخالفين من عاقبة الظلم والطغيان في خطبة خطبها عليهم يوم عاشوراء، فقال عليه السلام:

«فسحقاً لكم يا عبيد الأُمّة، وشُذّاذ الأحزاب، ونَبْذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيدي عترة الأوصياء، وملحقي العهّار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمّة المستهزئين، ويحكم أهواء تعضدون وعنا تتخاذلون؟! أجل والله غدر فيكم معروف، وشجت عليه أصولكم، وتأزّرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر وأكلة للغاصب، ألا إنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السّلة والذّلة وهيئات منّا الذّلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللّثام على مصارع الكرام...»

أما والله لا تلبثون بعدها إلّا كريث ما ركب الفرس حتّى تدور بكم دور الرّحى، وتقلق قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي، فأجمعوا أمركم وشركائكم، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثمّ افضوا إليّ ولا تُنظرون، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ^(١).

وقال عليه السلام حين بلغه مقتل مسلم بن عقيل: «وأيّم الله لتقتلني الفتّة الباغية، وليلبسَنَّهُم الله ذلّاً شاملاً وسيفاً قاطعاً»^(١).

ليس هذا القول تنبؤ بالصدفة، وأخذاً من مجرى الحوادث كلاً وإنما هو كما قال الإمام عهد من الله سبحانه إلى نبيّه محمد ﷺ ومنه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ومنه إلى الإمام الشهيد، وقد صدّق التاريخ ذلك وما نقص منه شيء، فلم يلبث قاتلوا الحسين عليه السلام حتّى دار الزمن بهم دوراته وضرهم بضرّاته.

لقد دعا نبيّ الله يحيى إلى الواحد الأحد فقتله جبّار أثيم وأهدى رأسه بطشت إلى بغيّ، ودعا الحسين عليه السلام إلى الحقّ والعدل فقتله الطغاة وأهدوا رأسه إلى يزيد اللعين، وقُتِلَ زكريا وغيره من الأنبياء وهم يُبشّرون ويُنذرون، فإذا كان الحسين عليه السلام قد أخطأ في استشهاد من أجل الحقّ والعدل فقد أخطأ إذن الأنبياء والأولياء والمصلحون الذين قُتلوا وشُرِّدوا في سبيل الله وإعلاء كلمة الحقّ وإلقاء الحجّة على المبطلين.

قال علي بن الحسين عليه السلام: «ما نزل أبي منزلاً أو ارتحل منه - في مسيره إلى العراق - إلّا وذكر يحيى بن زكريا عليه السلام، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله تعالى أنّ رأس يحيى بن زكريا عليه السلام أهدى إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل»^(٢).

ذكر الحسين عليه السلام يحيى للشبه بين الاثنين، فلقد أهدى رأس الحسين إلى بغيّ من بغايا الأمويين الذين كانوا أشرّ وأضرّ على العرب والمسلمين من صهاينة هذا العصر، نكث يزيد رأس الحسين بالخيزران

(١) اللهوف: ٤٣ و ٤٤.

(٢) الإرشاد ٢: ١٣٢.

عناداً لله ورسوله، ولأنَّ في هذا الرأس الشريف علوم القرآن الكريم والرسول العظيم.

أقول: ما نزل الحسين عليه السلام منزلاً في مسيره إلى العراق إلا وذكر يحيى بن زكريا، وقال عندما أراد التوجّه إلى العراق لعبد الله بن عمر: «يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله تعالى أنَّ رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغىٍّ من بغايا بني إسرائيل؟ أما تعلم أنَّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثمّ يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً؟ فلم يُعجل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام، أتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعنَّ نصرتي»^(١).

من الغريب أنَّ عبد الله بن عمر هذا الذي جمع في قلبه قوّة الإيمان من صحبة الرسول، وقوّة الصلابة في الحقِّ من تراث أبيه - على ما يقولون - هذا الرجل القويّ تخاذل أمام قوّة الباطل حتّى ركب بين يدي يزيد الفاسق وائتمَّ به في الصلاة وهو يرى بأُمِّ عينيه تضحية الحسين في سبيل الرسالة الإلهية، ولم يجرء جراته في الحقِّ ولم يصلب صلابته في الإيمان، ثمّ لم يقدم على التضحية بنفسه وأهله وأصحابه كما فعل الحسين عليه السلام، ولو أنَّ ابن عمر وأضرابه من الصحابة الأذنين تابعوا حسيناً وأبا حسين في هذه التضحيات لما قامت قائمة لدين معاوية ودين سخله يزيد وهم يعلمون أنَّ دينهم هذا الذي حاربوا دين محمّد به هو دين مسيلمة الكذاب ودين سجاح وطليحة الكذبة.

* * *

(٢٣)

فضيلة كربلاء

وقدسية تربتها في الإسلام

أُعطيَت كربلاء حسب النصوص الواردة بأكثر ممَّا أُعطي لأيِّ أرض أو بقعة أُخرى من المزيَّة والشرف في الإسلام، فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدَّسة المباركة، وأرض الله الخاضعة المتواضعة.

وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله ورسوله، وقبَّة الإسلام التي نجَّى الله عليها المؤمنين الذين آمنوا مع نوح من الطوفان، ومن المواضع التي يُحِبُّ الله أن يُعبَد ويُدعى فيها، وأرض الله التي في تربتها الشفاء.

فإنَّ هذه المزايا وأمثالها التي اجتمعت لكربلاء لم تجتمع لأيِّ بقعة من بقاع الأرض حتَّى الكعبة كما يُلاحظ.

وقد جرت على ألسنة الشعراء وأقلام الكتَّاب من بعد الواقعة وإلى يومنا هذا المقارنة بينها وبين الكعبة، وتفنَّوا بمختلف أساليب الثناء والنظم في إثبات فضلها وقداستها وشرفها، واستطالت أرضها على جميع الأقطار بالفضل والشرف، وهذه الأرض المباركة لم تنل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلَّا بالحسين عليه السلام كما نصَّ عليه الحديث، وزادها في تواضعها وشكرها لله بالحسين عليه السلام وأصحابه.

وليس أحاديث فضل هذه التربة وقداستها منحصرة بأحاديث

٣١٦ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة
 الأئمة عليهم السلام، إذ أن أمثال هذه الأحاديث لها شهرة وافرة في أمّهات كتب بقيّة
 الفرق الإسلامية عن طريق علمائهم ورواتهم، وهي هذه التربة التي يُسمّيها أبو
 ريحان البيروني في كتابه (الآثار الباقية)^(١): (التربة المسعودة في كربلاء).
 ومنها ما رواه السيوطي في كتاب (الخصائص الكبرى) / طبع
 حيدرآباد/ سنة ١٣٢٠ هـ)^(٢) في باب إخبار النبي ﷺ بقتل الحسين
عليه السلام، وروى فيه ما يناهز العشرين حديثاً عن أكابر ثقاتهم كالحاكم
 والبيهقي وابن نعيم وأمّ سالمة وعائشة، وأنس بن مالك، وأكثرها عن ابن عبّاس
 وأمّ سلمة وأنس، ويقول الراوي في أكثرها: إنّه دخل على رسول الله
ﷺ، والحسين عليه السلام في حجره، وعينا رسول الله تهرقان الدموع، وفي
 يده تربة حمراء، فيسأله الراوي عن التربة، فيقول له: «أتاني جبرائيل
 فأخبرني أنّ أمّتي ستقتل ابني هذا، وأتاني بتربة من تربته حمراء، وهي
 هذه».

وفي هذه وفي البعض الآخر منها: «أنّه يُقتل بأرض العراق، وهذه
 تربتها»، وأنّه أودع تلك التربة عند أمّ سلمة زوجته، فقال: «إذا رأيته قد
 فاضت دماً فاعلمي أنّ الحسين قُتل»، وكانت تتعهّدها أمّ سلمة حتّى إذا
 كان يوم عاشوراء عام شهادة الحسين عليه السلام وجدتها قد فاضت دماً،
 فعلمت أنّ الحسين عليه السلام قد قُتل.

فلا اختلاف إذن بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم في فضل
 كربلاء وقدسيتها تربتها.

(١) الآثار الباقية: ٣٢٩ / ط ١٣٨٠ ش / مركز پژوهشي ميراث مكتوب / تهران.

(٢) الخصائص الكبرى ٢: ١٩١.

ولم نشأ أن نتوسّع في هذا الباب بأكثر ممّا يتّصل بأصل الموضوع اتّصلاً وضعيّاً لولا ما كان قد أثاره البعض من مروّجي الكذب والباطل ممّن دأبهم الاختلاق وديدنهم البهتان والافتراء.

فرأينا من الواجب توضيح الأمر وتنوير الأذهان ردّاً لأقوالهم ودحضاً لمزاعمهم الباطلة المخالفة للحقيقة والواقع.

فقد أثار نفر من الجاهلين لأغراض سياسية ومنافع ذاتية شبهة ضدّ الشيعة، فأخذوا يُوسّعون هذه الشبهة حتّى صوّروها حقيقة واقعية فأدخلوها في أذهان العوام تدريجياً حتّى أصبحت عقيدة راسخة في نفوس الجهّال والمستضعفين، فتعدّت من هؤلاء إلى الأوربيين البسطاء، فانعكست تلك الأباطيل الواهية في كتابات المستشرقين المساكين البعيدين كلّ البعد عن عوائد المسلمين واختلافاتهم المذهبية، حتّى أدّت ببعض من هؤلاء الأجانب إلى الاستفسار عن هذه المسألة من المراجع الشيعة العليا في العراق بغية تدوين ما يدلّون به من معلومات في دوائر المعارف البريطانية.

فانظر إلى أيّ درجة تبلغ الدعايات الضارّة، وعلى ذلك يجب أن يُقاس ما بلغت إليه هذه الشبهة من السخافة.

وتلك الشبهة هي أن صوّر البعض من خصوم الشيعة وأعداء التشيع بأنّ (التربة) التي يستعملها الشيعة للسجود عليها في الصلاة بدعة، وأنّها بدعة في الدين.

والحالة أنّ الأمر بسيط جدّاً، وعلى غاية البساطة، ولا يستلزم أيّ طعن في أهمّ فرقة من الفرق الإسلامية التي أثبتت تمسّكها بمبادئ الدين القويم وآل بيت الرسالة بأكثر من الغير.

ولمّا انبثت دعوتهم الباطلة، وانتشرت بين العوام، وارتوت وأينعت على مرّ الأيام، فأصبحت ثمرة ناضجة زادوها نعمة أخرى فقالوا: إنّها وثنية، وأنّ السجود على تربة الحسين عليه السلام ضرب من عبادة الأصنام والأوثان، دون أن يميّزوا بين السجود على الشيء وبين السجود للشيء، فسمّوا التربة أقرصاً ودعوها ألواحاً وحجراً إلى غير ذلك من أسماء وأوصاف خيالية أرادوا بها تقوية دعواهم، وتأييد تقوّلاتهم الواهية.

ونحن خدمة لحقيقة، وتنويراً للرأي العام الإسلامي المغلوب على أمره من قبل البعض من النفعيين والانتهازيين، وإرشاداً للمستشرقين الأوربيين المخدوعين بأقوال المهوّسين المضلّين، رأينا من الواجب أن نستعرض هذا الموضوع من الناحيتين التاريخية والدينية، لما له من الصلة بتربة الحسين عليه السلام وقديسيته.

فنستعرض بالترتيب عادة تقديس التربة في الإسلام، ثمّ اختلاف الشيعة مع الآخرين في ما يجوز وما لا يجوز عليه السجود، ثمّ سبب اختيار تربة كربلاء وما ورد فيها من الحديث وعمل الأئمّة عليهم السلام على ذلك، ثمّ سرّ السجود على تربة الحسين عليه السلام من وجهة الدين مع بيان الفرق بين السجود للشيء والسجود على الشيء، ورفع شبهة المفترين على الشيعة لسجودهم على التربة...^(١).



(١) إلى هنا انتهى ما كتبه السيّد الشهيد الوالد رحمته الله، وأسرعت الشهادة إليه وهو يستعرض سيرة وحياة سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وذلك في عام (١٩٩١م) في الانتفاضة الشعبانية، فنسأله تعالى أن يحشره مع الحسين وأصحاب الحسين عليهم السلام.

مصادر التحقيق

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - أبو الشهداء: عباس محمود العقّاد / ٢٠١٢م / مؤسّسة هنداوي / مصر.
- ٣ - الآثار الباقية: أبو ریحان البيروني / ط ١٣٨٠ش / مركز پژوهشي ميراث مكتوب / تهران.
- ٤ - الاحتجاج: الطبرسي / ت محمد باقر الخرسان / دار النعمان / ١٣٨٦هـ.
- ٥ - الأخبار الطوال: الدينوري / ت عبد المنعم عامر / دار إحياء الكتاب العربي / ط ١ / ١٩٦٠م.
- ٦ - الاختصاص: الشيخ المفيد / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.
- ٧ - اختيار معرفة الرجال: الشيخ الطوسي / مط بعثت / قم / مؤسّسة آل البيت / ١٤٠٤هـ.
- ٨ - الإرشاد: الشيخ المفيد / ت مؤسّسة آل البيت / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.
- ٩ - أسباب النزول: الواحدي النيسابوري / ١٣٨٨هـ / مؤسّسة الحلبي / القاهرة.
- ١٠ - الاستيعاب: ابن عبد البر / ت البجاوي / ط ١ / ١٤١٢هـ / دار الجيل / بيروت.
- ١١ - أشعة من حياة الحسين (سموّ المعنى): عبد الله العلايلي / طبعة جديدة ١٩٨٦م / دار مكتبة التربية / بيروت.

٣٢٠ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

١٢ - الإصابة: ابن حجر/ ط ١ / ١٤١٥هـ/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

١٣ - الاعتقادات: الشيخ الصدوق/ ت عصام عبد السيد/ ط ٢ / ١٤١٤هـ/
دار المفيد/ بيروت.

١٤ - إعلام الوري: الطبرسي/ ط ١ / ١٤١٧هـ/ مط ستارة/ مؤسّسة آل البيت/ قم.

١٥ - الأعلام: الزركلي/ ط ٥ / ١٩٨٠م/ دار العلم للملايين/ بيروت.

١٦ - الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني/ دار إحياء التراث العربي.

١٧ - إقبال الأعمال: ابن طاووس/ ت جواد القيومي/ ط ١ / ١٤١٤هـ/
مكتب الإعلام الإسلامي.

١٨ - الأمالي: الشيخ الصدوق/ ت قسم الدراسات/ ط ١ / ١٤١٧هـ/
مؤسّسة البعثة.

١٩ - الأمالي: الشيخ الطوسي/ ت مؤسّسة البعثة/ ط ١ / ١٤١٤هـ/ دار
الثقافة/ قم.

٢٠ - الإمامة والتبصرة: ابن بابويه/ ط ١ / ١٤٠٤هـ/ مدرسة الإمام الهادي/
قم.

٢١ - الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري/ ت الزيني/ مؤسّسة الحلبي.

٢٢ - أنساب الأشراف: البلاذري/ ت محمّد باقر المحمودي/ ط ١ /
١٣٩٤هـ/ مؤسّسة الأعلمي/ بيروت.

٢٣ - بحار الأنوار: العلامة المجلسي/ ط ٢ المصحّحة/ ١٤٠٣هـ/ مؤسّسة
الوفاء/ بيروت.

٢٤ - البداية والنهاية: ابن كثير/ ت علي شيري/ ط ١ / ١٤٠٨هـ/ دار إحياء
التراث العربي/ بيروت.

- ٢٥ - بصائر الدرجات: محمد بن الحسن الصفار / ت كوجه باغي / ١٤٠٤هـ / مط الأحمدى / منشورات الأعلمي / طهران.
- ٢٦ - تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون / ط ٤ / دار إحياء التراث العربى / بيروت.
- ٢٧ - تاريخ الخلفاء: السيوطي / ١٣٧١هـ / مط السعادة / مصر.
- ٢٨ - تاريخ الطبري: الطبري / ط ٤ / ١٤٠٣هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.
- ٢٩ - تاريخ العرب والتمدّن الإسلامي: السيّد مير علي / طبع مصر / سنة ١٩٣٨م.
- ٣٠ - التاريخ الكبير: البخاري / المكتبة الإسلاميّة / ديار بكر / تركيا.
- ٣١ - تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر / ت علي شيري / ١٤١٥هـ / دار الفكر / بيروت.
- ٣٢ - تحف العقول: ابن شعبة الحرّاني / ت علي أكبر الغفاري / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.
- ٣٣ - ترجمة الإمام الحسين: ابن عساكر / ت المحمودي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / مط فروردين / مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة / قم.
- ٣٤ - تفسير ابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم الرازي / ت أسعد محمد الطيب / دار الفكر / بيروت.
- ٣٥ - تفسير البيضاوي: البيضاوي / دار الفكر / بيروت.
- ٣٦ - تفسير الثعلبي: الثعلبي / ت أبي محمد بن عاشور / ط ١ / ١٤٢٢هـ / دار إحياء التراث العربى / بيروت.
- ٣٧ - تفسير القرطبي: القرطبي / ت البردوني / دار إحياء التراث العربى / بيروت.

٣٢٢ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

٣٨ - تفسير القمّي: علي بن إبراهيم القمّي / ت طيب الجزائري / ط ٣ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة دار الكتاب / قم.

٣٩ - التفسير الكبير: الفخر الرازي / ط ٣.

٤٠ - تفسير فرات الكوفي: فرات بن إبراهيم الكوفي / ط ١ / ١٤١٠هـ / مؤسّسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي / طهران.

٤١ - تفسير مجمع البيان: الطبرسي / ت لجنة من العلماء / ط ١ / ١٤١٥هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.

٤٢ - تنزيه الأنبياء: الشريف المرتضى / ط ٢ / ١٤٠٩هـ / دار الأضواء / بيروت.

٤٣ - التوحيد: الشيخ الصدوق / ت هاشم الحسيني الطهراني / جماعة المدرّسين / قم.

٤٤ - الثاقب في المناقب: ابن حمزة الطوسي / ت نبيل رضا علوان / ط ٢ / ١٤١٢هـ / مؤسّسة أنصاريان / قم.

٤٥ - ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق / ت محمّد مهدي الخرسان / ط ٢ / ١٣٦٨ش / مط أمير / منشورات الشريف الرضي / قم.

٤٦ - جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري / ط ٢ / ١٣٨٤هـ / دار الجليل / بيروت.

٤٧ - حياة الإمام الحسين: باقر شريف القرشي / ط ١ / ١٣٩٤هـ / مط الآداب / النجف الأشرف.

٤٨ - الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي / ط ١ كاملة محقّقة / ١٤٠٩هـ / مؤسّسة الإمام المهدي / قم.

٤٩ - خزانة الأدب: البغدادي / ط ١ / ١٩٩٨م / دار الكتب العلمية / بيروت.

٥٠ - الخصال: الشيخ الصدوق/ ت علي أكبر الغفاري/ ١٤٠٣هـ/ جماعة المدرّسين/ قم.

٥١ - خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: النسائي/ ت محمد هادي الأميني/ مكتبة نينوى الحديثة/ طهران.

٥٢ - خلاصة عبقات الأنوار: السيّد حامد النقوي/ ١٤٠٥هـ/ مؤسّسة البعثة/ طهران.

٥٣ - الدرّ المنتور: السيوطي/ دار المعرفة/ بيروت.

٥٤ - دلائل الإمامة: الطبري (الشيعة)/ ط ١/ ١٤١٣هـ/ مؤسّسة البعثة/ قم.

٥٥ - ديوان السيّد حيدر الحليّ: السيّد حيدر الحليّ/ تحقيق علي الخاقاني.

٥٦ - ديوان دعبل: دعبل الخزاعي/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مؤسّسة الأعلمي/ بيروت.

٥٧ - ذخائر العقبيّ: أحمد الطبري/ ١٣٥٦هـ/ مكتبة القدسي/ القاهرة.

٥٨ - روضة الواعظين: الفتال النيسابوري/ ت محمد مهدي الخراسان/ منشورات الشريف الرضي/ قم.

٥٩ - زهر الآداب: القرواني/ ط ٤/ ١٩٧٢م/ دار الجيل/ بيروت.

٦٠ - سنن ابن ماجه: ابن ماجه القزويني/ ت محمد فؤاد عبد الباقي/ دار الفكر/ بيروت.

٦١ - سنن أبي داود: ابن الأشعث السجستاني/ ت محمد اللحام/ ط ١/ ١٤١٠هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٦٢ - سنن الترمذي: الترمذي/ ت عبد الوهاب عبد اللطيف/ ط ٢/ ١٤٠٣هـ/ دار الفكر/ بيروت.

- ٦٣ - السنن الكبرى: البيهقي / دار الفكر / بيروت.
- ٦٤ - سنن النسائي: النسائي / ط ١ / ١٣٤٨هـ / دار الفكر / بيروت.
- ٦٥ - الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى / ط ٢ / ١٤١٠هـ / مؤسّسة إسماعيليان / قم.
- ٦٦ - شرح إحقاق الحقّ: السيّد المرعشي / ت شهاب الدين المرعشي / مكتبة المرعشي / قم.
- ٦٧ - شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد / ت محمّد أبو الفضل إبراهيم / ط ١ / ١٣٧٨هـ / دار إحياء الكتب العربية / بيروت.
- ٦٨ - الصحاح: الجوهري / ت أحمد عبد الغفور العطار / ط ٤ / ١٤٠٧هـ / دار العلم للملايين / بيروت.
- ٦٩ - صحيح البخاري: البخاري / ١٤٠١هـ / دار الفكر / بيروت.
- ٧٠ - صحيح مسلم: مسلم النيسابوري / دار الفكر / بيروت.
- ٧١ - الصراط المستقيم: علي بن يونس العاملي / ت محمّد باقر البهودي / ط ١ / ١٣٨٤هـ / مط الحيدري / المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.
- ٧٢ - الصناعتين: أبو هلال العسكري / ط ١ / ١٣١٩هـ / مط محمود بك.
- ٧٣ - الصواعق المحرقة: ابن حجر الهيتمي / ط ١ / ١٩٩٧م / مؤسّسة الرسالة / بيروت.
- ٧٤ - الطبقات الكبرى: محمّد بن سعد / دار صادر / بيروت.
- ٧٥ - الطرائف: ابن طاووس / ط ١ / ١٣٩٩هـ / مط الخيام / قم.
- ٧٦ - علل الشرائع: الشيخ الصدوق / ت محمّد صادق بحر العلوم / ١٣٨٥هـ / منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعاتها / النجف الأشرف.
- ٧٧ - العمدة: ابن البطريق / ١٤٠٧هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.

- ٧٨ - العوالم (الإمام الحسين): عبد الله البحراني / ط الأولى المحققة / ١٤٠٧هـ / مدرسة الإمام المهدي / قم.
- ٧٩ - العين: الخليل الفراهيدي / ط ٢ / ١٤٠٩هـ / مؤسّسة دار الهجرة.
- ٨٠ - عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق / ت حسين الأعلمي / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.
- ٨١ - عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري / ط ٣ / ١٤٢٤هـ / دار الكتب العلمية / بيروت.
- ٨٢ - غاية المرام: هاشم البحراني / ت السيّد علي عاشور.
- ٨٣ - الغدير: الشيخ الأميني / ط ٤ / ١٣٩٧هـ / دار الكتاب العربي / بيروت.
- ٨٤ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة: محمّد بن علي المعروف بالطقطقي / دار صادر / بيروت.
- ٨٥ - الفصول المختارة: الشيخ المفيد / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.
- ٨٦ - الفصول المهمّة: ابن الصبّاغ / ت سامي الغريزي / ط ١ / ١٤٢٢هـ / مطرور / دار الحديث.
- ٨٧ - القاموس المحيط: الفيروزآبادي.
- ٨٨ - قرب الإسناد: الحميري القميّ / ط ١ / ١٤١٣هـ / مط مهر / مؤسّسة آل البيت / قم.
- ٨٩ - الكافي: الشيخ الكليني / ت علي أكبر الغفاري / ط ٥ / ١٣٦٣ش / مط حيدري / دار الكتب الإسلاميّة / طهران.
- ٩٠ - كامل الزيارات: ابن قولويه / ت جواد القيومي / ط ١ / ١٤١٧هـ / مط مؤسّسة النشر الإسلامي / مؤسّسة نشر الثقافة.
- ٩١ - الكامل في التاريخ: ابن الأثير / ١٣٨٦هـ / دار الصادر / بيروت.

٣٢٦ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

٩٢ - الكشف: الزمخشري / ١٣٨٥هـ / شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / مصر.

٩٣ - كشف الغمة: ابن أبي الفتح الأربلي / ط ٢ / ١٤٠٥هـ / دار الأضواء / بيروت.

٩٤ - كنز العمال: المتقي الهندي / ت بكري حياني / ١٤٠٩هـ / مؤسسة الرسالة / بيروت.

٩٥ - كنز الفوائد: أبو الفتح الكراجكي / ط ٢ / ١٣٦٩ش / مط غدير / مكتبة المصطفوي / قم.

٩٦ - لسان العرب: ابن منظور / ١٤٠٥هـ / نشر أدب الحوزة / قم.

٩٧ - اللهوف في قتل الطفوف: ابن طاووس / ط ١ / ١٤١٧هـ / مط مهر / أنوار الهدى / قم.

٩٨ - لواعج الأشجان: محسن الأمين / ١٣٣١هـ / مط العرفان / منشورات مكتبة بصيرتي / قم.

٩٩ - مثير الأحزان: ابن نما الحلي / ١٣٦٩هـ / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.

١٠٠ - مجمع البحرين: الشيخ الطريحي / ت أحمد الحسيني / ط ٢ / ١٤٠٨هـ / مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

١٠١ - المحاسن: البرقي / ت جلال الدين الحسيني المحدث / ١٣٧٠هـ / دار الكتب الإسلامية / طهران.

١٠٢ - مدينة المعاجز: هاشم البحراني / ت عزة الله المولائي الهمداني / ط ١ / ١٤١٣هـ / مط بهمن / مؤسسة المعارف الإسلامية / قم.

١٠٣ - مروج الذهب: المسعودي / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / دار الهجرة / قم.

- ١٠٤ - المزار: ابن المشهدي / ت جواد القيومي / ط ١ / ١٤١٩هـ / مط
مؤسسة النشر الإسلامي / نشر القيوم / قم.
- ١٠٥ - مستدرک الوسائل: الميرزا النوري / ط ١ المحققة / ١٤٠٨هـ / مؤسسة
آل البيت/ بيروت.
- ١٠٦ - المستدرک: الحاكم النيسابوري / إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي.
١٠٧ - مسند أحمد: أحمد بن حنبل / دار الصادر / بيروت.
- ١٠٨ - مسند الإمام علي عليه السلام: السيّد حسن القبانجي / ت الشيخ طاهر
السلامي / ط ١ / ١٤٢١هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.
- ١٠٩ - مصباح المنهجد: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤١١هـ / مؤسسة فقه
الشيعة / بيروت.
- ١١٠ - المصنّف: ابن أبي شيبة / ت سعيد اللحام / ط ١ / ١٤٠٩هـ / دار
الفكر / بيروت.
- ١١١ - معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ١٣٧٩هـ /
مؤسسة النشر الإسلامي / قم.
- ١١٢ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي / ط ٣ / ١٤٠٠هـ / دار الفكر /
بيروت.
- ١١٣ - المعجم الأوسط: الطبراني / ١٤١٥هـ / دار الحرمين.
- ١١٤ - المعجم الصغير: الطبراني / دار الكتب العلمية / بيروت.
- ١١٥ - المعجم الكبير: الطبراني / ت حمدي عبد المجيد السلفي / ط ٢ مزيّدة
ومنقّحة / دار إحياء التراث العربي.
- ١١٦ - المغازي: الواقدي / ت الدكتور مارسدن جونز / ١٤٠٥هـ / نشر
دانش إسلامي.

٣٢٨ فلسفة نهضة الحسين عليه السلام / أو نكبة التاريخ العظمى في سبط النبوة

١١٧ - مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني / ت كاظم المظفر / ط ٢ / ١٣٨٥هـ / المكتبة الحيدرية ومطبعتها / النجف الأشرف.

١١٨ - مقتل الحسين: أبو مخنف الأزدي / ت حسين الغفاري / مطبعة العلمية / قم.

١١٩ - من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ط ٢ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.

١٢٠ - مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب / ت لجنة من أساتذة النجف / ١٣٧٦هـ / المكتبة الحيدرية / النجف.

١٢١ - المناقب: الموفق الخوارزمي / ت مالك المحمودي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي / قم.

١٢٢ - المنتخب: الطريحي / ط ١ / ١٤٢٨هـ / مؤسّسة التاريخ العربي / بيروت.

١٢٣ - موسوعة كلمات الإمام الحسين: لجنة الحديث في معهد باقر العلوم / ط ٣ / ١٤١٦هـ / دار المعروف.

١٢٤ - ميزان الاعتدال: الذهبي / ت علي محمد البجاوي / ط ١ / ١٣٨٢هـ / دار المعرفة / بيروت.

١٢٥ - النزاع والتخاصم: المقرئزي / ت السيّد علي عاشور.

١٢٦ - نزهة الناظر: الحلواني / ت مدرسة الإمام المهدي عليه السلام / ط ١ / ١٤٠٨هـ / مدرسة الإمام المهدي عليه السلام / قم.

١٢٧ - نظم درر السمطين: الزرندي الحنفي / ط ١ / ١٣٧٧هـ.

١٢٨ - النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير / ت طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي / ط ٤ / ١٣٦٤ش / مؤسّسة إسماعيليان / قم.

١٢٩ - نهج البلاغة: الشريف الرضي / ضبط نصّه الدكتور صبحي صالح / ط ١ / ١٣٨٧هـ / بيروت.

١٣٠ - نوادر المعجزات: الطبري (الشيعة) / ط ١ / ١٤١٠هـ / مؤسّسة الإمام المهدي عجل الله / قم.

١٣١ - وفيات الأعيان: ابن خلّكان / ت إحسان عبّاس / دار الثقافة / بيروت.

١٣٢ - ينابيع المودّة: القندوزي / ت علي جمال أشرف الحسيني / ط ١ / ١٤١٦هـ / دار الأسوة.

